سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية

تأليف
سليمان باشا الباروني
تحقيق
محمد على الصليبي

الجزء الثاني

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



سلطنة عمان

وزارة التراث القومي والثقافة

أو

تحقيق


بسم الله الرحمن الرحيم



المقــــدمة

من القضايا البارزة في الحضارة الاسلامية العظيمة ، والتي يقف عندها الباحثون طويلا ، قضية الجهاد ، حيث أدرك هؤلاء الباحثون ان الاسلام نظام شامل لامور الدين والدنيا معا .

فقد انطوت نصوصه على مبادىء أساسية في أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع بل والجهاد والفكر العسكري ، وان الاحداث التاريخية المختلفة تثبت مدى التنسيق والانسجام التام بين الروحانيات و الماديات ، وبين العقيدة والتشريع ، والعبادات والمعاملات .

وقبل أن ندخل في الكلام عن الجهاد في الفكر الاسلامي ، ينبغي ان نعرّف كلمة الجهاد عند المسلمين حيث نجدها تعني بادىء ذي بدء بذل الجهد في مدافعة الشر ، واستجلاب الخير ، وعندما نطلق لفظ (الجهاد) يتجه التفكير لاول وهلة الى الجهاد في المعركة بالنفس أو المال ، ولكننا اذا ما أمعنا النظر بحثا وتدقيقا وجدنا ان هناك انواعا من الجهاد شملها الفكر الاسلامي على رأسها جهاد النفس ، وجهاد الكلمة .

وجهاد النفس هو الجهاد الاكبر ، لان النفس التي نجاهدها ، كثيرا مايختفي فيها الشيطان ، عدو الانسان الاكبر الذى كثيرا مايوسوس له بالشر ، ويجره الى سوء النهاية ، ومن هنا كان تهذيب النفس ومقاومة وساوس الشيطان فيها ، الجهاد الاكبر وبهذا يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه بعد عودتهم ظافرين منتصرين من إحدى المعارك : (رجعتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر) قالوا وما الجهاد الاكبر يا رسول الله ؟ قال : (جهاد النفس) .

نعم انه الجهاد الاكبر ، جهاد يصارع فيه الانسان نفسه ، ويقاوم فيها ميلها نحو الهوى ، ويقمع فيها عنصر الشر اذا ماحاولت أو نزعت الى

الميل نحو الشر والسوء ، ولأنه يوجهها الى جهة الخير والصواب .

من هنا نجد اهتمام الاسلام أولا بمقاومة شرور النفس ووساوس الشيطان ، والعمل على توجيهها صوب البناء الخيّر ، وذلك استعدادا لبناء المسلم الحق ، صاحب النفس الامارة بالخير ، صاحب النفس المطمئنة ، وانه لو صلحت النفوس لاصبح الانسان قوة تستطيع مواجهة العدوان والشر .

أما الجهاد بالكلمة فانه أيضا من أفضل الجهاد لان هذه الكلمة قد تجر على قائلها المتاعب ، وقد تشمل كلمة الحق دعوة الناس وحثهم على الجهاد أو تعليمهم ومنها ايضا الكلمة المقولة او المكتوبة وفي ذلك يقول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام : (جاهدوا المشركين بأيديكم واموالكم والسنتكم) .

ولكن لابد ان نشير هنا الى ان الهدف الاسمى من الجهاد في الاسلام هو العمل على بناء مجتمع جديد متكامل يقوم على اساس الخير والعدل والمساواة ، ويسوده القانون والنظام ، انه المجتمع الجديد الذي جاءت الشريعة السمحاء لتدعو اليه ولتقيمه ، ولتجعل منه مجتمعا مثاليا فاضلا ، فلقد جاء الاسلام للدعوة الى الخير ، خير الناس وسعادتهم في دنياهم وأخراهم كما جعل من الرحمة والفكر السليم واليسر وسائل لتحقيق دعوته : وقد صور لنا القرآن الكريم هذه الامور في آيات كثيرة ، كما فصلته السنة النبوية الشريفة .

وفي ضوء هذه التعليمات سار النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، جاعلا من تعاليم القرآن واوامره وسيلة لهذه الدعوة ، فاستجاب له من استجاب ، وأعرض عنه من أعرض ، وانه في الوقت الذي سارت فيه الدعوة الى الاسلام بحكمة في طريقها السلمي الهادىء قابلها الكثير من العقبات ، والمقاومة من كبار رجالات

قريش ، حيث اخذت في بعض الاحيان جانب العدوان والقسوة البالغة من ايذاء وضرب وتدبير القتل ، بل والقتل الفعلي ، وهكذا حتى امر الله رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام بالهجرة الى دار الانصار يثرب ، حيث انتشرت كلمة الحق بين الأوس والخزرج ، اصبحت المدينة هي مركز الدعوة الاسلامية .

واذا كان المسلمون في مكة تعرضوا لشتى صنوف الايذاء ، وذاقوا مرارة الاضطهاد والتعذيب من كبار قريش بل من أقرب المقربين ، فان الاسلام في المدينة نراه يواجه عدوانا من لون آخر يتمثل في عداوة أشد أعداء الله اليهود ، حيث عارضوا الدعوة الجديدة ، وقاوموها ، وألّبوا الاعداء على الرسول الكريم ، وتآمروا على ايذائه وقتله ، فكان لابد للاسلام أن ينتهج سياسة جديدة غير سياسة المسالمة نحو أعدائه ، وقد قامت السياسة الجديدة على اساس الدفاع عن النفس ضد اي عدوان ، وحفظ حقوق المظلومين والمغلوبين على امرهم في مكة والدفاع عن حرمة العقيدة ، ونزلت الآيات الكريمة تحث على قتال الاعداء وسحقهم ، وتلقينهم دروسا في الدفاع عن حرم الاسلام ، والحفاظ على حرية المسلمين وعزتهم وكرامتهم ، ولقد صورت هذه المبادىء السماوية الجديدة أمور الجهاد ، وفصلته من حيث الاستعداد له ، وبيان أسبابه ، ومقاصده ، وآدابه ، وأهابت بالصلابة والتضحية ، وحثت على مجالدة القوم ومقارعتهم لفرض هيبة الاسلام ، ونفّرت من الفرار ، وبينت منزلة الشهداء والمجاهدين ، واوضحت أحكام الاسرى والغنائم ونظمها .

وبدأت الاستعدادات الحربية والعسكرية والتنظيمات المتصلة بها تأخذ شكلا جديدا يقوم على اسس ومبادىء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، والتفّت الفيالق الاسلامية حول راية الاسلام تحتضنها وتعانقها معاهدة الله على الحفاظ عليها حرة كريمة خفاقة ، ووجدت دعوة التوحيد طريقها الى القلوب ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وانضوت الجزيرة

العربية تحت لواء الدين الحنيف لتنطلق الفيالق المحمدية الى بلاد الشام والعـراق وفـارس وليحقق الله وعـده بنصر المسلمـين ﴿ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ .

وما ان فرغ المسلمون من فتح الشام ومصر حتى اتجهت انظارهم نحو المغـرب ، فأخـذوا يعدون العدة لنشر الاسلام في هذا الجزء من العالم والـذي أضحى بعـد اسـلامـه الحـارس اليقظ المخلص الامـين للدولة الاسلامية في الغرب ، والبوابة الرئيسية التى انطلقت منها الجحافل المؤمنة لترفع رايات الحق والحرية والاخاء حتى جبال البرانس .

وانـه بفتـح المسلمـين لهذه المنطقـة بدأت مرحلة جديـدة فى تاريخ الفتوحات الاسلامية ، فقد كانت عملية الفتح هذه حاسمة بالنسبة لجميع البلدان الـواقعـة في الشمال الافريقي ، وفعّالة بالنسبة للقارة الافريقية بشكل عام ، كذا اوربا ، وذلك نظرا للموقع الاستراتيجي الذي يتمتع به المغرب في أقصى الركن الشمالي الغربي من العالم العربي ، فقد حبا الله هذه المنطقة موقعا يعتبر المنفذ السهل الى اوربا عن طريق جبل طارق .

لقـد حسمت الفتـوحـات الاسلامية مشكلة هوية ومستقبل المغرب لصالح العروبة والاسلام بشكل نهائي لا رجعة فيه ، ولقد تم هذا كله عبر عدة مراحل وبفضل قادة مسلمين أكفياء ملهمين يتصدرهم عقبة بن نافع وغيره من عباقرة القادة الذين رووا بدمائهم الزكية ارض العروبة والاسلام ، وضحوا بالغالي والنفيس في سبيل الحفاظ على هذه الارض حرة عزيزة كريمة لاتطأطىء الجبين الا لخالقها عز وجل ، ومنذ ذلك اليوم والمغرب العربي بشكل عام بموقعه الاستراتيجي ، ونشاطه الفعال اضحى بمثابة العمود الفقري للامة الاسلامية بما قام به من دور رائد في وحدة شعوب المنطقة مما أهله ليكون ملتقى انصهرت في بوتقته مختلف التيارات الحضارية عبر العصور ، وللمواقف الخالدة التي سجلت لابطاله الاوفياء على مدى التاريخ .

والتاريخ الاسلامي زاخر بعمالقة الرجال في مختلف شؤون الحياة ، شخصيات ممتازة قوية بإيمانها ، معتزة بدينها ، مخلصة لرسالتها ، والشخصية التى نقدم لها هنا تعتبر علما من أعلام الاسلام ، والحديث عنها ممتع ، يؤكد لنا مافعلته روح الاسلام في هؤلاء الابطال ، حيث دفعت بهم جميعا علماء وفقهاء ومحدثين ومفكرين ، وقادة سياسيين الى ساحات المجد والفخار ، في البر والبحر يطلبون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، لم يقعدهم البحث والدرس ، ولاغفلت قلوبهم ، ولا ملت السنتهم من ذكر الله ، فجفوا المضاجع ، ونفروا خفافاً وثقالا يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فالاسلام بتعاليمه السمحة ، ومبادئه الكريمة مزج الشعوب مزجا عجبا ، ودفع بكل مسلم من أي خطر لكي يؤدى رسالة دينه ، ورسالة الحق ، حيثما وجد وأنّى استطاع لذلك سبيلا .

كان شيخنا ـ رحمه الله ـ قويّ الشخصية ، عالي الهمة كبير النفس ، رابط الجأش ، مهيب الطلعة ، لم يفتّ من عضده تجمع المراكب ، ولاتكاتف جموع الاعداء ، وكان أن عرف الباب العالي عن الشيخ قدره وعزمه فعينه أميرا على طرابلس ، فقد رفعه علمه ، وعلت به همته ونخوته ، فقام بالامر خير قيام ، فأدى الأمانة ، ونذر نفسه للجهاد في سبيل قضية امته حتى توقف القلب الطاهر عن النبض والحياة ، بعد ان سطر في سجل المجد سجلا دقيق المعاني ، مشرق الصورة ، عميق البيان لما يعتلج في قلوب أمته من حب للوطن واخلاص للعقيدة السمحاء .

جاء في كتاب (حياة سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين ص ٣٦) لمؤلفه أبي القاسم الباروني أن الشيخ ـ رحمه الله ـ ولد بمدينة (جادو) حاضرة متصرفية (فساطو) خلال عام ١٨٧٠ م ، وانه لما شب عن الطوق أبدى ذكاء نادرا في مراحله التعليمية ، وظهرت عليه مخايل النبوغ والمقدرة منذ الصغر ، وأحب العلوم الدينية والعربية حتى دفعه ذلك الحب الى أن يتلقى علومه في جامعات تونس والجزائر ومصر ، ثم قفل الى وطنه ، وكانت له آراء خاصة فيما يتعلق بسياسة الدولة العثمانية .

سافر الى مصر سنة ١٩٠٧ م ، وحينما استقامت له الامور بالقاهرة شرع في مواصلة دعوته الوطنية عن طريق النشر والاجتماعات والمؤتمرات وسواها ، حيث افتتح في شارع محمد علي بالقاهرة مطبعة عرفت باسم المطبعة البارونية ، وقام باصدار صحيفة (الأسد الاسلامي) ، وظل يواصل اصدارها وادارة سياستها بتوجيه حسن ، وحذق ومهارة بالغين حتى امتدت أصابع النفوذ العثماني اليها فأمرت بمصادرة أعدادها ، وايقاف صدورها .

وجاء في مقدمة فضيلة الشيخ أبي اسحاق ابراهيم طفيش للكتاب (١) في ترجمته للباروني بأنه العلامة سليمان باشا الباروني ابن العلامة الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني رجل الدين والعلم والسياسة والحرب والنزاهة من الأرومات العربية العثمانية وهي (البروانية) - كما يقول الباروني نفسه -.

ثم نراه يذكر رحلته في طلب العلم الى وادي ميزاب بالجزائر حيث عكف على الاغتراف من بحر العلوم قطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش ، مرجع المذهب الاباضي يومئذ على الاطلاق ، وواصل الليل والنهار مدة ثلاث سنين حتى اذا أخذ ما كان يصبو اليه من العلم كرّ راجعا الى بلده ثم الى مصر حيث أخذ يظهر انتاجه العلمي في مؤلفاته ويبرزها في عالم المطبوعات ، ثم في جريدة الأسد التى كانت مظهرا من مظاهر سياسته وطموحه الى المعالي والعوالي .

ويكتشف السلطان عبد الحميد فيه نابغة من نوابغ الدهر بعد أن امتحنه أشد امتحـان ، فانتخب عضـوا في مجلس (المبعـوثـان) عن الجبـل الغـربي سنة ١٩٠٨ - ١٩١١ م حيث نشبت حرب طرابلس الغرب مع ايطاليا ، فشمر عن ساق الجد ، وجند من جبل نفوسة قوة باعت نفسها لله ،فجاهدت في سبيله حق جهاده ، ثم انضمت اليها فرق المجاهدين من سائر البلاد الطرابلسية تحت لواء الباروني فأخذ يصول بها ويجول حتى بهر العالم بقيادته ، فأكبر شأنه الباب العالي

(١) حياة سليمان باشا الباروني - زعيم المجاهدين الطرابلسيين - ص ١٢ ط ٢/١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨/ ابو القاسم الباروني .

وانتخب عضوا في مجلس الأعيان العثماني ، وبلغ جهاده في طرابلس الى حد أنه أسس جمهورية في مؤتمر ثمريان (١) ، وكادت ايطاليا تعترف به .

ودارت به الدوائر بعد الخيبة والفشل والنجاح والأمل حتى حط الرحـــال في الأراضي المقدسة بناء على دعوة الشريف حسين بن علي آنئذ الذى أرسل اليه جواز السفر الى الأراضي المقدسة ، واستقبله أجمل استقبال ، واكرم وفادته ، ونزل في رحابه ، ولما بلغ نبأه الى السلطان تيمور بن فيصل أرسل يستحثه على القدوم الى مسقط ، فاستجاب لهذه الدعوة الكريمة ، والقى عصا الترحال في تلك الربوع العامرة من عمان واستقبله السلطان تيمور أجمل استقبال ورحب به . واكرم وفادته فساهم في اصلاح النظم والادارات ولم يأل جهدا في تلمس البلوغ الى غاية يصبو اليها كل مسلم مخلص لله ولرسوله وللمؤمنين في ابراز مظاهر القوة في تلك الدولة العريقة .

ونقلب صفحات كتاب (سليمان الباروني باشا في أطوار حياته) بقلم أبي اليقظان الحاج ابراهيم الجزء الثاني ، والذي طبع سنة ١٣٧٦ هـ ، سنة ١٩٥٦ م في المطبعة العربية بالجزائر لنطلع على سياحته الثانية الى دواخل عمان ومايكتنفها من اعمال حيث يتضح من رسائله أنه زار كلا من السباخ وازكي ونزوى وبلاد بنى بوحسن والقابل وابرا ، وأنه استقبل هناك استقبالا مهيبا .

كما جاء في الكتاب (ص ١٠) أن موكب الباروني مر ببلدة السباخ من بلاد ابرا في طريقه الى نزوى ، وانه استقبل استقبالا حارا من قبل الأهالي ، وأقيم له في يوم ٢٢ صفر سنة ١٣٤٤ هـ حفل ، وان الشيخ عبد الله بن خلفان الجهضمي ألقى قصيدة طويلة ختمها بهذه الابيات :

هذه الدار أضاءت بهجة وتجلى حسنها للناظرين
بقدوم الليث كشاف الدجى قدوة الدين منار المتقين

(١) مؤتمر مشهور دون فيه المؤتمرون القانون الاساسي ، واصبحت الامة ذات كيان سياسي ذات قانون وجند ونظام (ابو القاسم الباروني) حياة سليمان باشا الباروني ط ٢/ص ١٣ .

ذا سليمان البروني الذي صار في الهيجا سهام المجرمين
حاز فخر الدين والدنيا معا زده توفيقا ونصرا يامعين
واظهر الحق الهي دائما واخمد الباطل يارب امين

وفي مركز ازكي القى الاديب الشيخ سالم بن سليمان الرواحي المدرس بجامع ازكي قصيدة يوم ٢٧ صفر سنة ١٣٤٤ هـ ، نجتزىء منها هذه الابيات :

بشر الأمة بالوفد الحسن حيث وافى دارنا بدر الزمن
ناصر الملة موفور الحجا موسع الخلق أياد ومنن
أبلغ الناس مقالا يرتضى يصطفي القول بتخريج حسن
الى أن يقـــول :
ياسليمان ومن ساد على هذه الأمة مجدا لم يهن
أنت للارض ربيع وحيا أنت كهف وملاذ في الزمن
أنت من يحفظ عهدا للورى ويصون العرض صونا عن منن
الى آخر الابيـــات

وفي أوائـل ربيـع الاول سنـة ١٣٤٤ هـ ، وصل الباروني الى نزوى حيث استقبله الامـام الخليـلي في موكب مهيب ، وفي أول جمعة من ربيع الأول سنة ١٣٤٤ هـ ، القى البـاروني بعد صلاة الجمعة خطابا بجامع نزوى ، وقصيدة نذكر منها هذه المقتطفات :

وبدت لعصر الراشدين دلائل إذ لاح من جبل الشراة سناء
فأضاء واسطة البلاد وأشرقت بعمان شمس امانة سمحاء
ويقـــول منهـا
فانهض وشمر فالعوائق جمة ولذا الزمان سياسة خرقاء
تذر العقول الراجحات بحيرة ويرى بليدا من لديه ذكاء
خل القضا لرجاله واعكف على تنظيم جند فالنظام دواء

ويقول أيضـــا :

وأرى الحصون على الجبال تزينها   كالتاج تلك الراية الشماء
تهتز ان قذفت صواعقها الربى   وتضيق من أصدائها الارجاء

وامحُ التداعي بالقبائل إنه   سهم العدو ومحنة سوداء
واجمع قلوبا بالخلاف تمزقت   حتى يضم شتاتهن لواء
ولشبل (فيصل) ولِّ طرفك عاقدا   معه الخناجر فالشقاق شقاء
دع ماتقدم واعملن لمقبل   فلآل (فيصل) همة ووفاء

ويدعو الى اجتماع الصف ووحدة القلوب فيقول :
وهناك اتحدوا ولا تتفرقوا   وتعاهدوا ولْتشهدَنْ حواء
ودعوا وساوس من يفرق واذكروا   مجد الجدود ليسعد العقلاء

وهكذا حتى يصل بنا الى قوله داعيا إلى رأب الصدع ، واجتماع الكلمة :
أما التطاحن والعدا بمراصد   فعلى الجميع مذلة وبلاء
هذي نصيحة مخلص في دينه   ماشابها مدح ولا اطراء
اني امرؤ ترك المديح لأهله   مذ أنشبت أظفارها الهيجاء
فاعذر ففي نصحي مديح كامل   وعليك ياقطب الشراة ثناء

كما جاء في كتاب (سليمان الباروني باشا) لأبي اليقظان ج ٢/ ص ١٥ أن الباروني زار بلدة الحمراء ، وأن أهلها استقبلوه استقبالا عظيما ثمَ يورد المؤلف خبر هذه الرسالة كما جاء على لسان الباروني نفسه حيث يقول ـ رحمه الله ـ :
لما بلغ الشيخ ابراهيم بن سعيد العبري الذى كان تقلد خطة القضاء بمدينة (الرستاق) خبر توجهنا الى (تنوف) وأعيان بلاد الحمراء ، ودعونا للزيارة فتقدمه

اليها ، وهي على مسافة نصف يوم من تنوف واستقبلنا أهلها رجالا وركبانا على مسافة ميلين ، وكان لدخولنا الى الحمراء منظر مطرب ، فقد تلبد دخان بنادقهم ومدافعهم في الجو كالسحاب ، وكنا نمر بين مزارعها الخضراء تحف بنا الرجال والخيل والمهر ، وقد بلغ عدد البنات والخادمات اللاتي يحملن جرار الماء المغطاة بأكواب الزجاج على رؤوسهن نحو المائة ، يراهن الناظر كأسراب الظباء يمينا وشمالا ، ينادين هل من شارب ؟ وترى الأكواب والجرار تلمع كالنجوم عند مقابلة الشمس ، فكان الموكب من اجمل ماشاهدته ـ الباروني ـ من المواكب .

وعند مدخل البساتين لاقانا العلامة بقية السلف شيخ عمان علما وسنا الشيخ ماجد بن خميس البالغ من العمر ـ آنذاك ـ اربعا وتسعين سنة ـ أي قدر عمر قطب الأئمة الشيخ طفيش ـ رحمه الله ـ وبعد الاستراحة انشد الشيخ ابراهيم المذكور آنفا القصيدة الآتية وذلك في يوم ١٤ ربيع الأنور سنة ١٣٤٤ هـ) ١هـ

وهذه أبيات مختارة من القصيدة نوردها على سبيل المثال لا الحصر ومن شاء المزيد فليرجع الى (سليمان الباروني باشا في اطوار حياته ، تأليف أبي اليقظان الحاج ابراهيم ج ٢ ، المطبعة العربية ـ الجزائر ـ ١٣٧٦ هـ ، سنة ١٩٥٦) .

شرقت عمـــان وأهلها	بوفود من حـــاز العلا
السيد البطل الكمي	الليث جـــوّاب الفــلا
باشا ســـليمان الهمـــا	م المرتضى زين الملا
ذاك ابن بارون النفو	سي الشهير ابن الجلا
ذاك الـــذي بعلومه	ظلم الجهالة قـــد جلى

ويصف ـ رحمه الله ـ بعض قمم الجبال الأخضر فيقول :

(من الحمراء صعدت الى احدى قمم الجبل الأخضر المشهورة بالارتفاع (٩) آلاف قدم ، وأقمنا يوما وليلتين ، ورجعنا وهناك قلت هذه الأبيات وذلك يوم ١٦ ربيع الأنور سنة ١٣٤٤ هـ .

في جانب الحمراء طود شامخ متمنطق متعمم بسحاب
يممت قمته الرفيعة راجلا وسجدت للخلاق في محرابي
ومع الأثير بعثت منه تحيتي لجميع من في الأرض من أحبابي
ومع الشعاع رفعت صاعدة الى عرش الاله مطالبي ومتابي
أرجو من المولى قبول جميعها وشمول كل أقاربي وصحابي

ويقول أيضا :

أصفى المياه شربت أعلى قمة فوق السحاب الى السماء قريبة
فيها الرياحين الزكية اعبقت ومناظر للعلعلان غريبة
فيها الهواء منقح وطيورها فوق الغصون لدى الصباح عجيبة

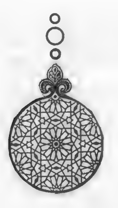
ويذكرون له منظر نزوى وقلعتها التاريخية فتجود قريحته بهذه الأبيات وذلك في ١٦ ربيع الأنور سنة ١٣٤٤ هـ .

قف ههنا وانظرن نزوى وقلعتها ومسقطا قابلا جعلان والجارا
وانظر صحار وحي البحر ملتفتا الى البريمي تجد حصنها نارا
واقبل بوجهك للعينين متجها نحو الحجاز وحيّ الغرب والدارا
هذا سليمان أحيا الليل مبتهلا وههنا أوقد الباروني النارا
يتلو الكتاب يناجي الله منفردا والليل داج وكان الدمع مدرارا

وبعد مؤتمر بهلا الذي انعقد في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٤ هـ تقدم الشيخ

عيسى بجيشه الى الظاهرة ، فقابلته وفودها استقبالا مهيبا وهناك ارتجل الأديب الالمعي - وكان بصحبة الباروني - الشيخ ابو سلام سليمان بن سعيد الكندي قصيدة في ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٤٤ هـ مطلعها :

نفح النصر فهبوا مسرعين   وارفعوا الراية بين العالمين
وامرحوا في الارض شكرا فلقد   نصر الله امام المسلمين



الباروني من وجهة نظر
رجال السياسة والفكر

المواقف تصنع الرجال وان المرء ليدهشه في الباروني قوة احتماله المكاره ، وصبره على الشدائد ، حتى انه في سنة ١٩١٣ م عندما قام بتأسيس الحكومة الوطنية في طرابلس الغرب بعد صلح كل من تركيا وايطاليا المعروف ، لم تترك ايطاليا أية وسيلة في الضغط عليه دون أن تجد الى ذلك سبيلا ، وان المرء اذ يستعرض الصفحة الطيبة من تاريخه ليعجب من نزاهته وقناعته ، والقصص على ذلك كثيرة منها ؛ أنه لما ضاقت عليه الارض بما رحبت ، وارتحل بمن معه من الأبطال الصابرين في الجهاد الى تونس وجد أن الامير عمر طوسون باشا قد أرسل اليه بستة آلاف جنيه كاعانة للمجاهدين ، فلما وصلته ردها وقال في خطابه للامير طوسون : لقد كنت أريد المال للمجاهدين والآن لاجهاد فلا حاجة لي به ، لذا لاغرو ولا عجب أن تحظى شخصية الباروني بالاعجاب والاكبار من قبل الساسة والمفكرين ممن عرفوه واحتكوا به فهذا أبو القاسم الباروني يورد في كتابه (حياة سليمان باشا الباروني ـ زعيم المجاهدين الطرابلسيين ١٩٤٨ م ص٤) وتحت عنوان (الزعيم الباروني في سطور) يورد بعض آراء من عاصروا الباروني وعرفوه حق المعرفة .

يقول الامير عمر طوسون (١)

عرفت الزعيم الباروني المجاهد في الحرب الطرابلسية ، فأكبرته واصبحت له في نفسي منزلة سامية بأفعاله المجيدة ، وخلاله الحميدة ، وبما قدمه لبلده ووطنه من صادق الاخلاص والوفاء ، ولاشك عندي أنه من الذين باعوا الحياة في سبيل الله ، واشتروا بها الجنة ورضوان الله اهـ .

(١) الامير الجليل عمر طوسون باشا رئيس الجمعية الزراعية الملكية من سنة ١٩٣٣ ـ سنة ١٩٤٤ م ، توفى الى رحمة الله يوم الاربعاء ٣٠ المحرم سنة ١٣٦٣ هـ ٢٦ يناير سنة ١٩٤٤ م ، وكان ـ يرحمه الله ـ صاحب اليد العليا فى كل مرافق الاصلاح ، كما كان له اثر كبير فى الحرب الطرابلسية الايطالية وممن قدموا للطبعة الاولى من كتاب (حياة سليمان باشا الباروني) في ٢١ مارس ١٩٤١ م ، ونشرتها جريدة الاهرام بعددها رقم (٣٠٣٦٤١) والصادر فى ١٩٤١/٥/١٩ .

ويقول محمد زاهد الكوثرى (١) :

إن سليمان باشا الباروني رجل التضحية في سبيل الاسلام ، واعزاز كلمة الاسلام ، قلما يدانيه مدان من أهل عصره في هذه الخصيصة النيرة ، ١هـ .

ويقول ابو اسحاق ابراهيم اطفيش (٢)

لقد ترك الباروني باشا زعيم المجاهدين الطرابلسيين فراغا لايمكن أن يسده رجل اليوم ، واين الرجل الذي تجتمع فيه تلك الخصال التى اجتمعت للباروني من علم وشريعة وسياسة رشيدة ، ومعرفة تامة بالفنون الحربية وممارسة القتال ؟! ، مما أفاده في جهاده المستمر ضد الغاصبين المستعمرين ، ويتوج كل هذا سمو فى الاخلاق ، وكرم في المحتد ، وطاعة لله ورسوله ، مما هيأه لأن يكون مصلحا اجتماعيا لايجود الزمان بمثله . ١هـ

وجاء في كلمة اليوزباشي محمد ابراهيم لطفى المصرى (٣) قوله :

لقد كان سليمان الباروني امة مجتمعة في جسد واحد وقوة عظيمة أوجدها الله وهيأها للزعامة في امة كانت أحوج ماتكون الى مثله . ١هـ

أما أبو القاسم الباروني (٤) فيقول :

كان سليمان باشا الباروني ـ رحمه الله ـ مثال الشجاعة والمروءة والجلد على الشدائد ، والأقدام على الصعاب ، معتمدا على الله وعلى نفسه .

---

(١) ممن شغلوا منصب المشيخة الاسلامية بالاستانة

(٢) من العلماء الاجلاء ، وممن لهم اسهامات علمية وفكرية لاتنكر ، وهو خليفة قطب الائمة ، وممن قدموا للباروني في كتاب (حياة سليمان باشا الباروني لابي القاسم الباروني ص ١١) .

(٣) من المجاهدين الذين ساهموا في الكفاح العربي في طرابلس وممن شاركوا في العديد من المعارك ضد ايطاليا ، تجلت في جميعها شجاعته الخارقة ومقدرته الفائقة ، مما استحق عليه ثناء العرب جميعا ، كما ساهم في الكفاح بقلمه وماله ، فأخرج عدة مؤلفات وطنية ، وظل عاملا في حقل الكفاح الى ان توفاه الله في اوائل سنة ١٩٤٨ ، وكان ممن صدروا للطبعة الاولى من مؤلف ابى القاسم الباروني (حياة سليمان باشا) وكان ذلك في صيف ١٩٤٤ .

(٤) هو مؤلف كتاب (حياة سليمان باشا الباروني) زعيم المجاهدين الطرابلسيين والذي صدرت الطبعة الاولى منه في صيف ١٣٦٠ هـ في (٧٢) صفحة من القطع المتوسط والطبعة الثانية بعد مرور سبع سنوات من الطبعة الاولى مزيدة ومنقحة في (١٦٠) صفحة من القطع المتوسط وذلك سنة ١٣٦٧ هـ ـ سنة ١٩٤٨ م بتصدير الامير عمر طوسون باشا .

ويصفه فضيلة الشيخ سالم بن حمود السيابي (١) في حديث شفوى دار بيننا فيقول : (الباروني من خيرة الرجال ، وله همة لا ترضى الا العمل الأرفع لدى منزل يشتاقه كل سيد ويقصر عن ادراكه المتطاول) .

ويـذكـر لي فضيلته انهممن عاصروا الباروني وجالسوه ، وشاركوه في رحلاته وانه ما ان وصـل البـاروني مسقط حتى لقي من السلطان تيمـور كل احـترام ورعـاية وحفاوة ، حيث أكرم وفادته واستقبله استقبالا يليق به ، ويقال ان الامام محمد بن عبـد الله الخليلي رغب في استضـافـة البـاروني ، فقام برحلته الى عمان الداخل واستقبل من قبل العمانيين استقبالا لايليق الا بالملوك ، ولم يزل يتنقل من بلد الى آخر حتى استوطن في عمان وصاهر عائلة الشيخ الجبري علي بن جبر بن محمد بن ناصر الجبري ، وسكن بالقرب منهم بموضع فاروه بسفالة سمائل ، وعاش مع زوجته المذكورة الى أن توفيت وورثها من سمائل .

ويضيف فضيلة الشيخ سالم بن حمود السيابي الى ذلك قوله : وفي عهد السلطان سعيد بن تيمور تولى الباروني نظارة شؤون الولاة فخرج الى الشمال وكان بصحبته الشيخ علي بن عبد الله الخليلي ، وكنت (١) من المصاحبين ، ثم عاد الى مسقط حيث اصيب بمـرض استدعى سفره الى بمباى للعلاج حيث قضى هناك نحبه ودفن فيها .

---

(١) من اعلام مفكري وفقهاء ومؤرخي وادباء عمان ، وممن لهم اسهامات حادة في الفقه والاصول والادب والتاريخ وهـو واحـد من العلماء الـذين ينـدر ان يجود الزمان بأمثالهم ، اثرى الكتبة العربية بمؤلفاته التى تعتبر مراجع للدراسين والباحثين .

(٢) الحديث لفضيلة الشيخ سالم بن حمود السيابي .

ومما يذكره فضيلة الشيخ سالم بن حمود السيابي للباروني أيضا أنه بنى بيتا فى علاية سمائل بموضع الابراهيمية واتخذه مدرسة حاول أن يدخل في مناهجها التعليم العصري ، وأن هذه المدرسة انتقلت الى الشيخ سعود بن علي الخليلي ، كما يذكر فضيلته بأن للباروني ديوانا شعريا اطلع عليه .

وتحت عنوان (أبي كما عرفته) تقول زعيمة الباروني (١) :

(لم يكن والدي ـ رحمه الله ـ يخشى الخطر مطلقا فلم يثنه عن عزمه وتصميمه ما قاساه من تعب ونصب ، وما مر عليه من مشقة وتعذيب ، وقد ظل معتصما بالصبر ، فظل مثابرا على اداء واجبه مهما أحاطت به الظروف ، ومهما اكتنفته النوازل) اهـ .



---

(١) السيدة زعيمة الباروني كريمة سليمان باشا الباروني ومؤلفه كتاب (صفحات خالدة من الجهاد) ، كما ترك الباروني طارق الباروني وعز الدين الباروني حفيدى الزعيم ونجلى ولده ابراهيم .

البـاروني شـــاعرا

عرفنـا البـاروني رجـل السياسة المحنك العارف ، والاسد الذى يصول في ساحـات الـوغى ، والمجـاهد البطل ، وآن لنا أن نتعرف على الباروني الشاعر الانسـان ذي القلب الكبير والعاطفة الأخاذة الجياشة ، وذلك بايراد بعض من نماذجه الشعرية على سبيل التمثيل لا الحصر ، وسنختار هذه الأبيات كما وردت في (حياة سليمان باشا الباروني لأبي القاسم الباروني) .

نبـدأ بايراد أبيات مختارة من رائية له يرثى فيها أخاه الشقيق الشيخ يحيى بن الشيخ عبد الله الباروني ، وقد بلغه نعيه عندما كان مقيما بسمائل عمان ، فنظم هذه القصيـدة فى ليلتي ٢٨ و٢٩ من جمادى الاولى سنة ١٣٤٦ هـ ، وارسلها الى خليفة قطب الائمة الشيخ أبي اسحاق ابراهيم اطفيش ويقول فيها :

يحيى أخي اين انت اليوم مستتر ... ياخير عون اذا ما احدق الخطر
يامخزن السر يارب الوفاء ويا ... فخر الرجال ويامن وجهه قمر
نعاك لي اليوم كل الكاتبين ولم ... أجد سوى الصبر فيما شاءه القدر
بالطبع نحزن لكن هل لنا أمل ... في عودة منك؟ كلا ! مالذا أثر
انا حزنا وطال الصمت وانزعجت ... منا النفوس ولكن هل شفى الضجر؟
هيهات هيهات لا عودٌ ولاصلة ... من بعد موت ولا نعت ولا خبر
الى القيامة حيث الحشر يجمعنا ... نرجو اللقاء وذنب الكل مغتفر

والقصيدة طويلة تقع في (٨٢) بيتا من الشعر .

ومن شعره في الخـــلافة الاسلامية :

الله أكـبـر حـارت الافـكـار ... في حكمــه سبحانه المختـار
حكموا وظنوا ان حكمهم معنا ... وطغوا فغـار الهنا فانهاروا
(نزلوا) وها أنذا قد صعدت فهل لهم ... ان يهدمــوا ماشاده الاقـدار
مـالي ارى (بونكاريا) زلَّت به ... قدمــاه أم قـد دكه الجبار
زمنا قضيت بحكمه متفرنسـا(١) ... فكـأني لـص اليــه يشــار

(١) يقـول هذا من باب التشنيع وكأنه يقول (اصبحت كالمتفرنس) يشير بذلك الى الحضارة في فرنسا وانغلاق ابواب البلاد الاسلامية عليه (ص١٥٦ حياة الباروني باشا) .

البـــاروني والشـــعراء

وللباروني ديوان شعري واشعار عديدة في مناسبات مختلفة نعرض عنها هنا صفحاً عن الاطالة ، ولنتعرف على الباروني من وجهة نظر الشعراء والادباء الذين عرفوه في حياته وواسوه فى مصابه واحزانه ورثوه بعد رحيله الى العالم الآخر .

جاء فى قصيدة نظمها العالم الجليل الشيخ سليمان بن سالم الكندي يرثي فيها صديقه الحميم سليمان باشا الباروني :

ان العروبة والشهامة والحجا	قد ضمنت قبرا به الباروني
طالت به شرفا وطابت تربة	بمباى فيالله من مدفون
أعظم به خطبا جليلا باقيا	ابدا فلا يفنيـــه مرّ قرون
خطب ألم بنا فهدم ركننا	وأباد صنوتنا بريب منون
ما هذه الدنيا بدار اقامة	أبدا فلا تغتر كالمفتون
تلد العجائب فهي حبلى دائما	وخطابها لهم حذار شجوني
كم حسنت للمرء لذته ولم	يشعر فغالته بحرب زبون

والقصيدة فى خمسة وعشرين بيتا

وينظم العلامة الجزائري الشيخ أبو اليقظان ابراهيم بن عيسى الميزابي هذه القصيدة الغراء مخاطبا الباروني في زمن الحرب الطرابلسية الايطالية في (٦) جمادى الأولى ١٣٣١هـ. ومطلعها:

أحرك لي شوقي وهيج لي وجدي	تبسم زهر الياسمين أو الورد؟
وأغصان ريحانة الربا عبثت بها	رياح الصبا تشفي الحزين من الكمد

أم غضـــة غيـداء ذات تغنّجٍ مفلجـة الاسنـان ورديـة الخـد
لهـا الثغر عن حب الغمائم باسم يجود بعذب الريق أحلى من الشهد
لهـا فاحم فاق الغراب ومرسن ومقلة ظبي لا نظيـر لهـا عندي
حمام إذا ماشت ، كثيب اذا ونت قضيب إذا جاءتك مربوعة القد
سلوب متى قصمت، خلوب إذا حكت لعوب إذا لاقت شغفت بها وحدى
يلوح سناها بملأ الجو نشرها اذا أسفرت عن وجهها وعن الجعد
تقبل كعبيها ذوائبها إذا مشت والبرود لا تمس سوى النهد
لها من بديع الحسن مالم توزعا على الغيد أغناهن عن زينة العقد
تحب وصالا مالها عنه سلوة وليس لها عني الى ذاك من بد
فقلت دعيني ياسليمى فان في سويداء قلبي حائلا عنك كالسد
توارَي فلست مغرما بك إنني مشوق إلى من حق بالنصر والمجد
همام عظيم ساقه الله رحمة الى الدين والأوطان والفضل والمجد
هو الشمس لكن لا يغيب وانه لبحر ولكن لا بذي الجزر والمد
والقصيدة تقع في ثلاثين بيتا

ولأبي اليقظان قصائد في الباروني منها قافيّته المشهورة والتى قالها بمناسبة حفلة تكريمية أقامها أبو اليقظان للباروني وذلك في (٢٤) من المحرم ١٣٤٣هـ ومنها قوله :

هلالان هلا بالرحاب والسقا وبدران من أفق السماءين أشرقا
هلال به عام جديد تلألأت مباسمه فوق السما فترونقا
وآخر لاحت من سماء كماله أشعته في جوِّنا فتألقا
وضاءت به الارجاء بشرا وبهجة وفي وجهها ماء السرور ترقرقا
والقصيدة تقع في (٤٠) بيتا من الشعر.

الباروني وشعراء عمان

جاء في (حياة سليمان باشا الباروني) لمؤلفه ابي القاسم الباروني ط٢/ ص١٥٢) أن مجلة المنهاج الشهرية كانت تعنى من حين لآخر بنشر أنباء الحركتين الفكرية والقومية في عمان وكانت تورد في ذلك الكثير مما يتعلق بالباروني مستشار حكومة سلطان عمان إذ ذاك ، ومما جاء في ذلك إحدى فرائد الشيخ عيسى بن صالح الطائي قاضي مسقط حيث يقول :

أقومي ان للعليا رجالا   لهم في نيلها رأي وفكر
لها تحروا الكرى بنصال عزم   وفي وثباتها قصد وكر
إذا ليل الغباوة مد سجفا   جلاه منهم علم وخبر
وكم ظلمات جهل قد محوها   كما يمحى من الأسفار سطر
غذوا أرواحهم بلبان علم   فطال لهم على النظراء قدر
ففرق بين من ساس البرايا   وجربها ومن في الناس غمر
وفرق بين من هزم السرايا   وبين فتى له في الحرب فر
وفرق بين من قال فعلا   وبين فتى له خدع ومكر
أقومي أين مجدكم قديما   تقاصر عنه عيّوق ونسر

إلى أن يقول:

لقد سمح الزمان لكم بقرم   له في خدمة الاسلام بر
هو الشهم (البروني) ذو المزايا   سليل المجد في الهيجاء ذمر
نمته نفوسة شرفا وجادت   به لعمان أيام ودهر

منهـــج التحقيـــق

تناول الكتاب الموضوعات الرئيسية التالية :

امـامـة طرابلس وانتقـال الامـامـة منها الى تيهرت بالمغرب الاوسط وتأسيس مدينة تيهرت وأقوال العلماء والكتاب الذين تناولوا تاريخ هذه المدينة بالاشارة والذكر والمدن التابعة لها والعلماء المنسوبين اليها .

كما تنـاول الكتاب الحديث عن (درعة) وعلمائها وخلافة الامام عبد الرحمن والامام عبد الوهاب وقتل ميمون ابن الامام والأخذ بثأره وخروج الواصلية من المعتزلة على الامام وحروبه معهم والمناظرة والمبارزة ، ثم الحديث عن أبي ايوب ابن العباس على الجبل وحكاية ابن يانس وعماله ، وخلافة الامام افلح بن عبد الوهاب وخبر فرج النفوسي المعروف بنفات الخارج عن الطاعة ، وجوابات الامام أفلح الى المسلمين وهروب نفات الى الشرق واستنساخه ديوان الامام جابر بن زيد رضي الله عنه وولاية أبي ذر أبان على جبل نفوسة ، ومن ثم خلافة الامام ابي بكر ابن أفلح ورجوع أبي اليقظان من بغداد وخبر قتل ابن عرفة وحرب نفوسة وأبي اليقظان مع أهل المدينة واجتماع الاباضية والمعتزلة للمناظرة وحكاية العلامة أبي عبيد الاعرج مع الامام وأخباره ، وولاية أفلح ابن العباس على جبل نفوسة ، وولايـة أبي منصـور على نفوسة وأخباره ، وجواب أبي منصور الى ابن طولـون وحكـايـة أبي اليقـظان مع أخي الخليفة المسجون معه ، وعقد الخلافة لرفيق أبي اليقظان وأخباره معه بعد ذلك ، وطلب الخليفة من أبي اليقظان الاقامة ببغداد .

ويتناول الكتاب خلافة الامام أبي حاتم يوسف بن محمد وسعي بعض المفســدين في المـروق عن طاعـة الامام وحربه مع عمه يعقوب واجماع المسلمـين على خلافة الامام وهروب عمه يعقوب الى طرابلس ودخول

الامام المدينة ، وولاية العلامة أفلح بن العباس على نفوسة وحول أرباب المذهب بتيهرت ووفاة الامام وانقراض ملك بنى رستم فيها واستيلاء الشيعة عليها ورثاء مدينة تيهرت بعد خرابها ، وسياحة المؤلف في المغرب .

لقد تحدث المؤلف باسهاب عما عرض له من موضوعات ويتضح ذلك من حماسه للمادة التي يؤرخ لها مشيرا في ثنايا مؤلفه الى ان مجاورته لقطب الأئمة العلامة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش وملازمته له ثلاث سنين ، ومما كان يسمعه من استاذه الفاضل عن تيهرت وعمرانها وبني رستم وعدلهم فيها ، اشتاقت نفسه الى زيارة أطلالها والوقوف على مابقي من آثارها اعتبارا بمن مضى ، وتزودا من بركات من وطئوا ثراها ، وعمروا بذكر الله سماها ورباها ، فاستأذن استاذه الذى زوده بدعائه الصالح وتوجيهاته القلبية الى تيهرت ليجدها ولم يبق منها الا آثار ورسوم وأنقاض متراكمة ، وبقي من سورها شيء قليل في ناحية يدل على منعته وقوته ، كما زار المؤلف الغار الموجود فيها بالقرب من الشجرتين اللتين يقال ان عمرهما يعود الى وقت عمرانها ، ويذكر المؤلف ان المشهور عن الغار انه كان معبدا لبعض زهاد ذلك الوقت ، كما يستمع من الأعراب المجاورين الى بعض الكرامات .

وهكذا يتضح لنا ان حب الباروني واعجابه بتيهرت دفعاه الى التأريخ لهذه المدينة فكان والحق يقال موفقا فيما ذهب اليه ، عالما بأخبار من أرخ لهم ، لايصدر الأحكام جزافا ، بل يخضعها للعقل والمنطق فنراه بين الفينة والفينة يدلي بآرائه ويعلق على مايؤرخ له ايجابا أو سلبا بأسلوب المؤرخ العالم العارف المسلم بمادته المالك لزمام المبادرة في كل حال وعلى كل حال ؛ لذا جاءت كتاباته هامة لانها اعتمدت على سرد الحقائق واخضاعها للعقل والتحليل المنطقى السليم ودعمها بالحجج والبراهين .

ويلقى الباروني كل رعاية واحترام من قبل المسئولين في عمان ويحظى باهتمام السلطان تيمور الذى أعد قصرا فخما لنزوله ، وأنه قام بمهمة اصلاحية جليلة الشأن حيث لعب دورا كبيرا في ازالة ما كان هناك من جفاء بين الامام محمد بن عبد الله الخليلي وبين السيد تيمور بن فيصل سلطان عمان ، فتقاربت وجهات النظر ، وعادت المياه الى مجاريها من جديد مما كان له أكبر الأثر في نفوس الجميع

ويشير أبو القاسم سعيد يحيى الباروني في كتابه (حياة سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين ط ٢ ص ٤٠) أن الباروني سار على نهج هذه العقيدة المتغلغلة في نفسه حتى تغلب عليه مرض عضال أعيى نفس الاطباء فأشار عليه طبيبه الخاص بالسفر الى بمباى بغية الاستشفاء والتداوى فيها ، ولكن المنية عاجلته ، فما كاد يهبط بمباى حتى اعتلت صحته ولزم الفراش اياما ، ولم ينجح دواء ، ولم ينفع طبيب ، فصعدت روحه الطاهرة الى بارئها ، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ في مساء ١ مايو سنة ١٩٤٠ م .

وهكذا سطر الباروني صفحات مضيئة في سجل الخالدين وانتهت حياة شمعة أضاءت طريق الحرية والعزة والكرامة ردحا من الزمن ، ذلك هو الباروني المكافح ، المناضل ، المجاهد في سبيل عروبته واسلامه ووطنه .

واننا اذ نتقدم بهذا الجهد المتواضع اسهاما منا فى خدمة المسيرة الفكرية والعلمية على أرض السلطنة الحبيبة فاننا لنرجو الله ان يمن بالتوفيق والسداد لكل من ساهم في اخراج هذا الكتاب الى حيز النور ، داعين من الاعماق ان يحفظ على هذا البلد أمنه ورخاءه وطمأنينته في ظل حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم باني نهضة عمان الحديثة ، ومجدد أمجادها السامقة ، والله نسأل التوفيق والهداية ، نعم المولى ونعم النصير .

محققه / محمد علي الصليبي
٣ ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ الموافق ٥ ديسمبر ١٩٨٦ م





التقطت هـذه الصورة للمؤلف في عام ١٩١٦



الحمد لله وحده

قائمقام النواحي الاربعة سابقا علي شالابي بل وفقه الله

اما بعد فقد اقتضى رأينا تعيينكم وكيلا لقائمقام مسلاتة
فعليكم بالتوجه اليها ومباشرة الامور بحزم وتامين الراحة
واصلاح ذات البين ومنع التعدي ومحافظة حقوق
الضعفاء واستعن في امورك بالله وباشراف البلدة
وعليكم بتقوى الله والله الموفق في ٢٢ صفر ١٢٢٥

سليمان الباروني



رســـــالة بخـــط المؤلف





القسم الأول





١ - إمامة طرابلس :

يعتبر سلمة بن سعد الحضرمي أول شخصية تذكرها المصادر الأباضية مقرونة بالدعوة الأباضية في شمال إفريقية ، وقد ارتحل إلى شمال إفريقية بعد عام ٩٥ هـ/٧١٣ م . وقد استقر سلمة في جبل نفوسة في منطقة طرابلس، وكان سلمة شديد الحماس حريصا على نشر الدعوة بين قبائل المغرب، ويروى عنه أنه قال : وددت أن يظهر هذا الأمر بأرض المغرب يوما واحدا من غدوة إلى الزوال فما أبالي أن ضربت عنقي .

وقد ارسل سلمة بن سعد بعض الأشخاص بالذهاب إلى المشرق ليأخذوا العلم ويتفقهوا على يد زعيم الحركة في البصرة الامام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ، وكان أشهر هؤلاء الاشخاص أبا عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناوني ، وقد اصبح ابن مغيطر مقدم الأباضية في منطقة طرابلس بعد اختفاء سلمة عن مسرح الأحداث .

وقد سنحت الأحوال باعلان الامامة الأباضية في طرابلس عام ١٤٠ هـ /٧٥٧ م ، حيث اتفق الأباضية أن يبايعوا الحارث بن تليد إماما عليهم ، فقام الحارث باحتلال طرابلس وبقية ليبيا ولكنه قتل غيلة على أيدي أعوان عبد الرحمن بن حبيب ، والي طرابلس العباسي ، وبويع بعده أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري إماما للأباضية ، وتمكن الأباضية بقيادة أبي الخطاب من الاستيلاء على طرابلس وإتخاذها مركزا كما استولوا في العام نفسه على جزيرة جربة وجبل دمر وقابس ودانت لابي الخطاب معظم بلاد الأدنى واستطاع الاستيلاء على القيروان قصبة إفريقية في العام التالي .

وقد استمر الأباضية في صراعهم مع الولاة العباسيين طيلة خمس سنوات وانتهى النزاع بمقتل الامام المنتخب أبي الخطاب المعافري من معركة تاورنها عام ١٤٤ هـ/٧٦١ م على يد الوالي العباسي محمد بن الأشعث الخزاي .

وبعد هذه الأحداث بويع أبو حاتم يعقوب بن حبيب المعروف بالملزوزي الذي قتل هو الآخر في معركة حامية مع والي الحبة جعفر المنصور ، وكان قد حارب الأغالبة وتغلب عليهم وبعد مقتل أبي حاتم انتقل مركز الأباضية من طرابلس الى تاهرت بالجزائر حيث تكونت دولة الرستميين .

٢ ـ تاهرت :

مدينة من مدن المغرب الأوسط (الجزائر) . . وتذكر الروايات أن عبد الرحمن بن رستم ، والي القيروان من قبل الامام أبي الخطاب ، في إمامة طرابلس ، قد بنى هذه المدينة عقب فراره من جيوش محمد بن الأشعث بعد هزيمة أبي الخطاب عام ١٤٤ هـ/٧٦١ م ، وقد بناها على بعد خمسة أميال في الجنوب الغربي لمدينة تاهرت القديمة التي ترجع الى العصر الروماني ، وقد أصبحت هذه المدينة مضرب الامثال في جمال طبيعتها وموقعها الممتاز ، واتخذها الاباضية عاصمة لامامتهم في المغرب الاوسط .

٣ ـ عبد الرحمن بن رستم :

هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن سام بن كسرى ، من أصل فارسي ، أحد تلامذة أبي عبيدة مسلم في حملة العلم إلى المغرب ، كان قيامه مع أمه بالقيروان ، قدم به أبوه حاجا من فارس فتوفي بمكة وتزوجها رجل مغربي من أهل القيروان فحمل الولد معه ثم عاد الى البصرة مع رجال من المغاربة الى طلب العلم فاستقر بها في رحاب أبي عبيدة خمس سنوات، ثم خرج وقام بدولة الامام أبي الخطاب، وتولى له القيروان، ولما قتل أبو الخطاب خرج عبد الرحمن مع رجال الأباضية إلى الجزائر وبويع له بالامامة، وطار صيته في أطراف الأرض شرقا وغربا، وظل إماما في تاهرت احد عشر عاما، وجعل الأمر من بعده شورى بين سبعة رجال العلم والصلاح وهم ولده عبد الوهاب، ومسعود الأندلسي، وأبو قدامة يزيد بن فندين، وعمران بن مروان الأندلسي، وأبو الموفق سعدوس ابن عطية ، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان، وقد اتفق الجميع على اختيار ابنه عبد الوهاب .

وكان عبد الرحمن قد هرب الى تاهرت وترك القيروان بعد انتهاء إمامة طرابلس، وبدأ في بناء مدينة تاهرت على موضع تاهرت القديمة (الشيخ سالم الحارثي) (العقود الفضية في أصول الأباضية، ص ٢٣٩ / ٢٤٠)

٤ ـ الامام أبو الخطاب :

هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وقد اجتمعت الأباضية على اختياره إماما عام ١٤١ هـ/٧٥٨ م، بعد مقتل الحارث بن تليد على أيدي أعوان عبد الرحمن بن حبيب، وفي عهده دانت معظم بلاد

المغرب الأدنى له واتخذ من طرابلس عاصمة له .

٥ - طرابلــس :

من أهم مدن الشمال الافريقي ، وكانت تقع الى الغرب من برقة ، كما تبدأ بعدها مدن المغرب الأدنى (تونس)

٦ - القـيروان :

من مدن المغرب الأدنى التي أقيمت في زمن الدولة الأموية ، لكي تكون مركـزا للجيوش الاسـلامية التي تقوم على فتح إفريقية ، وترجع الى أيام عقبة بن نافع ، وكانت اعظم مدن إفريقية واكثرها تجارة واموالا وأحسنها منازل وأسواقا ، وكان فيها ديوان جميع المغرب ودار السلطان .

٧ - قابس :

من مدن المغرب الأدنى ، تقع على الساحل ، ويحدها جبل نفوسة من الجنوب ، وبلاد الجريد من غربها كما أن جزيرة جربة تقع بالقرب منها

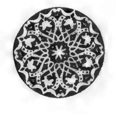
٨ - عبد الرحمن بن حبيب
عامل إفريقية العباسي

٩ - قبائل بربرية :

قبـائـل بربرية خارجة من صلب زناتة وتعتبر لواتة ومزاتة وهم بنو الخطاب ملوك مزاتة .

١٠ - إفريقية والمغرب :

أطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون في العصور الاسلامية على المنطقة التي تقع غرب إقليم برقة اسم إفريقية، والمنطقة التي تجاورها من الغرب اسم المغرب الذي يمتد حتى ساحل المحيط الأطلسي، وقسموا بلاد المغرب الى ثلاثة اقسام هي : المغرب الادنى (تونس حاليا) والمغرب الأوسط (الجزائر الحالية) والمغرب الأقصى (مراكش أو المغرب حاليا) .






القسم الثاني



الباب الاول

في إنتقال الامامة من طرابلس الى مدينة تيهرت بالمغرب الاوسط ومبدأ ذلك وأسبابه

قد تقدم ان عبد الرحمن بن رستم لما ورد عليه امر الامام ابي الخطاب من طرابلس، وهـو عامل له بالقيروان، جهز جيشا وسار به، ولما وصل (قابس) أدركه خبر وفاة الامام، فتفرق عليه الجيش وقامت (قابس) على عاملها فعاد الى القيروان فوجدها قد قامت على وكيله أيضا، ووجد عبد الرحمن بن حبيب ثائرا بها كما مر مفصلا في القسم الاول ، ولما وجد الأمر كذلك خرج مستخفيا قاصدا المغرب، ولم يكن معه شيء الا ما خف من مالـه وابنـه عبـد الوهاب ومملوكه وفرسه وما ساروا غير قليل حتى ماتت الفرس فدفنوها كي لا يعلم بموتها أحد من حزب ابن حبيب فيطمع فيهم ويتبع أثرهم. ولما تعب عبد الرحمن من السير لكبر سنه تناوب حمله ابنه عبد الوهاب على ظهره مع المملوك، وقال كل منهما للآخر اذا لحقنا من العدو ما دون خمسمائة فارس فلا نضع الشيخ (أي عبد الرحمن) الى الارض، وانا أكفيك مؤونة الدفاع وظلوا سائرين قاصدين رحاب المغرب وأكنافه[1] الواسعة

---

(١) أي جوانبه

المزدانة[1] برجال الاباضية اخوانه ومحبي سيرته، حيث يعمه الأمن ويحيط به العز والشرف، ويشمله الاجلال والاحترام، الى ان بلغوا جبلا يعرف بسوفجج، وهو على ما وصف به في التواريخ في غاية المنعة وصعوبة المرقى، فتحصن فيه وسمع به وجوه الاباضية، وعلماؤهم فقصدوه من كل النواحي، حتى اجتمع عنده من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء فقط ما يزيد على ستين من اكابر العلماء وأهل الفضل والرأي، ولما بلغ ابن الاشعث وهو في القيروان كما مر خبر هذا الاجتماع اشتد به الرعب وداخله الفزع، ولم يطب له طعام ولا شراب ولا منام، حتى جهز جيشا وسار به الى الجبل المذكور لمحاصرته قبل أن يعظم ذلك المجتمع، ولما وصله نزل في سفحه[2] وحفر خندقا على معسكره[3] خوفا من هجوم عبد الرحمن، ومن معه عليه واقام محاصرا للجبل زمنا مستعملا كل الحيل في دخوله والاستيلاء عليه، ولم يتمكن من ذلك، ولما سئم[4] الاقامة وتوقع انقلاب الحال عليه وخاف سوء العاقبة ولاسيما بعد أن انتشر داء الحمى والجدري في عسكره حتى هلك منهم خلق كثير استشار في الامر خواصه، فأشار عليه بعض بالارتحال وبعض بالاقامة، فأخذ برأي الأولين وارتحل قائلا ان سوفجج لا يدخله الا دارع ومدجج[5]، ولم نقف على ما نستدل به على تعيين هذا الجبل

(١) أي المتزينة (٢) سفح الجبل أسفله (٣) المعسكر موضع اجتماع العساكر

(٤) أي مل بتشديد اللام

(٥) دارع كلابن وتامر هو الرجل الذي عليه الدرع بكسر الدال وهي حلة من حديد تلبس حال الحرب - تذكر وتؤنث - والمدجج - بتشديد الجيم الاولى - هو الرجل المتقلد بسلاحه الحديد القوي .

قال الحموي في ٤٤٨ كأنه من الديجوج وهو الظلام كانه يختفي في الظلام كما يختفي في السلاح (اهـ)، ولعله بالعكس .

وأي الجبال هو لتبدل الاسماء بتبدل اللغات مع طول الزمن، فدخل القيروان وتحصن بها، واقام عبد الرحمن هنالك حتى اجتمع عليه من أهل الفضل والعلم والصلاح جم غفير وارتحل الى جهة (تاهرت) وهي اذ ذاك مدينة قديمة يسكنها وما حولها قبائل من البربر مثل هوارة، ومكناسة، ونفوسة، ولماية، ومزاتة، وغيرهم، وكلهم أباضية الا النادر ويعدون بمئات الألوف، قال المؤرخ ابن خلدون، وقتل ابو الخطاب وطار الخبر بذلك الى عبد الرحمن بن رستم بمكان امارته في القيروان، فاحتمل أهله وولده ولحق بأباضية المغرب[1] الاوسط من البربر الذين ذكرناهم، ونزل على لماية، لقديم حلف[2] بينه وبينهم، وذكر مثل ذلك العلامة الحموي في تاريخه أيضا، ولما

---

(١) الذي يظهر أن الذي سار فيه عبد الرحمن ومن معه من ذلك الجبل الى حد تاهرت كله عامر بالاباضية لا غير أو لهم السيادة فيه، والا لما أمكن له الوصول بدون ان يعرض له عارض مع اشتهار أمره وشدة طلب العدو له، ولم نعلم السبب المرجح لذهابه الى المغرب دون جبل نفوسة وما حوله العامر بالاباضية مع قربه منه وقوتهم اللهم الا ان يكون ذلك الحلف الذي سيأتي ذكره عن ابن خلدون.

(٢) الحلف ـ بالكسر ـ العهد بين القوم والصداقة والصديق يحلف لصاحبه أن لا يغدر به(١هـ)، قاموس (فائدة) قال والاحلاف قوم من ثقيف (بفتح الثاء) وفي قريش ست قبائل، عبد الدار، وكعب، وجمح، (بضم ففتح) وسهم، ومخزوم، وعدي، لانهم لما أرادت بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية (في المسجد الحرام) وأبت عبد الدار عقد كل قوم على أمرهم حلفا (بكسر الحاء) مؤكدا على أن لا يتخاذلوا فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فوضعتها لاحلافهم وهو، أسد، وزهرة، وتيم، عند الكعبة فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤهم حلفا آخر مؤكدا فسموا الاحلاف وقيل لعمر رضي الله عنه، احلافيّ، (بياء النسب) لانه عدوي(١هـ)، ولعل مراد بن خلدون بالحلف ها هنا مجرد الصداقة والا فلم نعثر في كلام المؤرخين على حصول معاهدة بين عبد الرحمن وبين قبيلة لماية أو غيرها من القبائل قبل توجهه الى جهة تيهرت الا ان يكون ذلك ايام امارته بالقيروان ولم نطلع عليه والله أعلم.

وصلهم استبشروا به لما يبلغهم من استقامته وعدله وعلمه وورعه ، أيام كان عاملا لابي الخطاب على القيروان والتفوا حوله واستظلوا بحمايته، ووقفوا عند أوامره ونواهيه بدون ان يدعي فيهم خلافة أو يطلب بيعة أو ملكا ثم اجتمعوا اليه[1] وقالوا له : لابد لنا من امامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو[2] تكون مأوى ومقرا لامامتنا[3] وملجأ لنا في حربنا وسلمنا فأجابهم عبد الرحمن الى ذلك واستحسن رأيهم .

---

(١) الظاهر ان هذا الاجتماع كان قبل أن يحصل تقديم أبي حاتم ـ رحمه الله ـ في جهات طرابلس كما يتبين بالنظر الى تاريخ تأسيس تاهرت وتاريخ ولايته على ما تقدم وما سيأتي .

(٢) يريدون بذلك أن تكون في وسط مواطنهم ومعظم جموعهم وقوتهم ولا تكون قريبة من حدود مملكة قوية من ممالك غيرهم حتى لا يسهل هجوم العدو عليها كطرابلس فانها على البحر وقريبة من حدود مصر ولذلك لم يستقر لهم فيها قرار .

(٣) أي الامامة التي يضمرون عقدها لعبد الرحمن أو غيره في مستقبلهم اما ابو حاتم فلا ذكر له اذ ذاك ولم نقف على نص يوضح حال أباضية طرابلس والجبل وما يلي ذلك في الزمن الذي بين وفاة أبي الخطاب وامامة أبي حاتم ـ رحمهما الله ـ فانها مدة لايمكن أن تخلو من عمل مع ما هم عليه من القوة عددا وعدة .

الباب الثـاني

ابتداء تأسيس مدينة تيهرت

فاختاروا اذا ذاك من اهل العلم والخبرة بالارض جماعة ليرتادوا[١] مكانا جيد الهواء كثير المياه خصب الارض، قابلا للعمارة مأمونا من العدو كما طلبوا، فطافوا اقطار تلك الجهات الى ان عثروا على المكان الذي ينبت فيه، وكان غابة ملتفة بالاشجار يسكنها انواع الوحوش، قال العلامة الشماخي رضي الله عنه في تاريخه نقلا من تاريخ ابي زكريا رحمهما الله، ان بقية المسلمين ورؤساء العابدين وكبراء الزاهدين من جماعة المؤمنين، اتفقوا على ان يتخيروا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حرزا وحصنا للاسلام، فأرسلوا الرواد[٢]، فطافوا أطراف تلك البلاد فاستحسنوا موضع تاهرت فاتفق رأي المسلمين على بنائها، فجعلوا لاهلها خراجا[٣] معلوما يأخذونه من غلتها،

---

(١) أي ليطلبوا فهو مضارع ارتاد وفي الحديث (اذا بال احدكم فليرتد لبوله أي فليطلب مكانا لينا أومنحدرا)

(٢) جمع رائد وهو الذي يرسل في طلب الكلأ كما في القاموس والمراد هنا المرسلون في طلب أرض على النعت المذكور.

(٣) أي مقدارا معينا من المال يدفعه لارباب الارض أصحاب البيوت والاسواق والحمامات بقانون متفق عليه في كل شهر أو كل سنة وقد عرف بعضهم الخراج فقال : الخراج والخرج (بفتح فسكون) بمعنى واحد وهو أن يؤدي العبد اليك خراجه أي غلته والرعية، تؤدي الخراج الى الولاة واصله من قوله تعالى : ﴿ام تسألهم خرجا﴾ وقرىء خراجا معناه أم تسألهم اجرا على ما جئت به فأجر ربك وثوابه خير، واما الخراج الذي وظفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على السواد فأراضي الفيء فان معناه الغلة ومنه قوله عليه السلام، (الخراج بالضمان)، قالوا هو غلة العبد يشتريه الرجل فيستغله زمانا ثم يعثر منه على عيب دلسه البائع ولم يطلعه عليه فله رد العبد على البائع والرجوع عليه بجميع الثمن والغلة التي استغلها المشتري من العبد طيبة له لانه كان في ضمانه ولو هلك هلك من ماله وكان عمر رضي الله عنه امر بمسح السواد ودفعه الى الفلاحين الذين كانوا فيه على غلة كل سنة ولذلك يسمى خراجا ثم بعد ذلك قيل للبلاد التي فتحت صلحا ووظف ما

وذلك بعد أن راودهم عبد الرحمن على البيع ولم يقبلوا كما سيأتي عن الحموي، وأمروا مناديا فنادى بأعلى صوته قائلا، يا من بها من الوحوش والسباع، ان اخرجوا وارتحلوا، فانا نريد عمارتها ونازلون بها، ولكم اجل ثلاثة ايام، أو ما في معنى هذا الكلام، قال ابو زكريا، وذكروا أنهم رأوها تحمل اولادها في افواهها وهي خارجة من تلك الاشجار فرغبهم ذلك فيها، وزادهم بصيرة في عمارتها.[1]

ولما تم الاجل ولم يبق بها من تلك الوحوش شيء، أوقدوا شجرها نارا فأحرقته، ولما خمدت النار، وتمت تنقية الاشجار[2] وصارت صالحة للعمارة قصدوا الى اختيار محل ليؤسسوا فيه المسجد الجامع قبل كل شيء، فانتخبوا

صولحوا عليه على أرضهم خراجية لان تلك الوظيفة اشبهت الخراج الذي لزم الفلاحين وهو الغلة لان جملة معنى الخراج الغلة وفي الحديث(١هـ) ان ابا طيبة لما حجم النبي صلى الله عليه وسلم امر له بصاعين من طعام وكلم اهله فوضعوا عنه من خراجه (أي من غلته) .

(١) ذكر بعض المؤرخين مثل هذه الحكاية في شأن الصحابة لما فتحوا افريقية وارادوا تأسيس مدينة القيروان ولعل الامام عبد الرحمن اقتدى بهم في تأسيس تاهرت ايضا ولم نجد من نسب له هذه الكرامة من مؤرخي غيرنا اما عندنا ففي كل تاريخ والله أعلم .

(٢) ذكر العلامة الشماخي والعلامة ابو زكرياء - رحمهما الله - انهم وضعوا في أصول تلك الاشجار جيسا (اي معجونا اتخذوه من ثمر واقط وسويق مخلوطين بسمن) فجاءت الخنازير في الليل (وكأنها موجودة بكثرة وتحب هذا المعجون جدا) لما شمت رائحته وصارت تحفر تحت تلك الاصول بحثا وراء ذلك الحيس حتى نزعتها كلها، وبالتأمل يظهر أن هذا الامر يحتاج الى شيء كثير من السمن ولوازمه لما في المكان من كثرة الشجر، ثم انظر كيف يتأتى للخنازير نزع تلك الاصول العظيمة ذات العروق الراسخة المتفرعة في باطن الارض من أحقاب لا يعلمها الا خالقها التي يكل في قطعها الحديد الحاد، فالله أعلم كيف كان ذلك ولعل هناك أمرا آخر سهل نزعها مع الخنازير وأهمله التاريخ أو جعلوا ذلك لما بقى بعد الحرق من أصول الاشجار الرقيقة لكثرتها وأما العظيمة فباشروا ازالتها بأنفسهم وعلى كل حال فلاحظ للنظر مع وجود الاثر اذ ما نقلوا رحمهم الله ذلك ودونوه الا عن يقين وصحة .

أربعـة أمـاكن، ورموا القرعة عليها فجاءت على المكان الذي خصصوه لصلاتهم ايام اقامتهم في تنقية الأشجار، فشرعوا في تأسيسه واختطوها بيوتا وقصـورا وأسـواقـا وحمامات، ومساجد، وفنادق[1] يحيط بالكل سور[2] محكم وتفننوا تدريجيا في عمارتها وتنظيمها، حتى كانت عروس تلك الاقطار وفخر تلك الديار، واصبحت كما وصفها المؤرخون من انها عراق المغرب، وانها بلخ[3] المغـرب، وانها قاعـدة المغـرب الاوسط، لما كان بها من الحضـارة

---

(١) الفنادق جمع فندق وهو لغة الخان أي محل التجارة وفي اصطلاح عصرنا يطلق غالبا على محل كبير ذي بيوت معدة لنزول المسافرين به بالاجرة ويختلف باختلاف المدن والبلاد وفي معداته وترتيباته .

(٢) بقي الى الآن من هذا السور قطعة تدل على متانته وسيأتي في الاصل كلام عليه .

(٣) العراق، وبلخ، من البقاع التي كانت يضرب بها المثل في الحضارة والمدنية والعمران بالشرق في صدر الاسلام خصوصا في دولة بني العباس المعاصرة لدولة الرستميين، أما العراق فكائنة في مصب النهرين المباركين، نهر دجلة ونهر الفرات، ومن مدنه المشهورة «مدينة بابل» وسيأتي زيادة كلام عليه، ولا نزيده الآن تقريظا على ما ذكره الحموي حيث قال في صحيفة ٦٣٠ من المجلد الثالث هكذا، والعراق أعدل الأرض هواء وأصحها مزاجا وماء فلذلك كان أهل العراق هم أهل العقـول الصحيحـة والآراء الـراجحـة والشهـوات المحمودة والشمائل الظريفة والبراعة في كل صناعة . (لا تغفل أيها القارىء فاننا ما سقنا هذا الكلام هنا الا لتشبيههم تيهرت بالعراق) مع اعتدال الاعضاء واستواء الاخلاط وسمرة اللون، وهم الذين انضجتهم الارحام فلم تخرجهم بين أشقر واصهب وأبرص كالذي يعتري ارحام نساء الصقالبة من الشقرة ولم تتجاوز ارحام نسائهم في النضج الى الاحراق، كالزنج والنوبة والحبشة الذين حلك لونهم ونتن ريحهم وتفلفل شعرهم وفسدت آراؤهم وعقولهم فمن عداهم بين أحمر لم ينضج ومجاوز للقدر حتى خرج من الاعتدال، قالوا وليس (بالعراق) مشات كمشاتي (الجبال) ولا مصيف كمصيف (عمان) ولا صواعق كصواعق (تهامة) ولا دماميل كدماميل (الجزيرة) ولا جرب كجرب (الزنج) ولا طواعين كطواعين (الشام) ولا كطيحال (البحرين) ولا كحمى (خيبر) ولا كزلازل (سيراف) ولا كحرارات (الاهواز) ولا كأفـاعي (سجستان) وثعابين (مصر) الى ان قال واقليم بابل موضع التميمة من العقد وواسطة

الاسـلامية ورواج سوق المعـارف والتجـارة الواسعة، اذ كانت ترد اليها وتصـدر منها أنواع البضائع الى السودان وأقصى المغرب وبلاد الاندلس ومصر والشام والحجاز واليمن وبغداد وغير ذلك من البلاد، وكان لها على

القلادة ومكان اللبة من المرأة الحسناء والمحة من البيضة والنقطة من البركار، قال عبيد الله المفتقر الى رحمته وهذا الذي ذكرناه عنهم من ادل دليل على أن المراد بالعراق أرض بابل، الا تراه قد افرده عنه بيا خصه به وقال شاعر يذكر العراق :

الى الله اشكو عبرة قد أظلت ونفسا اذا ما عزها الشوق ذلت
تحن الى أرض العراق ودونها تنائف لو تسري بها الريح ضلت

وأما بلخ، فقد قال فيها وبلغ من أجل مدن خراسان واذكرها وأكثرها خيرا وأوسعها غلة تحمل غلتها الى جميع خراسان والى خوارزم (اهـ) .

ثم نسب اليها جماعة كبيرة من العلماء والفضلاء، وبها ذلك البناء الفخيم المسمى (بالنوبهار) وقد قال فيه ايضا نقلا عن ابن الازرق الكرماني هكذا، كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ قبل ملوك الطوائف وكان دينهم (قبل الاسلام) عبادة الاوثان فوصفت لهم مكة وحال الكعبة بها وما كانت قريش ومن والاها من العرب يأتون إليها ويعظمونها فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام، ونصبوا حوله الاصنام وزينوه بالديباج والحرير وعلقوا عليه الجواهر النفيسة وتفسير النو بهار الجديد، لأن (نو) الجديد وكانت سنتهم اذا بنو بناء حسنا أو عقدوا بابا جديدا أوطاقا شريفا كللوه بالريحان ويتوجون ذلك بأول ريحان يطلع في ذلك الوقت فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما يظهر من الريحان وكان البهار فسمي نو بهار لذلك وكانت الفرس تعظمه وتحج اليـه وتهدي له وتلبسه أنواع الثياب وتنصب على أعلى قبته الاعلام، وكانوا يسمون قبته الاستن (بضم الهمزة والتاء) وكانت مائة ذراع في مثلها وارتفاعها فوق مائة ذراع بأروقة مستديرة حولها وكان حول البيت ثلاثمائة وستون مقصورة يسكنها خدامه وقوامه وسدنته وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود الى الخدمة حولا كاملا ويقال ان الريح ربما حملت الحرير من العلم الذي فوق القبة فتلقاه بترمد (بكسر التاء والميم) وبينها اثنا عشر فرسخا وكانوا يسمون السادن الاكبر برمك لتشبيههم البيت بمكة يسمون سادنه بن مكة فكان كل من ولي منهم

البحر مراس متعددة معروفة ترسو بها مراكبها، ومدن عامرة ذات اسواق رائجة واسوار منيعة وحصون مشيدة وغير ذلك مما سيأتي في أقوال المؤرخين من اخواننـا المـالكية والحنفية، حتى لا يخطر ببال القارىء ان ما قلناه وسنقوله مجرد مبالغة منا أو تمويه لا سند له، وحتى يعلم ذلك الذي جهل

السدانة برمك وكانت ملوك الهند والصين، وكابل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحج الى هذا البيت وكانت ستتهم اذا هم وافوه ان يسجدوا للصنم الاكبر ويقبلوا يد برمك وجعلوا للبرمك ما حول النوبهار من الارضين سبعة فراسخ في مثلها وجميع أهل ذلك الرستاق عبيد له يحكم فيهم بما يريد وصيروا للبيت أوقافا كثيرة وضياعا عظيمة سوى ما يحمل اليه من الهدايا التي تتجاوز الحد وكل ذلك يصل الى برمك الذي يكون عليه فلم يزل يليه برمك بعد برمك الى ان افتتحت خراسان في ايام عثمان بن عفان وانتهت السدانة الى برمك ابي خالد بن برمك فسار الى عثمان مع رهائن كانوا ضمنوا مالا عن البلد ثم أنه رغب في الاسلام فأسلم وسمي عبد الله ورجع الى أهله وولده وبلده فانكروا اسلامه وجعلوا بعض ولده مكانه برمك فكتب اليه، نيزك طرخان، أحد الملوك يعظم ما أتاه من الاسلام ويدعوه الى الرجوع في دين آبائه فأجابه برمك أني انما دخلت في هذا الدين اختيارا له وعلما بفضله من غير رهبة ولم أكن لأرجع الى دين بادي العوار مهتك الاستار فغضب نيزك وزحف الى برمك في جمع كثير فكتب اليه برمك، قد عرفت حبي للسلامة واني قد استنجدت الملوك فانجدوني فاصرف عني أعنة خيلك والا حملتني على لقائك، فانصرف عنه ثم استغره وبيته فقتله وعشرة بنين له فلم يبق له سوى طفل وهو برمك أبو خالد فان امه هربت به وكان صغيرا الى بلاد القشمير من بلاد الهند، فنشأ هناك وتعلم علم الطب والنجوم وأنواعا من الحكمة وهو على دين آبائه ثم ان اهل بلده اصابهم طاعون ووباء فتشاءموا بمفارقة دينهم ودخولهم في الاسلام فكتبوا الى برمك حتى قدم عليهم فاجلسوه في مكان آبائه وتولى النوبهار ثم تزوج برمك بنت ملك الصغانيان فولدت له الحسن وبه كان يكنى وخالدا وعمر وأختا (لعل فيه هنا سقطا وهو لفظ لهم) يقال لها أم خالد وسليمان بن برمك أمه امرأة من أهل بخارا وكان ابن برمك وأم القاسم من امرأة أخرى بخارية ايضا، ولما فتح عبد الله بن عامر بن كريز خراسان أنفذ قيس بن الهيثم حتى قدم مدينة بلخ وقدم بين يديه عطاء بن السائب فدخل بلخ وخرب النوبهار وقال بعض الشعراء يذكر النوبهار :

الاباضية لقلة بضاعته في العلم وعدم اطلاعه حتى قال ما قال[1]، انهم قد اخذوا دور ظهورهم ونفوذ كلمتهم في مقدمة الآخذين في عنصر الاسلام

أوحش النوبهار من بعد جعفر ولقد كان بالبرامك يعمر
قل ليحيى أين الكهانة والسحر وأين النجوم عن قتل جعفر
أنسيت المقدار أم زاغت الشمس عن الوقت حين قمت تقدر

وقال ابو بكر الصمولي حدثنا محمد بن الفضل المذاري (بفتح الميم) عن علي بن محمد النوفلي قال كان برمك يعمر النوبهار ويقوم به وهو اسم لبيت النار الذي كان يبلغ يعظم قدره بذلك فصار ابنه خالد بن برمك بعده فقال ابو الهول الحميري يمدح الفضل بن الربيع ويهجو الفضل بن يحيى ابن خالد البرمكي :

فضلان ضمهما اسم وشتت الاختبار
آثار فضل الربيع مساجد ومنار
وفضل يحيى يبلغ آثاره النوبهار
وما سواه اذا ما أوترت الآثار
بيت يوحد فيه ويعبد الجبار
وبيت شرك وكفر به تعظم نار

انتهى بحروفه .

(١) مما قاله هذا القائل أن الاباضية شرذمة قليلة لا ذكر لهم ولا شأن لا قديما ولا حديثا، فهم احقر الفرق وأقلها لم تقم لهم قائمة ولا نسب اليهم ملك ولا فخر منذ وجدت الفرق وتعجب تعجبا زائدا (بناء على فكره هذا) لما علم بزيارتي الى مكان (تيهرت) كما سيأتي واستعظم ذلك مني ورآه من العبث، فكان ذلك من أكبر الاسباب الداعية لي الى ابراز فضائل هذه المدينة والبحث في صفحات التواريخ عنها بعد ان مضى عليها ما لا يبعد عن الف سنة وهي خراب، ولقد نبهنا الى ما لم يكن خاطرا لنا بالبال فنشكره على ذلك ونتمثل فيه بقول الشاعر الحكيم :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب نشر العود

فهو قد نصح من حيث غش وأرشد من حيث أضل فكان سببا لاظهار المخبآت وابراز المجوهرات، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم، ورب كلمة سوء من سيء قصد بها سوءا جرت منافع .

وشباب العصر القريب من اصحاب مرشد الأنام خاتم الرسالة عليه الصلاة والسلام، وقد ذكر ابن خلدون المغربي المالكي تاريخ انشائها فقال في صحيفة ١١٢ من المجلد السادس من تاريخه، واجتمعت اليه (أي الى عبد الرحمن) طوائف البربر الاباضية من لماية، ولواته، ورجالة، ونفزاوة، فنزل بها (أي بتاهرت) واختط مدينتها سنة مائة واربعة واربعين من الهجرة، وهو موافق لما ذكره الشماخي في سيره[1] وابو زكريا في تاريخه[2]، والدرجيني في طبقاته[3]

والبرادي في جواهره[4] رحمهم الله والله اعلم بالحقائق.

(١) السير : تأليف جامع لمناقب كثيرين من علماء وأئمة المذهب من المغاربة وبعض من مشاهير المشارقة مع بيان اسمائهم وتواريخهم غالبا، لا نظير له في بابه الا سير نفوسة الكبير الذي أكثر مؤلف هذا من النقل منه وهو من كتب المذهب المعتبرة المفقودة اما هذا فموجود مطبوع ومؤلفه العلامة الكامل الشيخ أحمد الشماخي بن سعيد بن الشيخ عبد الواحد صاحب المزار المشهور تحت قصبة ابن مادي بجبل بني يفرن من جبال نفوسة توفي رحمه الله سنة ٩٢٨هـ، وقد ذكر العلامة الشيخ محمد بن زكرياء الباروني رحمه الله أن له فضائل ومناقب جمة عزم على جمعها وكأنه لم يتيسر له ذلك أو فقد المجموع اذ لم يسمع بوجوده أحد والله أعلم والشماخي نسبة الى شماخ وسيأتي الكلام عليه ان شاء الله.

(٢) سير أبي زكرياء تاريخ متوسط فيه كثير مما لم يكن في سير الشماخي ـ رحمه الله ـ وان كان الثاني اشمل من الأول ألفه الامام الناثر الناظم التقي الشيخ أبو زكرياء يحيى من ذرية الشيخ محمد بن بكر رحمهم الله.

(٣) الطبقات تأليف جليل مشهور يتكلم في أئمة المذهب وعلمائه المشهورين بذكر فضائلهم وبعض أخبارهم الا انه غير جامع للكل وقد وقفت عليه وأنا صغير لا اعرف قدره فلم أعرف منه شيئا ولتعذر الحصول عليه حال تحرير هذا فاتني كثير مما يليق بها نحن بصدده مما يمكن نقله من، مؤلفه العلامة النحرير، الشهير بطول الباع في الانشاء والتحرير، من كانت له اليد الطولى في كل الفنون الشيخ أحمد ابن العلامة الكامل الشيخ سعيد الدرجيني رحمهما الله وسيأتي الكلام عليه.

(٤) الجواهر كتاب صغير الحجم عظيم الفائدة تمم بعض ما أهمله صاحب الطبقات من الاخبار



البـاب الثالث

(١) ابو العباس الدمشقي

قال العلامة ابو العباس الدمشقي في تاريخه المطبوع في الهند ـ تاهرت وقـد رسمهـا بالنـون غلطا، اذ ذكـرها في باب النون . . اسم مدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، كثيرتي الاشجار والثمار والمياه .

(٢) ابن واضح العباسي

وقال المؤرخ ابن واضح العباسي الشهير باليعقوبي من علماء الخمسين الاولى من المائة الثالثة للهجرة المعاصر لأئمة بني رستم في تاريخه المطبوع في مدينة (ليدن) من بلاد الافرنج سنة ١٧٦٠ م عند ذكر مدن المغرب ما نصه والمدينة العظمى مدينة «تاهرت» جليلة المقدار عظيمة الامر تسمى عراق المغرب(١)

(١) بشهادة هذا المؤرخ المحقق المتقدم على كثيرين من أرباب التاريخ وشهادة من سيأتي كلامهم أيضا من غيره يعلم القارىء حيف بعض متأخري المؤرخين من أهل مدينة فاس اذ ذكر أن فاس تعرف بعراق المغرب في سابق الزمان ولم يقل هذا أحد من المتقدمين من أهل التاريخ فمن أين جاءه ؟

بها اخلاط [1] من الناس، تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي، وكان عبد الرحمن يتولى افريقية وصار ولده الى تاهرت، فصاروا أباضية ورأس الأباضية، فهم رؤساء اباضية المغرب ويتصل بتاهرت بلد عظيم ينسب الى[2] تاهرت في طاعة محمد بن افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، (وسيأتي بيان اسماء تلك البلاد والمدن كلها) والحصن الذي على ساحل البحر الاعظم[3] ترسو به مراكب تاهرت يقال له مرسى فروخ ، والذي يشف

=وما هو الا جاحد فضل (تيهرت) غاصب حقها وان كنا لا ننكر فضل فاس وشهرتها العظيمة فما أهون التساهل على مثل هذا المؤرخ من المؤرخين في تبديل وتغيير الاخبار تبعا لاغراضهم وكانه لم يفكر في اتيان زمن (كهـذا) تنكشف فيه السرائر وتتضح الخفايا ويستوي الماضي والحاضر في الوضوح بقيام آلات الطبع لاظهار كل مكنون من نفيس الكتب العتيقة ذات الشأن والتحقيق في التاريخ التي كانت تحت حجب الخفاء والضن بها على حد قول الامام ابي نصر النفوسي رحمه الله في شأن اليوم الآخر .

سينكشف السر المغطى وتنجلي غيابات هذا الشك عن واضح الخبر

ولو تأمل هذا المؤرخ في كلام الشاعر القائل :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقولهم ان في الزوايا خبايا لانصف في كلامه واعطى كل ذى حق حقه ولو فيما هو بين الجمادات وبين العامر والدامر بقضاء الله ولعله على رأي القائلين (الدنيا مع الواقف) .

(١) الاخلاط جمع خلط بكسر الخاء أراد أن من فيها من الناس أصناف شتى مختلطون من بربر وعرب وترك وعجم وسودان وافرنج ويهود ومشارقة ومغاربة شأن أغلب المدن الكبيرة الجامعة ذات الحضارة والامن والعدل .

(٢) كل من يدرك معنى هذه الكلمة وما تقدم وما سيأتي من الفاظ التعظيم والتفخيم لا ريب يستصغر في جانب تاهرت ما سنذكره من بعض ما ينسب اليها من البلاد ويعلم انه قليل من كثير لم نعلمه وربما كان مخزونا في بطون الدفاتر .

(٣) ليس المراد البحر المحيط بالقارة الافريقية المشهور بالبحر الاعظم الذي فيه الجزائر الخالدات

من كلام هذا الفاضل ابن واضح ، أن له بتاهرت شغفا وتعلقا زائدين ، اذ كرر ذكرها في كتابه دون غيرها فقال في صحيفة ١٤٩ مستطردا الكلام عليها هكذا .

حدثني «أبو معبد» عبد الرحمن بن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب بن

= (وكانت عامرة في قديم الزمان ببعض الحكماء المنجمين وأما الآن فقد افسدها البحر على ما يقال) ويعرف قديما ببحر الظلمات وبالاقيانوس والآن بالبحر الاطلانطيقي لانه بعيد عن تيهرت ولم يمتد حكمها اليه لما بينهما من مملكة الادارسة بفاس وغيرها ، بل المراد بحرنا هذا الذي نحن على شاطئه المسمى بالبحر الرومي وبالبحر الابيض المتوسط الممتد من البحر المحيط بواسطة بوغاز جبل طارق الكائن بالقرب من شبه جزيرة الاندلس التي بلغت في صدر الاسلام الدرجة القصوى في الحضارة والعلم والآن بيد الدولة الاسبانية ومن مدينة طنجة ثغر مملكة الدولة المراكشية الى ان ينتهي بأرض الشام وعلى شاطئه هنالك من المدن المشهورة (مدينة بيروت) ومنها ابتداء خط سكة الحديد الحجازية المنشأة بمساعي وعناية أعظم سلاطين الاسلام الآن (١) السلطان عبد الحميد الثاني أحد ملوك آل عثمان أيده الله بنصره وحفظ ملكهم ملجأ للمسلمين وحصنا للحرمين الشريفين و(مدينة طرابلس) و(مدينة حلب) ويتصل بواسطة بوغاز الاستانة العلية (القسطنطينية) بالبحر الاسود وبقنال السويس (الفتحة الجديدة) بالبحر الاحمر ويتسلسل على جانبيه ممالك دول كبيرة وامارات ممتازة ومحتلة صغيرة ، فعلى جانبه الجنوبي مبتدئا من الغرب .

(حكومة فاس) وهي دولة اسلامية يلقب حاكمها بالسلطان مفقودة منها القوة الحربية الجديدة برا وبحرا وتتنازعها عوامل الافرنج صباحا ومساء حفظها الله من الوقوع في شبكتها .

ثم (الجزائر) وهي ولاية محتلة (٢) لفرنسا داخلة في ادارتها من حدود سنة ١٨٣٠م ـ أي سنة ١٢٤٨ هجرية وفي جنوبها (مدينة وارجلان) (ومدن بني ميزاب) الاباضية الحافلة باقامة شعائر الدين كما يجب .

ثم (تونس) وهي ايالة ممتازة اسلامية يلقب حاكمها بالباي تحت حماية فرنسا ويتبعها (جزيرة جزبة) العامرة بالاباضية ومعهم المالكية ثم (طرابلس الغرب) وهي ولاية عثمانية اسلامية لا يوجد بها من الاجانب (الافرنج) أحد الا في المدينة نفسها وفي بعض موانيها ولأهلها مزيد طاعة وشدة تعلق بالدولة العلية العثمانية ، وبجنوبها على ٣ مراحل من البحر جبال نفوسة الاباضية المشهورة العامرة بهم ومعهم المالكية في مؤاخاة وملائمة .

(١) الفترة التي عاش فيها المؤلف .
(٢) فى الفترة التى ارخ فيها المؤلف .

عبد الرحمن بن رستم التاهرتي، قال : (تاهرت) مدينة كبيرة آهلة بين جبال وأودية ليس لها فضاء، بينها وبين البحر المالح مسيرة ثلاثة مراحل في مستوى من الارض، وفي بعضها سباخ وواد يقال له وادي شلف[1] وعليه قرى وعمارة، يفيض كما يفيض نيل مصر، يزرع عليه القصب والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب، ويصير الى جبل يقال له (انقبق)، ثم يخرج الى بلدة نفزة ثم يصير الى البحر المالح، وشرب أهل مدينة تاهرت من انهار وعيون يأتي بعضها من صحراء وبعضها من جبل قبلي، يقال له : جزول لم يجدب زرع ذلك البلد قط (لكثرة مياهه وامطاره) الا ان يصيبه ريح أو برد (فهو بلد خصب وخير دائم)، وهو متصل بالسوس يسميه أهل السوس درن ويسمى بتاهرت جزول، ويسمى بالزاب أوراس، فليتأمل المنصف في كلام هذا المحقق، فانه من أصح ما حرره المؤرخون في هذا الباب لتقدمه على اكثرهم في الزمن، اذ كان حاضرا لبني رستم فهو لم يكتب الا ما شاهده او نقله عن ثقة أمين»

(٣) الادريسي

ووصف المؤرخ الادريسي المغربي في تاريخه هذا المرسى فقال : وهو مرسى حسن، وعليه قرية عامرة، وذكره الملك المؤيد أيضا، كما سيأتي

= ثم (مصر) وهي حكومة ممتازة عثمانية اسلامية يلقب حاكمها بالخديوي محتلة بدولة الانجليز ولأهلها ارتباطا بالدولة العثمانية لا تحل عراه، وعلى جانبه الشمالي مبتدئا من الغرب أيضا دولة اسبانيا ثم دولة فرنسا ثم دولة ايطاليا ثم اليونان وغيرها ثم (الدولة الاسلامية العثمانية ناشرة لواء الدين وحامية حمى الاسلام والمسلمين أيدها الله بنصره المبين ومقر سلطنتها (القسطنطينية) المسماة بدار الخلافة ودار السعادة والاستانة العلية واستانبول، وهذا باب يطول شرحه وليس هذا محله .

(١) سيأتي الكلام على شلف .

وقال أبو عبد الله الأدريسي الشريف في تاريخه المطبوع ببلاد الافرنج في صحيفة ٨٧ واصفا (تاهرت) القديمة التي أحسن تجديدها وأتقن تمدنها الاسلامي ميمون بن عبد الوهاب، اذ كان عاملا لوالده عليها حتى صارت تنسب اليه دون غيره من الرستميين ما نصه .

(ومدينة تاهرت) كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين احداهما قديمة، والاخرى محدثة، والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور، وهي على قمة جبل قليل العلو، وبها ناس، وجمل من البربر، لهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة وبها مزارع وضياع[1] جمة وبها من تاج الخيل والبراذين كل حسن وأما البقر والغنم فكثير بها جدا وكذا السمن والعسل وسائر غلاتها مباركة وبمدينة (تاهرت) مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر

---

(١) الضياع جمع ضيعة وهي على ما في القاموس العقار والأرض المغلة، وما يكون منها عطية لبعض الناس من طرف الملوك يسمى قطيعة كما كان يفعله بعض بني أمية وبني العباس اذ كانوا لا شركاء لهم في بيوت أموال المسلمين يتصرفون فيها على حسب (١) اهوائهم فيعطون الاموال الطائلة لشاعر مدحهم بقصيدة أو بيت ولنديم اطربهم في مسامرتهم بحكاية غريبة أو قصة مضحكة، وليس ذلك مما يفتخر به الاسلام والدين اذ فقد العدل، وقد عرفها بعضهم فقال . وأما القطيعة فلها معنيان أحدهما أن يعمد الامام الجائز الامر والطاعة الى قطعة من الارض يفرزها عما يجاورها ويهبها ممن يرى ليعمرها وينتفع بها أما أن يجعلها منازل يسكنها ويسكنها من يشاء، واما أن يجعلها مزرعة ينتفع بما يحصل من غلتها ولا خراج عليه فيها وربما جعل على زارعها خراج وهذه حال قطائع المنصور وولده بعده ببغداد في محالها فمن ذلك قطيعة الربيع وقطيعة أم جعفر وقطيعة فلان وقد ذكرت في مواضعها من الكتاب، واما القطيعة الاخرى فهي ان يقطع السلطان من يشاء من قواده وغيرهم القرى والنواحي ويقطع عليهم عنها شيئا معلوما يؤدونه في كل عام قل أو كثر توفر محصولها أو نزر لا مدخل للسلطان معه في أكثر من ذلك (اهـ).

ديارهم ويتصرفون فيها[1] ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفاكهة الحسنة وبالجملة فهي بقعة حسنة (انتهى) .

وقد نقل هذا الشيخ مقديش السفاقسي في تاريخه المطبوع في تونس ببعض تصرف وان لم ينسبه اليه، فلا لزوم لنقله .

---

(١) لم نتحقق كيف كان التصرف في هذه المياه وادخالها البيوت للانتفاع بها والغالب انه كان على طريقة لا تبعد عن الطريقة الموجودة الآن في المدن المتمدنة وان خالفتها في الكيفية اذ لا توجد غالبا في ذلك الوقت أنابيب (مواسير) من الحديد كالموجودة الآن، وربما كانت من الفخار المطلي، ولا يقال انها كانت تجري في الشوارع والأزقة هكذا بدون انتظام لان مدنيتها ورقيها لا يسمحان بذلك على أن موقعها فيه بعض ارتفاع حسب التخمين عن العين الموجودة الآن المسماة بعين السلطان فبدون صنعة هندسية لا يمكن توزيعه فيها وقد كان بيت بني رستم مشهورا بالتضلع في العلوم الرياضية فلا يصعب عليهم ذلك، وليست هذه الكيفية موجودة ذلك الوقت في تيهرت فقط بل توجد في زواغة مدينة نفوسة سابقا في جهات طرابلس على البحر آثار تدل على أنها كانت كتلك ايضا اذ يوجد فيها مجرى نهر كبير آت من ناحية جبال نفوسة الشرقية اخترق أراضي وأودية كثيرة حسب ما تدل عليه بعض القطع الموجودة منه الآن، وهو مجصص بكيفية محكمة ذكر الذين رأوا بعض قطع منه أنه يشبه مجرى عين زبيدة الموجودة بجهة مكة المكرمة وعلى كل حال فهو عمل دال على القوة والحضارة التامة والله أعلم .

(٤) ابن خلـــدون

وكلما ذكرها ابن خلدون وان كان غير منصف[1] في جانب الأباضية، عبر عنها غالبا بقاعدة[2] المغرب فمن ذلك قوله في صحيفة ٣٩ من المجلد الخامس، وفتح ابو القاسم (الشيعي سنة ٣١٥هـ) بلد مزاتة، ومطاطة، وهوارة، وسائر الاباضية، والصفرية، ونواحي (تاهرت) قاعدة المغرب الأوسط.

(٥) الملك المؤيــد

وقـال السلطان الملك المؤيد في تقويمه المطبوع بباريس سنة ١٨٤٠م بصحيفة ١٢٤ نقلا عن العزيزي المغربي (تاهرت القديمة)، وهي تاهرت عبد الخالق، وبينها وبين تاهرت الجديدة مرحلة .

وهي مدينـة جليلة وكـانت تسمى قديما عراق المغرب ولها من أعمالها مرسى على البحر يقال له مرسى (فروخ) ومدينة (تاهرت) الاولى على جبل متوسط، وبها منبر[3]، وكذلك المحدثة بها منبر، وهي أعظم من القديمة،

---

(١) عدم انصافه هو جحوده أو اهماله ذكر ما كان لهم من الاخبار الحسنة وما كان لملكهم الذي شهد به المؤرخون من الصيت في تاريخه الطويل العريض المعدود في مقدمة التواريخ الاسلامية فهو أولى بأن يوجد فيه ما ذكره غيره من المؤرخين عن الاباضية ولا نظن به الجهل بأخبارهم لانه ممن نشهد له كما شهد له غيرنا بسعة الاطلاع وكثرة النقل مع انه مغربي، على أنه قد يشير احيانا اليهم بعض اشارات بدون بسط في الكلام فاهماله اخبارهم وذكره بعضها مفرقا بحيث يصعب جمعها منه لابد وان يكون لامر في باله يعلمه الله ولعل له عذرا فلا لوم عليه والله أعلم .

(٢) قاعدة المملكة او الاقليم هى مدينته العظيمة التي يكون فيها كرسي الملك .

(٣) أراد بالمنبر المسجد الجامع الذي يقيم فيه الامام (الخليفة) أو وكيله الجمعة وأما ما سواه من المساجد ففيها كثير كما نص عليها ابن الصغير .

ولاهلها مياه تخرق دورهم، قال ابن سعيد، وكان لتيهرت في المملكة الرستمية صيت عظيم، وبها كان كرسي ملك الأباضية، ثم رسم لها جدولا كغيرها بين فيه طولها وعرضها[1] واقليمها وهكذا

			طول		عرض		الحقيقي	العرفي
عدد	الاسماء	المنقول عنهم	درج	دقايق	درج	دقائق	الاقليم	الاقليم
١٩	تاهرت	اطوال بعضهم	كه كـ	ل *	كط لح	كط ن	من الثالث	* الغرب الاوسط

(٦) **اللبـــاب :**

ومن اللباب (تاهرت) بفتح التاء المثناة من فوق، وألف وهاء وسكون الراء المهملة، وفي آخرها تاء ثانية، وفي خط ابن سعيد عوض الالف ياء

---

(١) (طول البلد) هو بعده عن منتهى العمارة من جهة الغرب وهو من ألفاظ المنجمين مستنبط من آراء اليونانيين قال الحموي الا ان في هذه النهاية بينهم اختلافا فان بعضهم يبتدىء بالطول من ساحل بحر أوقيانوس الغربي وهو البحر المحيط وبعضهم يبتدى به من سمت الجزائر الواغلة في البحر المحيط قريبا من مائتي فرسخ تسمى جزائر السعادات والجزائر الخالدات ولهذا ربما يوجد للبلد الواحد في الكتب نوعان من الطول بينهما عشر درج فيحتاج في تمييز ذلك الى فطنة ودرية هذا كله عن ابي الريحان (اهـ).

وأما (عرض البلد) فهو بعده عن خط الاستواء نحو الشمال قال الحموي لان البلد والعمارة في هذه الناحية وتحاذيه قوس عظيمة شبيهة به واقفة بين سمت الرأس وبين معدل النهار ويساويه ارتفاع القطب الشمالي فلذلك يعبر به عنه وانحطاط الجنوبي وان ساواه ايضا فانه خفي لا يشعر به وهذا كلام صاحب التفهيم (اهـ).

مثناة من تحت، وهو الاصح عندي، لأن ابن سعيد مغربي فاضل .

ثم قال عن ابن حوقل (وتيهرت مدينة كبيرة خصبة كثيرة الزرع) وقد قيل : ان كورة تيهرت من افريقية، وهي غربي سطيف[1]، وهي كانت قاعدة للمغرب الاوسط، وكان بها مقام بني رستم ملوك المغرب الأوسط، حتى انقضت دولتهم بدولة الخلفاء الفاطميين الذين صاروا ملوك مصر[2].

(٧) كتاب الاطوال :

وقال في كتاب الاطوال : تاهرت العليا طولها وعرضها كما ذكر، ثم قال : تاهرت السفلى طولها (كو)، وعرضها (كط) فدل على ان هناك مكانا آخر يسمى تاهرت، كما نقلناه عن العزيزي في الهامش.

(٨) القانون :

وقال في القانون : و(تاهرت) السفلى طولها (يط ن) وعرضها (لديه) قال الأدريسي : وتيهرت كانت فيما سلف مدينتين كبيرتين، والقديمة على جبل ليس بالعالي ولها سوق، كلام المؤيد وقد نقله برمته صاحب أوضح المسالك، فلا حاجة الى نقله .

(٩) الاستبصار :

وقال صاحب الاستبصار المؤلف سنة ٥٨٧هـ المطبوع بالمطبعة

---

(١) مدينة من عمل الجزائر مشهورة عامرة بها من الاباضية بني ميزاب جماعة معتبرة لهم بأنواع التجارة معرفة تامة وفيهم رجال محترمون كما في غيرها من المدن .

(٢) يعني بهم الشيعة الذين كان ملكهم بالمغرب وامتد الى مصر وهم الذين أنشأوا الجامع الازهر المشهور في اقطار الارض بعلمه وبظهورهم انقرضت دول الغرب كلها كما سيأتي ان شاء الله .

الأوسترياوية في مدينة (وين) من بلاد الافرنج سنة ١٨٥٢م بصحيفة ٦٦، (مدينة تاهرت) وهي مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر (أي حجر) ولها قصبة منيعة تسمى المعصومة[١]، وهي في سفح جبل يسمى قرقل وهي على نهر يأتيها من ناحية المغرب يسمى مينة، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس[٢]، منه تشرب أرضها وبساتينها، وكان لها بساتين كثيرة، فيها جميع الثمار، وفيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا ومطعما ورائحة، وبلد تاهرت شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج، وقد ذكر ابيات ابن حماد، وحكاية السودان وحكاية الحاج، وسيأتي كل ذلك في كلام غيره قريبا، ان شاء الله .

(١٠) ابو اسحاق الفارسي :

وأما أبو اسحاق الفارسي المعروف بالكرخي من علماء صدر المائة الرابعة للهجرة فانه اعتبر (تاهرت) قسما عظيما عند تقسيمه المغرب في تاريخه المأخوذ من كتاب صور الأقاليم للبلخي المطبوع بمدينة (ليدن) الافرنجية سنة ١٨٧٠م وهذا نص كلامه بالحرف الواحد، قال :

«وأما المغرب فهو نصفان يمتدان على بحر الروم، نصف من شرقيه ونصف من غربيه، فأما الشرقي فهو برقة وافريقية (وتاهرت) وطنجة والسوس وزويلة[٣]، وما في أضعاف هذه الاقاليم، واما الغربي فهو

---

(١) في هذا الاسم ما يدل على القوة التي كانت بهذه المدينة وقصبتها فان العصمة لغة المنعة فقد طابق اسمها وصفها .

(٢) في بعض التواريخ بالنون كما هنا وفي بعضها بالتاء .

(٣) أراد زويلة الغرب الاقصى كما هو واضح لا (زويلة) القرية من (ودان) في قبلة طرابلس العامرة في صدر الاسلام بالاباضية كما بين في محله .

الاندلس» .

فيعلم من كلامه هذا أن في عصره من أشهر ما كان من المدن العظيمة بالمغرب (مدينة تاهرت) اذ لم يذكر في التقسيم فاس، ولا الجزائر ولا مراكش ولا عنابة[1] ولا غيرها من المدن الكبيرة في هذا العصر، وان ذكر بعضها في أثناء سرده البلاد ثم قال : وأما ناكورة، وجزيرة بني مزغنا، في مدن وقرى فقريبة من (تاهرت) الاعلى، ومدينة كورة[2] (تاهرت) اسمها تاهرت، وهي مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية، والزروع والمياه، وبها الاباضية هم الغالبون عليها .

سجلماسا[3] مدينة وسطة من حد (تاهرت) الا انها منقطعة لا يسلك اليها الا في القفار والرمال الى ان قال : ويقال ان كورة (تاهرت) باسرها من

---

(١) فاس هي قاعدة ملك الدولة المراكشية الآن وهي من أشهر وأعظم مدن الغرب الاقصى في هذا العصر وقد بناها ادريس بن ادريس بعد (تيهرت) بنحو خمسين سنة أي عام ١٩٢هـ وفي سنة ٢٤٥هـ خصصت فاطمة بنت محمد الفهري الهواري القيرواني جانبا من المال وكانت غنية وبنت به مسجد القرويين المشهور بفاس، ولعلها كانت اباضية لان هوارة أباضية .

وفي سنة ٣٤٥ هـ اختط أحمد بن سعيد اليفرني صومعتها (وهو أما صفري أو أباضي) ذكر ذلك ابن خلدون في صفحة ١٥ من المجلد ٤ ومن مدنها الشهيرة طنجة على البحر واما مراكش فقد اخطتها يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ وذلك بعد خراب تيهرت بمدة والسلطان يسكن مدة بفاس ومدة بمراكش كما يفعل خديوى مصر بينها وبين اسكندرية ، وأما الجزائر فسيأتى الكلام عليها ، واما عنابة ويقال لها (بونة) قديم كما هو عند الافرنج الآن فمدينة مشهورة قديمة وفيها كما في الجزائر ومدنها كافة من تجار الاباضية بنى ميزاب رجال لهم اليد الطولى في ضروب التجارة أولو شهامة واتحاد في الرأى .

(٢) الكورة اسم لكل صقع أي ناحية تشتمل على عدة قرى ولها قصبة أي مدينة ينسب ذلك الصقع اليها كما هنا .

(٣) سيأتي الكلام على سجلماسة مفصلا لانها من مواطن الاباضية قديما .

افريقية الا انها مفردة بالاسم والعمل في الدواوين (وقال في صحيفة ٤٥) وكان ملوك افريقية وبرقة اولاد الأغلب، وملوك طنجة اولاد ادريس وبينهم، وبين افريقية (تاهرت) الشراة (الاباضية) وهم الغالبون عليها باختصار قليل .

(١١) ابو بكر القزويني :

وقال ابو بكر القزويني في تاريخه المطبوع ببلاد الافرنج بصحيفة ١١٣، (تاهرت) اسم مدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحداهما (تاهرت) القديمة، وللاخرى الحديثة، وهما كثيرتا الاشجار، وافرتا الثمار، سفرجلها يفوق سفرجل الآفاق طعما وحسنا، وبها كثرة الأمطار والأنداء والضباب وشدة البرد قلما ترى الشمس بها، وذكر ايضا حكاية السودان الآتية .

(١٢) ياقوت الحموي :

وأما المؤرخ أبو عبد الله ياقوت الحموي البغدادي صاحب المعجم المطبوع ببلاد الافرنج، فانه أطنب فيها الكلام، ووضح ما يقتضيه المقام، وأجاد في ذلك، وان كان فيه بعض تكرار لما تقدم اذ قال في صحيفة ٨١٣ من المجلد الاول .

(تاهرت) بفتح وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان، اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحداهما (تاهرت) القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة بينهما وبين مدينة المسيلة[1] ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد،

(١) اختطت المسيلة على قول ابن خلدون في ٨٢ من الجزء ٤ سنة ٣١٥هـ بعد انقراض دولة بني رستم من تيهرت بقليل وذكر الحموي انها كانت تسمى المحمدية اختطها أبو القاسم محمد بن المهدي الشيعي، وهو ولي عهد أبيه، وأما (قلعة بني حماد) فمدينة منيعة جدا اختطها حماد بن محمد من آل زيري بجبل كتامة المعروف بجبل عجيسة سنة ٣٩٨هـ على قول ابن خلدون ايضا في ١٧١ من الجزء ٦ .

وهي كثيرة الأنداء والضباب والامطار حتى ان الشمس بها قل أن ترى، ودخلها اعرابي من أهل اليمن يقال له أبو هلال، ثم خرج الى أرض السودان (مع ركب التجار)، فأتى عليه يوم له وهيج وحر شديد وسموم في تلك الرمال، فنظر الى الشمس مضحّية[1] راكدة على قمم الرؤوس، وقد صهرت الناس فقال مشيرا الى الشمس، أما والله لئن عززت في هذا المكان لطالما رأيتك ذليلة بتاهرت وأنشد.

(ما خلق الرحمن من طرفة   أشهى من الشمس بتاهرت)

(١٣) صاحب جغرافيا :

وذكر صاحب جغرافيا أن (تاهرت) في الاقليم الرابع، وأن عرضها ثمان وثلاثون درجة، وهي مدينة جليلة، وكانت تسمى قديما عراق المغرب، ولم تكن في طاعة صاحب افريقية، ولا بلغت عساكر المسوّدة[2] اليها قط، ولا

---

(١) أي كائنة في وقت الضحاء وهو عند ارتفاع النهار الاعلى كما قاله المختار ولذلك وصفها بقوله راكدة أي ساكنة وذلك لان الشمس في وقت الزوال تظهر للناظر غير متحركة أو بطيئة السير بخلاف ما اذا كانت صاعدة في شروقها أو نازلة في غروبها فانها تظهر سريعة السير، والحال ان سيرها في الحالات الثلاث واحد، وليس هناك صعود ولا هبوط ولا وقوف في الواقع، وانما ذلك في الظاهر فقط بالنسبة الينا بل بالنظر الى سكان الارض كافة يصدق عليها في كل دقيقة، مثلا انها مشرقة ومغربة وزائلة وهذا امر واضح، وقوله صهرت معناه أذابت وذلك لشدة حرارتها ذلك الوقت ومنه قوله تعالى : ﴿يصهر به مافي بطونهم والجلود﴾ أي يذاب والله اعلم.

(٢) لفظ المسودة مذكور بكثرة في سير الشماخي ـ رحمه الله ـ وطالما سألت عنه من قبل طلبة عصرنا ولم أجد من يشرح لي معناه وغاية ما يقولونه انه اسم لقبيلة كانت في ذلك الوقت وفاتني ان اسأل عنه شيخي أو والدي حفظهما الله ولتعلق خاطري به لما أراه لهم فيه من الوقائع الدالة على قوتهم لم اقنع بأنهم قبيلة فقط، ولا زلت ابحث حتى وقفت على تفسيره ببني العباس في تاريخ ابن مسكويه في اماكن متعددة منها قوله لما رأى المأمون انكار بني العباس وغيرهم عليه (وهو منهم) ببغداد حتى

دخلت في سلطان بني الاغلب، وانما كان آخر مافي طاعتهم مدن الزاب [(١)].

(١٤) ابو عبيـــد :

وقال ابو عبيد (مدينة تاهرت) مسورة، لها اربعة أبواب، باب الصفا، وباب المنازل، وباب الاندلس، وباب المطاحن، [(٢)] وهي في سفح جبل يقال له جزول لها قصبة مشرفة على السوق، تسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة، يسمى مينة، وهو في قبلتها ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتس (بالضم)، ومنه شرب أهلها وأرضها وهو في شرقيها،

=اخرجوا (عامله) الحسن بن سهل منها كأنه اراد معاكستهم باخراج الخلافة منهم فاصدر أوامره سنة ٢٠١ هـ في رمضان، بلبس الثياب الخضر بدل الثياب السود التي كانت من شعارهم وبها سموا بالمسودة وأعلن بأنه جعل علي بن موسى بن جعفر من ذرية علي ولي عهده(١هـ) المراد منه .

(١) بهذا يعلم أن مابين الزاب وبين فاس وسجلماسة كله داخل في دائرة تيهرت وما فيه من المدن والقرى كله تابع لها ما علمناه وما لم نعلمه فالمدن الآتية في كلام العلامة البنا هي بعض من ذلك وانما خصصها بالذكر لشهرتها لاغير والله أعلم .

(٢) ما ألطف هذه الاسماء وما أحسن هذا التقسيم المحكم الذي لم يدع للازدحام مجالا اذ خصص لكل شغل من هذه الاشغال الاربعة التي عليها مدار حركات الناس بابا، فالذين ينقلون أنواع الحبوب كالشعير والقمح لاجل الطحن ويردونها دقيقا لهم باب المطاحن، والغالب على هؤلاء كثرة القيل والقال والصياح لما أن أكثرهم عادة خدم ومماليك وأتباع لا حياء لهم، والذين يريدون السفر أو عبور البحر الى الاندلس من التجار وغيرهم لهم باب الاندلس، وهم في الغالب أصحاب همم ونزاهة والمشتغلون بالعمل في البساتين لهم باب المنازل، والذين يريدون النزهة والرياضة البدنية وتسلية النفس لهم باب الصفا ، فلا يكدرهم حنين المودعين ولا أنين المفارقين ولا لجلجة المهنئين للمسافرين بباب الاندلس، ولا تصدعهم عربدة الذاهبين وصيحات الراجعين باب المطاحن، ولا تعلوهم غبرة ازدحام الداخلين والخارجين الى المنازل من العملة بحميرهم وبغالهم وأرباب المنازل بخيلهم وبراذينهم بباب المنازل، وبهذا يعلم ما كان في هذه المدينة من حسن الانتظام والترتيب ولا تخلو من متنزهات والمشهور منها متنزة الامير الآتي ذكره في كلام ابن الصغير .

وفيها جميع الثمار، وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج، قال بكر بن حماد ابو عبد الرحمن : وكان بتاهرت من حفاظ الحديث، وثقات المحدثين المأمونين، سمع بالمشرق ابن مسدد وعمر بن مرزوق وبشر بن حجر، وبافريقية ابن سحنون وغيرهم، وسكن تاهرت وبها توفي وهو القائل :

(ما أخشن البرد وريعانه   وأطرف الشمس بتاهرت)
(تبدو من الغيم اذا ما بدت   كأنها تنشر من تخت)
(نفرح بالشمس اذا ما بدت   كفرح الذمي بالسبت)

وسيأتي زيادة كلام عليه في باب العلماء المنسوبين الى تاهرت .

قال ونظر رجل الى توقد الشمس بالحجاز (وهو من أهل تاهرت ذهب حاجا) فقال (مخاطبا للشمس) احرقي ماشئت، والله انك بتاهرت لذليلة، قال وهذه تاهرت الحديثة، وهي على خمسة أميال من تاهرت القديمة، وهي حصن ابن بخاتة، وهو شرقي الحديثة، ويقال انهم (اي عبد الرحمن ومن معه) لما ارادوا بناء (أي تجديد) تاهرت القديمة، كانوا يبنون بالنهار، فاذا جن الليل واصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم[1]، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة، وفي قبلتها (قبائل) لواتة، وهوارة، في قرارات، وفي غربيها زواعة، وبجنوبيها، مطماطة، وزناتة، ومكناسة، وكان صاحب (أي حاكم) تاهرت (القديمة)، ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن

(١) لم يذكر هذه الحكاية أحد من أصحابنا وهي من الغرائب وانظر ما حكمة الله في ذلك وهي مما يؤيد القول بوجود الملائكة والجن والا فمن الفاعل لذلك بأمر الله على مذهب المنكرين حيث لا زلزال ولا رجة اذ ذاك هنالك .

رستم بن بهرام وبهرام مولى عثمان بن عفان[1]، وهو بهرام بن بهرام جوربن شابور بن بان، كان ابن شابور ذي الاكتاف ملك الفرس، وكان ميمون هذا رأس الاباضية وامامهم، ورأس الصفرية، والواصلية، وكان يسلم عليه بالخلافة، وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الاعراب، يحملونها وتعاقب مملكة تاهرت بنو ميمون[2] واخوته الى ان قال مبينا على اكمل وجه سبب بنيانها وكيفيته هكذا .

فاجتمعت اليه (يعني عبد الرحمن) الاباضية واتفقوا على تقديمه وبنيان

---

(١) المولى هو المعتق بالفتح ولعله أخذ أسيرا لما فتحت فارس وأعتقه عثمان فسبحان المعز المذل وسيأتي زيادة كلام في هذا النسب .

(٢) لعله أراد عبد الوهاب بدل ميمون والا فميمون لم يتول الامامة حتى يسلم عليه بالخلافة والذي كان رأسا لمن ذكره من الصفرية والواصلية وغيرهم هو عبد الوهاب وبشهادة هذا المؤرخ مع ما تقدم وما سيأتي مما فيه تلقيب بنى رستم بالخلفاء والملوك يعلم بطلان قول بعض المتأخرين من ارباب التاريخ بأن بني رستم لم يبلغوا درجة الخلافة والملك ولا ندرى ماذا صنع في تلك الملايين من الناس التي كانت تدين بطاعتهم وتتمتع بعدلهم ولا في تلك العساكر التي كانت تؤلف بمئات الالوف تحت كلمتهم ولوائهم وان يكن جاهلا ذلك فما الحامل له على الدخول في باب لا يتقنه حتى يبتكر كلاما لم يسبق اليه؟ ، والواصلية والصفرية فرقتان مشهورتان من فرق الاسلام لا وجود لهما الآن بالمغرب وتوجدان بالمشرق كجزيرة العرب وبالزنجبار بكثرة كما توجد فرق الازارقة والنجدية والزيدية والمعتزلة والشيعة وغيرها وبين الكل تنافر دائم كما تنفر كلها من مذهب الاباضية ومذاهب الاشعرية الاربعة نفورا كليا نظرا لتباين المشارب في بعض المعتقدات الدينية التي تركت الاسلام أشتاتا وأحزابا حتى صارت مضغة سهلة للطامعين من الافرنج والامر لله ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ .

مدينة تجمعهم فنزلوا موقع تاهرت اليوم[1]، وهو غيضة اشبه ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لا شعراء[2] فيه فقال البربر : نزل تاهرت وتفسيره الدف لتربيعه[3] وادركتهم صلاة الجمعه فصلى بهم هناك ، فلما فرغ من الصلاة ثارت صيحة شديدة على اسد ظهر في الشعراء ، فأخذ حيا وأتي به الى الموضع

---

(١) الغيضة بالفتح محل تجتمع فيه المياه من اودية أو عيون فينبت فيه الشجر وهي لغة أيضا الغابة كما هو مشهور على السنة العامة الآن وقوله اشبة بفتح الشين اي ملتفة مشتبكة لكثرتها واجتماعها من أصناف الشجر عظيمه وصغيره وفي القاموس أشب الشجر كفرح التف، قال، وفي حديث ابن ام مكتوم (بيني وبينك أشب) (بفتح الشين) محركة يريد النخل الملتفة (١هـ).

(٢) الشعراء شجر الحمض وهو كل شجر مالح أو مر في طعمه وضرب من الخوخ جمعها كواحد ومن الأرض ذات الشجر أو كثيرته ذكر ذلك صاحب القاموس فقوله لا شعراء فيه أي لا شجر ، وانظر حكمة الله اذ جعل بين تلك الاشجار الملتفة والغابة العظيمة هذا الموضع فضاء حتى امكنتهم الاقامة والصلاة فيه الى ان تم شغلهم ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ واذا أراد تمام امر هيأله اسبابه .

(٣) الذي يؤخذ من هذا الكلام ان اسم تيهرت لم يكن موجودا قبل نزول الامام عبد الرحمن بهذا المكان وقد تقدم انه اسم للقديمة وهو الذي يقرب صحته العقل لما تقدم وما سيأتي، وذكر الشماخي رحمه الله في صحيفة ١٤٥ أنها تسمى أيضا (تاقدمت) ولم نره لغيره الا انني وقفت في (الكتبخانة) المصريـة الخديوية على الصناديق التي صففت فيها تحت صفائح الزجاج النقود المضروبة باسماء الملوك والمدن قديمها وحديثها لاطلاع الناس عليها وفوق كل عملة منها ورقة صغيرة توضح ما في ذلك المضروب من التاريخ والاسم، وقد رأيت فيها عملة نحاسية صغيرة لا اتقان في نقوشها فوقها ورقة فيها هكذا (تاقدمت ١٢٥٥) وبجنبها ورقة أخرى فيها اسم الامير عبد القادر الجزائري المشهور القائم على فرنسا بعد دخولها قطر الجزائر وقد بنى بتيهرت بعض بناء لما نوى أن يجعلها مركزا لحكومته ولم يطل أمره ولعله ضرب تلك العملة لما كان هناك وهو صاحب علم واطلاع والله اعلم .

الذي صلى فيه وقتل فيه،[١] فقال عبد الرحمن بن رستم هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب ابدا، قال ذلك بعد ان نظر نظرة في النجوم كما ذكره المراكشي في تاريخه .

وابتدأوا في تلك الساعة، وبنوا في ذلك الموضع مسجدا، وقطعوا خشبه من تلك الشعراء وهو على ذلك الى الآن، (يعني وقته) وهو مسجد جامعها، وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من مداسة صهناجة، فأرادهم عبد الرحمن على البيع فأبوا فوافقهم على أن يؤدوا لهم الخراج من الاسواق، ويبيحوا لهم أن يبنوا المساكن فاختطوا وبنوا وسموا الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم الى اليوم.[٢]

(١٥) المهدي :

وقال المهدي بين أشير وتاهرت اربع مراحل، وهما تاهرتان القديمة والحديثة، ويقال للحديثة تاهرت عبد الخالق، ومن ملوكها بنو محمّد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وممن ينسب اليها ابو الفضل احمد بن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي البزازالتاهرتي، روي عن قاسم بن اصبع، وأبي عبد الملك بن أبي دكيم، وابي احمد بن الفضل الدينوري، وابي بكر محمد بن معاوية القرشي

---

(١) لا معنى للاتيان به حيا الى مكان الصلاة وقتله فيه لما ورد من النهي عن قصد تنجيس البقاع المعدة للاجتماع مطلقا وبالخصوص المعدة للصلاة والذي رأيته في تاريخ ابن عذاري المغربي فيما اظن أن الاسد خرج عليهم وبعد محاورة بينه وبينهم اتفق قتله في مصلاهم فالقتل هنالك غير مقصود ولكوني اطلعت على هذا الكلام قبل ان يخطر ببالي تحرير شيء من هذا فاتني نقله بالحرف .

(٢) الذي يسمى الآن بالمعسكر مدينة غير تيهرت الا انها قريبة منها وسيأتي الكلام عليها .

ومحمد بن عيسى بن رفاعة، روى عنه ابو عمر بن عبد البر وغيره، (انتهى معجم) .

وسنذكر بعد هذا الباب جماعة من أهل العلم المنسوبين الى تاهرت ان شاء الله .

(١٦) البشاري الحنفي :

واما العلامة أبو عبد الله البنا المعروف بالبشاري الحنفي من علماء المائة الرابعة من الهجرة، فانه الف تاريخا سنة ٣٧٥هـ وطبع بمدينة ليدن من بلاد الافرنج سنة ١٨٧٦م قال في أوله هكذا :

وتجنبت الكذب والطغيان، وتحرزت بالحجج من الطعان، ولم أودعه الجائز والمحال، ولا سمعت الا قول الثقات من الرجال، واعلم اني مع هذه الوثائق والشروط لم اظهره، حتى بلغت الاربعين، ووطئت جميع الاقاليم وخدمت أهل العلم والدين، وقد ذكر اصطلاح المؤرخين في معنى الامصار وذكر اصطلاحه الذي جرى هو عليه في كتابه فقال :

«واما نحن فجعلنا المصر، كل بلد حله السلطان الاعظم، وجمعت اليه الدواوين، وقلدت فيه الاعمال، واضيف اليها مدن الاقليم» .

ثم قال في صحيفة ٤٧ واعلم انا جعلنا الامصار كالملوك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند، والقرى كالرجالة، ثم ذكر في صحيفة ٤٨ تاهرت من الامصار فيصدق عليها حينئذ انها بلد سلطان عظيم، جمعت اليه الدواوين الى آخره، وقال في صحيفة ٥٦ عند ذكر الحجاب لكل مصر هكذا :

لبرقة، رمادة، طرابلس، اجدابية إلى آخر ما ذكره لها، للقيروان، صبرة، صفاقس، المهدية، سوسة، تونس الى آخر ما ذكره لها أيضا ثم قال :

ولتيهرت يممة، تاغليسة، قلعة ابن الهرب، خرارة، الجعبة، غدير، الدروع، لماية، منداس، سوق ابن جبلة، مطماطة، جبل تجان، وهران، شلف، طير الغزة، سوق ابراهيم، رهبايه، البطحة، الزيتونة، تمما، يعود، الخضراء، واريفن، تنس، قصر الفلوس، بحرية، سوق كري، منجصة، اوزكي، تبرين، سوق بن مبلول، ربا، تاويلت ابي مغول، تمزيت، تاويلت لغو، افكان (وبها نهر يأتي الى تاهرت) انتهى[1] .

فهذه ما يقارب اربعين مدينة غير ما سيزيد، نسبتها الى تاهرت كنسبة صفقاس، وتونس الى القيروان، وكنسبة طرابلس، واجدابية الى برقة، بمعنى ان كل واحدة من هذه المدن تعتبر كمركز ولاية صغيرة أو متصرفية كبيرة باصطلاح عصرنا، بدليل تقسيمها الى عدة ولايات بعد انقراض امامة بني رستم منها، فافكان وتاهرت نفسها كانت ليعلى بن محمد اليفرني وأشير، وأعمالها لزيري بن مناد الصهناجي، والمسيلة واعمالها لجعفر بن علي الاندلسي وباغاية واعمالها لقيصر الصقلي[2] الى غير ذلك مما ذكره المؤرخون، ومنهم ابن خلدون فانه قد ذكر بعض ذلك في صحيفة ٤٦ من المجلد

(١) أغلب هذه الاسماء بربرية لانها لمواطن البربر ولذلك وقع للمؤرخين اختلاف كثير في رسمها فكتب بعضهم أجذابية بالذال المعجمة وبعضهم خرارة بالهاء بدل الخاء، وبعضهم افكان بياء قبل الفاء وغير ذلك وما رسمناه هنا هو الذي اتفق فيه أكثرهم على ما رأيناه .

(٢) ربما يقول قائل ان بعض المؤرخين ذكر بعض هذه المدن في اقليم افريقيا وبعضها في اقليم فاس أو سجلماسة مثلا وان بعضها انما أسس بعد انقراض دولة بني رستم فلا يصدق عليها انها

الرابع، ولو لم تكن كذلك لما قام بها ملك قاهر كهذا ودام، رغما عن تلك الفتن والحروب الواصلية وغيرها .

وبهذا يظهر للقارىء ما كان لتاهرت من اتساع الدائرة، وما كان لبني رستم فيها من عظيم الملك، ولاسيما اذا فكر فيما هو تحت نفوذهم قوة أو فعـلا من سرت الى أرض الجـريد، وسنبين ذلك، واذ ذاك لا يستعظم ولا يشـك فيما سيتـلى عليه من الكلام الآتي منقولا عن المؤرخين أرباب الاطلاع والتحقيق .

ومن أمعن الفكر في كلام هذا المؤرخ، وقاعدته التي أسسها وهي قوله، واما نحن فجعلنا المصر الى آخره يظهر له الامر جليا[1]، ثم قال ولله دره في

= دخلت في ملكهم، فنقول ان ما ذكره هذا المؤرخ اقرب الى الصحة لقرب عهده ببني رستم بخلاف غيره فان اغلبهم متأخر وأكثر ما حرروه على هذه الجهات تلقوه عن غيرهم بمجرد السماع والنقل على انه يمكن دخول هذا البعض تحت غيرهم في مبدأ ظهور دولتهم قبل اتساع خطتها أو في آخرها عند تقهقرها كما سيأتي وما كان من المدن حادثا بعد انقراضها فالمراد بذكرها بيان ان موقعها وما يليه من البلاد كان في طاعتهم وعلى هذا يحمل كلام من خالف هذا المؤرخ من المؤرخين والله أعلم فليحرر .

(١) وجه ذلك هو ان المصر في اصطلاحه يطلق على المدينة التي بها كرسي المملكة كالآستانة العلية الآن وقد سمى تيهرت مصرا، وان الحجاب في اصطلاحه يطلق على مراكز الولايات كطرابلس الآن وكولاية الحجاز وولايات الشام، بالنسبة الى الآستانة وقد ذكر تلك المدن كلها من الحجاب لتيهرت فيلزم ان تكون بمقام ولايات في اصطلاح عصرنا وان كان بعضها أكبر من بعض وأكثر في العمران كما هو الحال الآن في ولايات كثيرة ولا يقال ان بالنظر الى قربها من بعضها بعض يظهر أنها لا تكون كذلك اذ لا يكون في دائرة كل واحدة من الانفس والعمارات ما يخول لها درجة ولاية أو متصرفية لان من نظر الى مديريات مصر والاسكندرية مثلا وتقاربها لا يستبعد ذلك هنا مع وجود تلك الانهار الجـاريـة والعيون السائلة والاودية الكبيرة والاعداد الكثيرة من القبائل المؤلفة من الآلاف والله أعلم .

انصافه وتقريره الحق كما عرفه ورآه او حقيقة عن ارباب المعرفة والصدق ما نصه، اقليم المغرب هذا اقليم بهي، كبير سري، كثير المدن والقرى، وعجيب الخصائص والرخا، به ثغور جليلة، وحصون كثيرة، ورياض نزهة، وبه جزائر عدة، مثل الاندلس الفاضلة العجيبة، (وتاهرت) الطيبة النزيهة، وطنجة البلدة البعيده، وسجلماسة المختارة الفريدة، واصقلية الجزيرة المفيدة، الى ان قال : فأول كورة من قبل مصر برقة ثم افريقية ثم (تاهرت)، ثم سجلماسة، ثم فاس، ثم السوس الاقصى، ثم جزيرة اصقلية .

ثم طرب قلمه السابح في لجة معارفة اليقينية، واستخرج من مكنون جواهره كل يتيمة نقية، واندفع يسطر على صفحات الطرس، ما علمه لهذه المدينة الزهراء من الفضائل والكمالات، مترددا في تفضيلها على دمشق الشام وقرطبه الاندلس ذات المآثر الباهرات، واليك ما طرزه وحقّه ان ينظم اللآلي، وقل لله رجل انصف وما حاد عن الحق اذ قال :

(تاهرت) هي اسم القصبه ايضا، وهي ببلخ المغرب قد احدقت بها الانهار، والتفت بها الاشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها الأعين وجل بها الاقليم وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق[1] واخطأوا وعلى قرطبة وما اظنهم اصابوا، هو (اقليم تاهرت) بلد كبير

---

(١) أما دمشق فقد سميت باسم بانيها دمشق بن فاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح وقيل غير ذلك، وقد اقسم سبحانه وتعالى بجبلها في قوله : ﴿والتين﴾ قال كعب هو الجبل الذي عليه دمشق والزيتون هو الجبل الذي عليه بيت المقدس وطور سيناء هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام والبلد الامين هو مكة وقال الاصمعي جنان الدنيا ثلاث غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الابلة وقد فتحت دمشق سنة ١٤ من الهجرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومما

كثير الخير رحب، رفق، طيب، رشيق الاسواق، غزير الماء، جيد الاهل، قديم الموضع، محكم الرصف، عجيب الوصف، غير أنه متى يقاس

= قاله البحتري الشاعر المشهور فيها قوله :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها | وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد | مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا | ويصبح النور في صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفا خضلا | وينانعا خضرا أو طائرا غردا
كانها القيظ ولى بعد جيئته | أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

ومما قاله فيها ابو تمام الشاعر :

لولا حدائقها وأني لا أرى | عرشا هناك ظننتها بلقيسا
وأرى الزمان غدا عليك بوجهه | جذلان بساما وكان عبوسا
قد نورت تلك البطون وقدست | تلك الظهور بقربه تقديسا

ذكر هذا صاحب مختصر البلدان وقال : ولما أراد الوليد بن عبد الملك بناء مسجد دمشق دعا نصارى دمشق فقال : إنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم هذه ونعطيكم موضع كنيسة حيث شئتم فحذروه ذلك وقالوا : انا نجد في كتابنا انه لا يهدمها احد الا وخنق فقال الوليد : فانا أول من يهدمها فقام عليها وعليه قباء أصفر فهدمها بيده وهدم الناس معه ثم زاد في المسجد، فلما هدمها كتب اليه ملك الروم انك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فإن كان حقا ما عملت فقد أخطأ أبوك، وان كان باطلا فقد خالفت أباك فلم يعرف الوليد جوابا فاستشار الناس، وكتب الى العراق فقال الفرزدق أجبه يا أمير المؤمنين بقول الله عز وجل : ﴿وداوود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾ وكتب اليه الوليد بذلك فلم يجبه والوليد ممن زاد في المساجد وبناها فبنى المسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد قبا ومسجد دمشق، وأول من حفر المياه في طريق مكة الى الشام وأول من عمل البيمار ستانات للمرضى، وكان في ذلك انه خرج حاجا فمر بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم فدخله فرأى بيتا ظاعنا في المسجد شارعا بابه فقال ما بال هذا البيت فقيل هذا بيت علي بن ابي طالب أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم وردم سائر ابواب أصحابه فقال ان رجلا تلعنه على منابرنا في كل جمعة نقر بابه ظاعنا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين الابواب اهدم يا غلام فقال روح بن

المغرب بالشام، واين مثل دمشق في الاسلام ؟! ، ولقرطبة اسم وذكر وشأن، بها (اي تاهرت) جامعان على ثلثي البلد قد بنيا بالحجارة والجيل،

= زنباع الجذامي لا تفعل يا أمير المؤمنين حتى تقدم الشام ثم تخرج امرك بتوسيع مساجد الامصار مثل مكة والمدينة وبيت المقدس وتبني بدمشق مسجدا فيدخل هدم بيت علي بن أبي طالب فيها يوسع من مسجد المدينة فقبل منه وقدم الشام وأخذ في بناء مسجد دمشق وانفق عليه خراج المملكة سبع سنين ليكون ذكرا له (وهذا مما لا يجوّزه الشرع قطعا) وفرغ من المسجد في ثماني سنين فلما حمل اليه حساب نفقات مسجد دمشق على ثمانية عشر بعيرا امر باحراقها قال في كتاب المسالك والممالك انفق على مسجد دمشق خراج الدنيا ثلاث مرات وبلغ ثمن البقل الذي أكله الصناع في مدة أيام العمل ستة آلاف دينار وهذا المسجد مقعد عشرين ألف رجل وان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل، قال زيد بن واقد وكلني الوليد على العمال بمسجد دمشق فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك فنزل في الليل فاذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في مثلها واذا فيها صندوق وفيه سفط مكتوب عليه (هذا رأس يحيى بن زكرياء) فرأيناه فأمر به الوليد ان يجعل تحت عمود معين فجعل تحت العمود المسقط ( ) الرابع الشرقي ويعرف بعمود السكاسك قال زيد رأيت رأس يحيى بن زكرياء حين وضع تحت العمود والبشرة والشعرة لم تتغيرا قالوا فمن عجائب مسجد دمشق ان لو بقي الرجل فيها مائة سنة لكان يرى فيها كل وقت اعجوبة لم يرها قبل وقال كعب ليبنين في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الارض أربعين عاما والمئذنة التي بدمشق كانت ناطورا للروم في كنيسة يحيى فلما هدم الوليد الكنائس وادخلها المسجد تركت على حالها وهدم الوليد عشر كنائس واتخذها مسجدا ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قال : اني ارى في مسجد دمشق أموالا انفقت في غير حقها فانا مستدرك ما ادركت منها ورادها الى بيت المال انزع هذا الرخام والفسيفساء وأطينه وانزع هذه السلاسل وأصير بدلها حبالا فاشتد ذلك على أهل دمشق فخرج أشرافها اليه وكان فيهم يزيد بن سمعان وخالد بن عبد الله القشري فقال خالد لهم دعوني والكلام قالوا : تكلم فلما دخلوا عليه، قال له خالد : بلغنا انك هممت بمسجدنا بكذا وكذا قال : نعم ، قال : والله ما ذلك لك قال فلمن ذلك لأمك الكافرة؟ ، وكانت امه نصرانية ، فقال : ان تك كافرة فقد ولدت مؤمنا فاستحى عمر وقال : صدقت وورد على عمر رسل الروم فدخلوا مسجد دمشق لينظروا اليها فرفعوا رؤوسهم الى المسجد فنكس رئيس منهم رأسه واصفر لونه ، فقالوا له في ذلك فقال : انا كنا معاشر أهل رومة نحدث ان بقاء العرب قليل فلما رأيت ما بنوا علمت ان لهم مدة سيبلغونها فأخبر عمر

قريبان من الاسواق من دروبها المعروفة اربعة درب مجانة، درب المعصومة،

=بذلك فقال: أرى مسجدكم هذا غيظا على الكفار فترك ما هم به من أمر المسجد والمسجد مبنيّ بالرخام والفسيفساء مسقف بالعاج منقوش بالازورد والذهب والمحراب مرصع بالجواهر المثمنة والحجارة العجيبة، وبنى معاوية الخضراء بدمشق في زمن عثمان بن عفان وامر على الشام وهو ابن ثمان وثلاثين سنة واستخلف وهو ابن ثمان وخمسين سنة وتوفي لثمان وسبعين سنة وهو أول من اتخذ المحاريب والمقاصير والشرط والحرس والخصيان وأصفى الاموال وقد انكر قوم بناء الدور والابنية والنفقة والتبذير عليها وهذا طلحة بنى داره بالآجر والقصة وابوابه ساج وبنى عثمان بن عفان بالحجارة المنقوشة المطابقة وخشب الصنوبر والساج حمل له من البصرة في البحر ومن عدن في البحر وحمل له القصة من بطن نخل وبنى الزبير اربعة دور دارا بمصر وأخرى بالاسكندرية واخرى بالكوفة واخرى بالبصرة وانفق زيد بن ثابت على داره ثلاثين ألف درهم ثم قال وبدمشق جبل لبنان وهو الذي يكون عليه العباد (بتشديد الباء) والابدال وعليه من كل الثمر والفواكة وفيه عيون كثيرة عذبة (اهـ).

وأما قرطبة بضم أوله وسكون ثانيه وضم الطاء المهملة والباء الموحدة فقد قال صاحب المعجم كلمة فيها أحسب عجمية رومية ولها في العربية مجال يجوز ان تكون من القرطب وهو العدو الشديد، وقال وهي مدينة عظيمة بالاندلس وسط بلادها وكانت سريرا لملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بني أمية ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء، من ذلك الصقع بينها وبين البحر خمسة أيام قال ابن حوقل التاجر الموصلي وكان طرق تلك البلاد في حدود سنة ٣٥٠هـ وأعلى مدينة بالاندلس قرطبة وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الاهل وسعة الرقعة ويقال انها كأحد جانبي بغداد وان لم تكن كذلك فهي قريبة منها وهي حصينة بسور من حجارة ولها بابان يشرعان في نفس السور الى طريق الوادي في الرصافة والرصافة مساكن بأعالي البلد متصلة بأسافله من ربضها وابنيتها مشتبكة محيطة من شرقها وشمالها وغربها وجنوبها الى ان قال وممن تشوق اليها القاضي محمد بن ابي عيسى بن يحيى الليثي قاضي الجماعة بقرطبة فقال فيها:

يلم ذكراي من ورقا مفردة ... على قضيب بذات الجزع مياس
رددن شجوا شجا قلبي الخلي فقل ... في شجو ذي غربة ناء عن الناس
ذكرنه الزمن الماضي بقرطبة ... بين الاحبة في لهو وايناس
هجن الصبابة لولا همة شرفت ... فصيرت قلبه كالجندل القاسي

درب حارة الفقير[1]، درب البساتين، بقربها مدينة تسمى رها، وقد خربت وتنس مسورة على البحر، شربهم من نهر، وكذلك قصر الفلوس، وتاهرت السفلى على واد عظيم، ذات اعين وبساتين، وافكان مسورة على واد جار ذي بساتين، ويلل، وجبل توجان، على ما ذكرنا سواء، وهران، بحرية

= وينسب اليها كثيرون من أهل العلم والادب ولما أدبر أمرها رثاها شعراؤها بمراث كثيرة والله اعلم .

وقد نقل الشيخ مقديش وصف جامعها المشهور فقال وبها الجامع الذي ليس في معمور الارض مثله فيه من السواري الكبار الف سارية وفيه مائة وثلاثة عشرة ثريا، للوقيد أكثر ما تحمل الواحدة الف مصباح وفيه من النقوش والرقوم مالا يقدر على وصفه وبقبلته صناعات تدهش العقول وعلى فرجة المحراب سبع قسي قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة قد تحير الروم والمسلمون في وصف حسنها وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة اثنان اخضران واثنان لازورديان ليس لهما قيمة وبه منبر ليس على معمور الارض مثله في حسن صنعته وخشبه ساج وابنوس وبقص وعود قافلي ويذكر في تاريخ بني أمية انه احكم عمله ونقشه في سبع سنين وكان يعمل فيه ثمانية صناع لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي فكان جملة ما صرف على المنبر أجرة لاغير عشرة آلاف مثقال وخمسين مثقالا وفي الجامع حاصل كبير فيه آنية الذهب والفضة لاجل الوقود وبهذا الجامع أربع ورقات من مصحف عثمان بن عفان بخط يديه وفيه نقط من دمه وله عشرون بابا مصفحات بالنحاس الاحمر الاندلسي محزمات تحزيما يعجز البشر عن وصفه وفي كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة وبه الصومعة التي هي من عجائب الدنيا ارتفاعها مائة ذراع بالمالكي المعروف بالشراشي كل ذراع بثلاثة اشبار (اهـ)، بحروفه .

---

(١) في كل ما رأيناه من النسخ (القفير) بتقديم القاف على الفاء ولم نعلم له معنى مناسبا للمقام ولعله بتقديم الفاء أو بالخاء مكان القاف أو بالغين على لغة العامة وعلى هذا تكون علة التسمية واضحة وهي وجود مركز للخفراء بذلك الدرب يجتمعون فيه ثم يوزعون في انحاء المدينة بمعرفة رئيسهم كما هو جار الآن بمصر عند كل مغرب .

مسورة يقلعون منها الى الاندلس في يوم وليلة[1] ترى منها البرين وهي احد المعابر المشهورة، جبل زلاغ، مدينة على جبل عال يطل على كورة فاس بناها خلوف بن احمد المعتلي، وبقية المدن اكثرهن مسورات ذات بساتين (انتهى) .

(١٧) شمس الدين الدمشقي :

وقد ذكرها شمس الدين ابو طالب الدمشقي، باختصار في تاريخه ولم يذكر ما يحتاج الى نقل كما لم يذكر غيرها من المدن الا سردا .

(١٨) ابن فضل العمري :

وعدد العلامة ابن فضل الله العمري، في مسالك الابصار ممالك المغرب ليفضل عليها ممالك المشرق تعصبا للشرق، فلم يذكر من مزايا المغرب الا ما لم يمكنه انكاره وقال، ويليها اي تونس الغرب الاوسط كان في صدر الاسلام قد اقتطعه بنو رستم وكانوا اباضيه وادعوا الخلافة وكان قطب امامتهم مدينة تاهرت .

(١٩) ابن الصغير :

واما المؤرخ ابن الصغير العلامة الخطير، المالكي الشهير، الذي بحث في احوال تاهرت عن النقير والقطمير، فقد نظم في الثناء عليها العقود الحسان، ووصف بني رستم ملوكها الائمة أهل العدل والاحسان، بكل

---

(١) في نسخة هكذا (وسبتة على زقاق بحر الاندلس ترى منه البرين الى آخره) فيؤخذ من هذا ان سبتة قد أتى عليها وقت وهي في دائرة حكم تيهرت وفيه تأمل لبعدها عنها جدا وقربها من طنجة والله أعلم .

وصف جميل وذكر جليل، وسيأتي موزعا في الباب الآتي عند ذكر كل امام منهم فانتظره، وكل آت قريب، ولمناسبة هذا المقام نأتي بكلمات منه وان تكررت بعد ذلك ليعلم منه مشربه، ويدرك منه مرمى كلامه قال :

ثم شرعوا (يعني الاباضية بتاهرت) في العمارات والبناء واحياء الموات وغرس البساتين، واجراء الانهار، واتخاذ الرحى والمستغلات وغير ذلك، واتسعـوا في البلد وتفسحوا فيه، وأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار واقاصي الاقطار، فقل أحد أن ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهرهم لما يراه من رخاء البلد، وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي، وهـذه لفـلان البصري، وهـذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ومربعتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين، واستعملت السبل الى بلاد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة، وضروب الأمتعة الى ان قال في حق الامام افلح، وشمخ في ملكه وابتنى القصور واتخذ ابوابا من الحديد، وبنى الجفان واطعم فيها الجيعان وعمرت معـه الـدنيا وكثـرت الامـوال والمستغلات، واتته الرفاق والوفود من كل الامصار والآفاق بأنواع التجارات وتنافس الناس في البنيان، حتى ابتنى الناس القصور والضياع، الى آخر ما سيطرق سمعك غير بعيد ان شاء الله ولا فائدة في التكرار .

وقال ابن خلدون في صحيفة ١٢١ من المجلد السادس، فشرعوا (أي الابـاضية) في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السياح على تلول منداس، واختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون بالقبلة وتمر بها،

وبالبطحاء الى أن تصب في وادى شلف فأسسها عبد الرحمن بن رستم، واختطها سنة أربع وأربعين ومائة هـ فتمدنت واتسعت خطتها

وقال ابن حوقل في المسالك المطبوع بليدن سنة ١٨٧٢م بصحيفة ٦٠ بعد أن وصفها كما تقدم، والتجار والتجارة (بتيهرت) المحدثة اكثر ولهم مياه تدخل أكثر دورهم وأشجارهم، وبساتين كثيرة وحمامات وخانات وهي احد معادن الدواب، والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهيد ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات .

(٢٠) ابن عذاري المغربي :

وأما ابن عذاري المغربي، فانه ذكرها في بيانه، وخالف في تاريخ تأسيسها كل ما رأيته، من التواريخ اذ قال في صحيفة ٢٠٣ فاجتمع عليه (اي عبد الرحمن) الاباضية وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تيهرت وهي غيضة بين ثلاثة انهار، فبنوا مسجدا من اربع بلاطات، واختط الناس مساكنهم وذلك سنة ١٦١هـ، وكانت في الزمان الخالي مدينة قديمة فاحدثها الآن عبد الرحمن بن رستم، وبقي بها الى ان مات سنة ١٦٨ هـ، وهذا تاريخ في وفاة عبد الرحمن، وهو مخالف لما هو مشهور عندنا، ولكلام ابن خلدون الآتي .

وقال ايضا وكانت حول تيهرت بساتين من انواع الثمار كثيرة الاشجار، وهي شديدة البرد كثيرة الامطار قيل لبعض الظرفاء من اهلها : كم الشتاء عندكم من شهر في السنة ؟ قال : ثلاثة عشر شهرا

(٢١) دائرة المعارف :

هذا وقد وقفت على ذكرها في كتاب دائرة المعارف، ولم يزد على ما سمعته غير بيان المسافة التي بينها وبين وهران باصطلاح هذا العصر، وذلك ٢٢٠ كيلو مترا واستظهر انها هي (تنغرتيا) القديمة التي كانت كرسي اسقفية[1] في القرن الخامس للميلاد (فهي اذاً عريقة في الفخر عظيمة الشأن، محط رحال العظماء والرؤساء من رجال الدين من قديم الزمان، وزاد في ابيات

---

(١) الاسقفية وظيفة مخصوصة برجال الدين عند النصارى وكرسيها هو المدينة أو القصبة التي يقيم فيها الاسقف، والاسقف كلمة عربية وقيل معربة من (ابيسكوبوس) باليونانية ومعناها ناظرا أو رقيب وكل القاب خدمة الدين عند النصارى هي اما من أصل يوناني كالاسقف والبطريرك والشدياق، وغيرهم أو من أصل سرياني كالقسيس والشماس وغيرهما والاسقف بالفرنساوية آفك) (وبالانجليزية بشب) وهما من اليونانية ايضا وهو في الكنائس البرتستانية في اسوج ونروج والدانمرك لقب يلقب به خدمة الدين الا انهم لا يعتبرون من رتبة ممتازة عن غيرها من درجات الكنيسة وقد ذهب بعض البروتستانت الى ان ما ورد في سفر أعمال الرسل (٢٠ : ١٧ و٢٨) يستفاد منه ان مدلول الاسقف والقسيس واحد واما معلمو الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ومن وافقهم من معلمي البروتستانت فقد خالفوا في ذلك وقالوا ان الاسقف والقسيس درجتان ممتازتان، وكان انتخاب الاسقف منوطا بقسم من الاهالي ولما في ذلك من كثرة التخالف في الرأي المؤدي الى العناد غالبا استعملت الوسائل الى ابطال ذلك حتى صار الملوك يعينون بانفسهم أساقفة ممالكهم إلا ان (البابا) لم يطق ذلك وقاوم هذا الطريق بكل عناية حتى جعل الانتخاب مخصوصا بقسيسي الكنائس الاسقفية وقد اختلفت في هذا العهد طرق الانتخاب، فبعضهم خصصه بالقسيسين وبعضهم جعله مشتركا بينهم وبين الاهالي وبعضهم خصصه بالملك ورجال دولته وبعضهم اشترط في المنتخب (بالكسر) كونه من ابوين شرعيين بالغاسن الثلاثين مشهورا بالعلم والادب مقبولا عند الحكومة وكونه من أهالي البلد الواقعة فيها الاسقفية ان امكن .

وعلامات الاسقف في أوروبا التاج رمزا الى القوة والعصا رمزا الى فروضه الرعائية والخاتم رمزا الى اقترانه بالكنيسة وصليب معلق على صدره وكفوف مخصوصة وحذاء لا يغطي إلا قسما من أعلى

ابن حماد المتقدمة بيتا بعد قوله تبدو من الغيم الى آخره والبيت هو هذا :

فنحــن فــي بحر بلا لجــة   تجـري بنـا الريح على سـمت

(حمداً لله على موافقة الحق)

ثم وقفت في اثر هذا على عين ما استظهرته في الحاشية قبل هذا بصحيفة (١٩) عند الكلام على كيفية توزيع المياه على بيوت تيهرت، فحمدت الله على موافقة ذلك الفكر للحق، راجيا ان تكون افكاري كلها كذلك ان شاء الله، وإليك ما كتبه بالحرف حيث قال : واما (تيهرت) الحديثة فكانت اكثر تجارة والماء يجري اليها في اقنية وأنابيب الى كل البيوت، انتهى وبهذا نختم هذا الباب وختامه مسك والحمد لله رب العالمين .

= رجليه وقباء مخصوص وذلك كله تمييز له عمن هو دونه من خدمة الدين، واما في الكنيسة الشرقية فالعلامات المميزة للاسقف عن القسيس عند الروم (الارثودكس) والروم (الكاثوليك) والارمن هي منديل يجعل فوق القلنسوة تحت القاووق وفي الشرق الصليب على الصدر والخاتم في البنصر وثوب يخالف اثواب القسيس ويكون في الغالب أحمر وللاسقف دون القسيس حق فحص التآليف الدينية التي تنشر في ابرشتيه (الدائرة التي يتولاها الاسقف وتكون تحت نظره) فيثبتها أو يحكم بفسادها والكثير من البروتستانت سلخوا السلطة عن الاساقفة وصيروهم بمنزلة القسيسين ومنهم من أبطل هذا الاسم بالمرة والبعض منهم ابقاها كما هي عليه بناء على انها نظام الا هي لا يجوز تغييره وهذا في انجلترا والولايات المتحدة، والاساقفة من جميع الطوائف النصرانية الا البروتستانت لا يباح لهم الزواج وكذا القسيسون من الكنيسة اللاتينية والرهبان عموما لا يباح لهم الزواج واما القسيسون من غير الكنيسة اللاتينية فيباح لهم الزواج مرة واحدة واذا توفيت نساؤهم منعوا من الزواج مرة ثانية، ووظيفة الاساقفة المقيمين في ممالك الدولة العلية العثمانية هي النظر والحكم في جميع المسائل المتعلقة بالامور الدينية من زواج وطلاق واقامة أوصياء للقصر وولاية الاوقاف والتركات وما اشبه ذلك، كذا قيل والله اعلم .



الباب الرابـع

(الكلام على المدن المنسوبة الى تيهرت)

تقدم عن العلامة البشاري الحنفي نسبة عدة مدن الى تيهرت، وقد تكلم عليهـا المؤرخـون، وتتميما للفـائدة نأتي ببعض ما قالوه في بعضها فنقول : ان من اشهر تلك المدن في ذلك العهد .

(١) مـــدينة تنس

بفتح التاء والنون، وهي آخر افريقية مما يلي الغرب، بينها وبين مدينة وهران ثمانية ايام، ومليانة في جنوبها على ثلاثة ايام، وقيل اربعة وبينها وبين تيهرت خمس مراحل أو ست، نقل ذلك الحموي عن البكري وقال : قال ابـو عبيد هي مدينة مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى، ينفرد بسكناها العمال لحصانتها، وبها مسجد جامع واسواق كثيرة، وهي على نهر يأتيها من جبال على مسيرة يوم من جهة القبلة، ويستدير بها من جهـة الشرق، ويصب في البحـر، وتسمى تنس الحـديثـة،وعلى البحر حصن، ذكر أهل تنس انه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة، وتنس الحديثة اسسها وبناها البحريون من اهل الاندلس، منهم الكركدن، وابو عائشـة، والصقـر، وغـيرهم وذلك سنة ٢٦٢ هـ (في دولة بني رستم)، وسكنهـا فريقـان من اهـل الانـدلس، من اهـل البـيرة، وأهل تدمير، وأصحـاب تنس من ولـد ابـراهيم بن محمـد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب، وكان هؤلاء البحريون من اهل الانـدلس يشتـون هنـاك اذا سافروا من الاندلس في مرسى على ساحل البحـر، فاجتمع اليهم بربر ذلك القطر، ورغبوهم في الانتقال الى قلعة

تنس، وسألوهم ان يتخذوها سوقا ويجعلوها مسكنا ووعدوهم بالعون وحسن المجاورة[1]، فأجابوهم الى ذلك، وانتقلوا الى القلعة وانتقل اليهم من جاورهم من اهل الاندلس، فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبأوا الموضع، فركب البحريون من اهل الاندلس مراكبهم، واظهروا لمن بقي منهم أنهم يمتارون لهم ويعودون، فحينئذ نزلوا قرية بجاية، وتغلبوا عليها، ولم يزل الباقون في تنس في تزايد وثروة وعدد، ودخل اليهم اهل سوق ابراهيم، وكانوا في اربعمائة بيت، فوسع لهم أهل تنس في منازلهم، وشاركوهم في اموالهم وتعاونوا على البنيان، واتخذوا الحصن الذي فيها اليوم، ولهم كيل يسمونه الصحفة وهي ثمانية واربعون قادوسا والقادوس ثلاثة امداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم ورطل اللحم بها سبع وستون اوقية ورطل سائر الاشياء اثنتان وعشرون اوقية ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة، وقال سعد بن اشكل التاهرتي في علته التي مات منها (بتنس)

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر
واصبحت عن دار الاحبة في اسر
واصبحت عن (تيهرت) في دار غربة
وأسلمني مر القضاء من القدر
الى تنس ذات النحوس فانها
يساق اليها كل منتقص العمر

---

(١) انظر كيف كانوا يهتمون بالبقاع المهجورة القابلة للعمارة ويستميلون الناس الى الاقامة بها باحسانهم ومعروفهم وحسن جوارهم .

هو الدهر والسياق[1] والماء حاكم
وطالعها المنحوس صمصامة الدهر
بلاد بها البرغوث يحمل راجلا
ويأوي اليها الذيب في زمن الحر
يرجف منها القلب في كل ساعة
بجيش من السودان يغلب بالوفر
ترى اهلها صرعى دوي ام ملدم
يروحون في سكر ويغدون في سكر

وقال غيره :[2]

ايها السائل عن ارض تنس
مقعد اللوم المصفى والدنس

---

(١) في نسحة السياف بالفاء وله مناسبة للمقام .

(٢) قد بالغ هذان الشاعران في ذم هذه المدينة الممدوحة عند ارباب التاريخ وقد علمنا السبب الحامل للاول منهما على ذمها فعذرناه اذ لا مصيبة تعادل الداء العضال المقضي بصاحبه الي الهلاك كالذي اصابه ولم نعلم للثاني سببا قويا غير ما يفهم من كلامه من أنه كان سائلا وكأنه لم يقنع بما ناله فيها، وقد ورد أن النفس جبلت على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها، وسئل (جحا) فيما يقال عن المحسن من الناس فقال هو الذي احسن اليّ وسأل عن المسيء منهم فقال هو الذي أساء إليّ . وعلى كل حال لا يكون قولهما دليلا على نقصها لان الذم والمدح لا يكونان غالبا الا على حسب الاغراض والطبائع والاحوال والازمان ولا يخلو شيء من مخلوقات الله عموما من كمال ونقص، وما قصد الانسان الى مدح شيء ما الا ووجد مجالا يسع فوق مراده ولو عمد الى ذم ذلك الشيء عينه من جهة أخرى لا نفتح له أوسع باب في ذلك بدون ان يكذب ان شاء، وهذا مما يدل على حدوث الكائنات وافتقارها الى مدبر حكيم وهو الله الذي لا إله الا هو ذو الكمال الذي لا يشوبه نقص ولا يلحقه عدم، هذه مصر القاهرة الغنية بشهرتها عن البيان مهبط الفراعنة

بلدة لا ينـزل الـقـطر بها
والـنـدى في اهـلهـا حرف درس
فصحـاء الـنـطق في (لا) أبـدا
وهـم في (نـعـم) بُكْـمٌ خُرس
فمتـى يلمـم بها جاهـلهـا
يرتحل عن اهـلهـا قبـل الـغـلس

=والجبابرة وعظماء الملوك وبيت الحكم ومعدن الآثار العظيمة والصناع الغريبة من قديم الزمان قد مدحها الشعراء بما اذا سمعته توهمت انها روضة من رياض الفردوس وذمها آخرون بما اذا تلي عليك ظننت انها حفرة من حفر النار ومما قاله في وصفها واجاد سليم بيك العنحوري الدمشقي من شعراء هذا العصر هذه القصيدة .

﴿شـوارع مصـر﴾

تلك الشوارع عرضها امتارا	ست بست تدهش الانظارا
يجري الهواء بها رخاء مطلقا	يمحو السقام ويذهب الاكدارا
تزدان بالانوار فوق منائر	فيعود ليل المدلجين نهارا
وعلى الجوانب الف حانوت زهت	بنفائس تدع العقول حيارى
فيها الجواهر كالنجوم وجامها	فلك يزيغ بهاؤه الابصارا
فيها لاصناف النسيج زخارف	تسبي النساء وتسلب الدينارا
شادت يد الاتقان في أكنافها	قللا يناطح روقها الاقمارا
من كل صرح باذخ شرفاته	تبدي متى حان الاصيل عذارى
غر الوجوه فواتنا تزري الدمى	بيضا وسمرا خردا ابكارا
يختلن من فوق العروش بواسما	جذلا وهن من النعيم سكارى
يرمقن ابناء السبيل بأعين	توحي الى أهل الهوى اسرارا

ماؤهـا من قبـح ما خصـت به
نجس يجري على ترب نجس
فمـتـى تلعـن بلادا مرة
فاجـعـل الـلعـنـة دأبـا (لـتـنس)

حفت بجنات الازاهر قد حوت	دررا وآسا نرجسا وعرارا
جمعت لاسباب الهناء ذرائعا	تولي النزيل من المنى أوطارا
يمسي ويصبح والنعيم مهاده	حتى لينسى أهله والجارا

ومما ورد في ذمها من أقوال المتقدمين قول الشاعر :

مصر دار الفاسقينا	تستفز السامعينا
واذا شاهدت شاهد	ت جنونا ومجونا
وصـــــفاعا وضراطا	وبغـــــاء وقرونا
وشـــــيوخا ونساء	قد جعلن الفسق دينا
فهي موت الناســكينا	وحيـــــاة الهالكينا

وقول الآخر من قصيدة :

قلت منافعها فضج ولاتها	وشكا التجار بها كساد السوق
ما ان يرى فيها الغريب اذا رأى	شيئا سوى الخيلاء والتبريق
قد فضلوا جهلا مقطمهم على	بيت بمكة للاله عتيق
لمصارع لم يبق في اجداثهم	منهم صدى بر ولا صديق
ان هم فاعلهم فغير موفق	أو قال قائلهم فغير صدوق
شيع الضلال وحزب كل منافق	ومصارع للبغي والتفنيق
اخلاق فرعون اللعينة فيهم	والقول بالتشبيه بالمخلوق
لولا اعتزال فيهم وترفض	من عصبة لدعوت بالفريق

وهكذا الحال في البصرة والكوفة على ما سيأتي وغيرهما وبالجملة فلا شيء في الوجود غيره تعالى الا وله كمال ونقص ومادح وقادح على حق أو باطل الا ان الحق يعلو والكمال لله وحده .

ثم قال: وقد نسبوا الى تنس ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي، دخل الاندلس وسكن مدينة الزهراء،[1] وسمع من ابي وهب بن مسرة الحجازي وابي علي القالي، وكان في جامع الزهراء يفتي، ومات في صدر شوال سنة (٣٠٧هـ) انتهى حموي .

هكذا في النسخة المنقول منها، وهي من طبع الافرنج ومصححه باعتناء

---

(١) الزهراء مدينة وقيل سراية كما ذكره بعض المؤرخين وهو أقرب لانهم ذكروا ان طولها الفان وسبعمائة ذراع وان عرضها الف وخمسمائة ذراع وهي قريبة من (قرطبة) على ستة اميال منها وقيل اربعة وزيادة اختطها عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الاموي، وهو يومئذ سلطان تلك الجهات وذلك سنة ٣٢٥ هـ (بعد انقضاء دولة بني رستم من تيهرت) انفق في عمارتها ما تجاوز حد الاسراف وجلب اليها الرخام من الاقطار واتاه من الهدايا للاعانة على اتمامها من ولاته ومن ملوك الافرنج المجاورين له ما لا يحد وصفه وجلب اليها من القسطنطنية حوضا مذهبا كبيرا وجعل فيها حوضا اصغر منه فيه صور حيوانات متعددة كالاسد والغزال والعقاب والثعبان وكل ذلك بالذهب المرصع بالجواهر وكان يدخلها في اثناء العمل في كل يوم ٦٠٠٠ صخرة مع ما لا يعد من الآجر ويعمل فيها كل يوم الف صانع مع كل صانع ١٢ اجيرا فالجملة ثلاثة عشر ألفا حتى تمت في ١٦ سنة فكان فيها ٤٣٠٠ سارية و١٥ بابا وقدر ما انفق عليها (من بيت مال المسلمين) بما يقارب ستمائة وخمسين قنطارا فضة خالصة وكانت على ثلاثة اقسام قسم فيه قصر السلطنة وقسم فيه خدمه وقسم فيه متنزهة وعلى سورها ٣٠٠ برج ولم يغنها ذلك شيئا اذ حل بها القضاء المبرم فقد دخلها البربر سنة ٤٠٠ هـ واحرقوها وخربوها ونهبوا ما فيها حتى لم يبق منها الا الرسوم والاطلال وقد ذكرها الشعراء في قصائدهم كثيرا ومن بينهم أبو الوليد بن زيدون القائل :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في اصائله	كأنها رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم	كما حللت من اللبات اطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت	بتنا لها حين نام الدهر سواقا

كامل، واما العلامة الضبي، فانه ذكر في تاريخه المطبوع ببلاد الافرنج ايضا انه توفي سنة ٣٨٧هـ والفرق بينهما فاحش فليتأمل .

وتكلم عليها الادريسي المالكي المولود في عشرة التسعين من المائة الخامسة في تاريخه فقال : ومدينة تنس على مقربة من ضفة البحر المالح على ميلين منه وبعضها على جبل، وقد أحاط به السور، وبعضها في سهل الارض، وهي مدينة قديمة أزلية، عليها سور حصين وحظيرة مانعة دائرة بها وشرب اهلها من عين، ولها في جهة الشرق واد كثير الماء، وشربهم منه في ايام الشتاء، والربيع، وبها فواكه وخصب واقلاع وحط وبها اقاليم واعمال ومزارع، وبها الحنطة ممكنة جدا، وسائر الحيوانات موجودة، وتخرج منها الى كل الآفاق في المراكب، وبها من الفواكه كل طريفة، ومن السفرجل الطيب المعنق[1] ما يفوق الوصف في صفته وكبره وحسنه، وذكر في صحيفة ٨٢ ان بينها وبين مدينة تلمسان (التي ينتهي عند عملها ملك بني رستم) تسع مراحل، وقال في كيفية السير فيها هكذا :

تخرج من تلمسان (مشرقا) الى قرية العلويين، وهي قرية كبيرة عامرة على ضفة نهر ولهم بها جنات ومياه جارية من عيون، ومنها الى قرية (بابلوت) مرحلة، وهي قرية جليلة كثيرة الاهل والعمارة، على نهر ليس به ارجاء، وتسقي منه مزارع، ومن بابلوت الى قرية (سي) التي على نهر مرغيت مرحلة وهو صغير والعيون بها والمياه تطرد في كل وجهة، ومنها الى رحل الصفصاف مرحلة، وهو رحل عامر، آهل على نهرياتي من (افكان)

---

(١) أي له عنق طويل كعنق الكمثرى مثلا

(١)
من جهة المشرق، ومن الرحل الى افكان مرحلة، ثم ذكر في صحيفة ٨٨ جملة قبائل، منها ورماكسين، وورشفانة ومغراوة، وبنو راشد وزقارة، وذكر أن مواطنهم بين تلمسان (وتاهرت) ثم قال :

وكل هذه القبائل بطون زناتة، وهم اصحاب هذه الفحوص، وهو قوم رحالة ظواعن، ينتجعون من مكان الى مكان غيره، لكنهم متحضرون، واكثر زناتة فرسان يركبون الخيل، ولهم عادية لاتؤمن، ولهم معرفة بارعة وحذق وكياسة ويد جيدة في علم الكف .

وقد تعرض لها صاحب كتاب دائرة المعارف، فذكر أنها كانت مدينة عظيمة ذات تجارة واسعة مع عرب اسبانيا، وأن الماء خربها في نيف وعشرين وستمائة، وتراجع اليها بعض اهلها، ودخلها أبو الربيع الملياني في تلك المدة، وهم ساكنون بين الخراب، ثم قال ومنذ القرن الثالث عشر ميلادي صارت قصبة مملكة صغيرة خربها خير الدين سنة ١٥١٨م، ثم ذكر(٢) ماهي عليه وقت تأليفه الكتاب من الحالة، وهي لا تبعد عما هي عليه الآن

حالتها الحاضرة

فقال : وسنة ١٨٤٣م (اي في أوائل عشرة الستين بعد الف ومائتين هجرية) دخل (تنس) الفرنسيون، وانشأوا الجانب الحديث منها سنة ١٨٤٨م، وهي الآن ذات اسواق جميلة، وأبنية بهيجة ومنازل عسكرية،

(١) أي ومن افكان الى المعسكر مرحلة ومنها الى جبل فرحان ثم مدينة يلل مرحلة ومنها الى مدينة غزة ثم سوق ابراهيم مرحلة ومنها الى بلدة التين مرحلة ومنها الى تنس مرحلة فهذه تسع مراحل .

(٢) هذا كله كان في زمن تأليف الكتاب ومن ذلك الوقت الى الآن ما يقرب من خمسين سنة وهي كل يوم في التقدم فلا شك أنها زادت على ذلك كثيرا والله اعلم .

ومستشفى ، وبها قناة رومانية اصلحت وجرى فيها الماء من مسافة (٥) كيلو مترات، وفيها كثير من العيون منها لكل محل نبع ، فضلا عن العيون العمومية، وهي قصبة دائرة تشتمل على ١١ الف نفس من القبائل البربرية، و٩ آلاف من العرب والمدينة ذات تجارة رائجة يرجى سرعة تقدمها لأن محاصيل ولاية (ارليانفيل) (١) تنقل اليها، وقد بلغت قيمة وارداتها سنة ١٨٥٤م سبعمائة وخمسين ألف فرنك وصادراتها مليوني فرنك، لكن مرفأها يحتاج الى اصلاح، وفي ضواحيها معادن نحاس وافرة الركاز، تكون لها بها يوما ما ثروة جزيلة، وعدد سكانها بلغ سنة ١٨٥٦م نحو ٢٦٠٠ نفس، ويقال ان أهلها القدماء اشتهروا بالسحر، وان منهم كان سحرة مصر في ايام فرعون موسى (عليه السلام) .

(٢) مدينة وهران

وهي من تلمسان على ثلاث مراحل تقريبا، وقد قال الادريسي فيها، هكذا، مدينة وهران على مقربة من ضفة البحر، وعليها سور ترابي متقن، وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافعة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل الأندلس، ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا (من السفن اذا هاج البحر) ولها على ميلين منها المرسى الكبير وبه ترسو المراكب الكبيرة والسفن السفرية وهذا المرسى يستر من كل ريح ، وليس له مثال في مراسى

(١) ارليا نفيل هي قصبة جهة من عمل الجزائر واقعة على ضفة وادي شلف اليسرى تبعد عن الجزائر بقدر ٢١٠ كيلومترات الى الجنوب الغربي بناها الفرنساويون سنة ١٨٤٢م وهي مدينة حسنة البناء وأزقتها منتظمة وبها مسرح، ويقام بها سوق في يوم الاحد من كل اسبوع ووجدوا فيها آثار كنيسة قديمة منها بلاط مزين بالفسيفساء (اهـ).

حائط البحر من بلاد البربر، وشرب أهلها من واد يجري اليها من البر، وعليه بساتين وجنات، وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب، والعسل بها موجود، وكذلك السمن والزبد، والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير، ومراكب الاندلس اليها مختلفة، وفي أهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة (اهـ) .

وقال البكري : (وهران) مدينة حصينة ذات مياه سائحة وأرحاء، ولها مسجد جامع وبنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الاندلسيين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مسقن، وهم من أزداجة وكانوا من أصحاب القرشي (١) سنة ٢٩٠هـ (في آخر دولة بني رستم) فاستوطنوها سبعة أعوام، وفي سنة ٢٩٧هـ (لما ادبر أمر بني رستم)، زحفت اليها قبائل كثيرة يطالبون اهلها باسلام (٢) بني مسقن، فخرجوا ليلا هاربين واستجاروا بأزداجة، وتغلبوا على مدينة وهران، وخربت واضرمت نارا، ثم عاد أهلها اليها بعد سنة ٢٩٨هـ بأمر أبي حميد دواس بن صولات وابتدأوا في بنائها، وعادت

(١) اراد بالقرشي صاحب الاندلس فان ابن خلدون ذكر ان من رجال الامويين الذين ملكوا وهران ابن ابي عون هذا ومن معه دخلوها في هذا التاريخ وخطبوا لبني امية الاندلس ولعل هؤلاء جددوها تجديدا ولم ينشئوها انشاء كما يؤخذ من هنا والا فكيف يذكرها العلامة البنا فيما ذكره لبني رستم فتأمل .

(٢) بنو مسقن بطن من بطون ازداجة التي هي بطن من البرانس البربر وقد رسمها بعضهم هكذا (مسكن) بالكاف مكان القاف ولعل القبيلة المعروفة الآن ببني يسقن في وادي ميزاب من هذا البطن وابدل اللسان الميم ياء لطول العهد وقوله باسلام أي بمسالمة واتحاد بني مسقن معهم على مطالبة أهل وهران، فالضمير في قوله خرجوا يعود الى أهل وهران لا الى بني مسقن كما هو ظاهر والله اعلم .

احسن مما كانت، وولى عليهم داود بن صولات اللهيصي محمد بن أبي عون فلم تزل في عمارة وزيادة، الى ان وقع بعلي بن محمد بن صالح اليفرني بأزداجة في ذي القعدة من السنة المذكورة، فبدد جمعهم وحرق مدينة وهران ثانية وخربها، وكذلك بقيت سنين، ثم تراجع الناس اليها، وينسب اليها أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمذاني الوهراني، يروي عن أبي بكر احمد بن جعفر القطيعي روى عنه ابن عبد البر وابو محمد بن حزم الحافظ الاندلسي (١هـ) .

هذا حالها القديم، واما بعد ذلك فقد ذكر الشيخ مقديش ان افرنج الاندلس قد استولوا عليها مرارا واخرجهم منها المسلمون، قال : وساعة تاريخ الكتاب سنة (١٢٠٧هـ) سبع ومائتين والف بأيدي المسلمين فتحها الامير محمد باي أحد امراء الجزائر سنة (١٢٠٥هـ) خمس ومائتين وألف

(حالتها الحاضرة)

واما الآن أعني سنة (١٣٢٥هـ) فهي بيد الدولة الفرنسية من الافرنج تابعة لولاية الجزائر، مستبحرة العمران متقدمة في التمدن الأوروبي، بها من السكك الحديدية والانوار الكهربائية والاسلاك التلغرافية والمباني الفخيمة والاسواق التجارية، ما بغيرها من المدن الكبيرة، وهي احدى الموانىء الشهيرة الآن (١) ، بها من تجار الاباضية بنو ميزاب جماعة لهم القدح المعلى في ميادين التجارة والله اعلم .

(٣) مدينة شلف

وبينها وبين مدينة، يلل، مرحلة، قال ابن حوقل : وهي مدينة ذات

(١) الفترة التى عاش فيها المؤلف

سور وحصن ونهر واشجار ومزارع(١هـ) ، (ولا منافاة بين هذا وبين ما سيأتي من خرابها) اذ كل في زمان، وقد تكلم على شلف صاحب كتاب المعارف بما هو أوضح اذ قال : وشلب أيضا (بالباء) أو شليف على لفظ الافرنج نهر بالجزائر يسميه المغاربة وادي شلب، وهو أهم أنهر تلك البلاد، وتجري القوارب فيه في قسمه الأسفل، وهو مؤلف عند أعلاه من جدولين ينحدران من جبل (امور)، وبعد اتحادهما يسمى وادي الطويل، ويجري شرقا الى (تاجوين) حيث استولى (دوق اومال) على معسكر (الامير) عبد القادر سنة ١٨٤٣م ثم يقطع سهل سرسو، ثم ينصب اليه من ضفته اليمنى جداول تجري من جبل الناطور، تتألف من ٧٠ نبعا، ثم اذا وصل الى بوغر يسمى بأسم شلب، ويصب في البحر المتوسط بين (تنس) و(أرسوف) على بعد ١٣ كيلومترا من مستغانم الى الشمال الشرقي، وينصب اليه قبل وصوله الى البحر جدولان آخران من ضفته اليسرى، وطول مجراه (٢٦٠) كيلو مترا وتلاعه (١) مؤلف من أرض ابليزية غير خصبة يشتمل على مدن بوغر، وثنية الأحد، ومدية، ومليانة، ومستغانم، وارليانفيل، واسمه القديم (شينالاف) وقيل (ازان) (١هـ) أقول ولو لم يكن (لتيهرت) من الأنهر الا هذا النهر الكبير الغزير المياه لكفاها عمرانا اذ كان يفيض كما يفيض النيل، وتزرع عليه انواع الحبوب والله اعلم

(٤) المدينـــة الخضـــراء

وقد قال فيها الحموي في تاريخه : بلدة بينها وبين مليانة يوم واحد، وهي مدينة جليلة كثيرة البساتين على شاطىء نهر من أخصب مدن

(١) قال في المختار التلعة بوزن القلعة ما ارتفع من الارض وما انهبط وهو من الاضداد .

افريقية (اهـ).

وأما الادريسي فقال فيها : وهي مدينة صغيرة حصينة على نهر صغير عليه عمارات متصلة، وكروم، بها من السفرجل كل بديع ولها سوق وحمام، وسوقها يجتمع اليها أهل تلك الناحية (اهـ).

(٥) مدينـــة افكـــان

وقد قال فيها الادريسي : مدينة كانت (في مدة بني رستم) لها أرحاء (تدور بالماء) وحمامات وقصور وفواكه كثيرة، وكان عليها سور ترابي لكنه الآن في (أول المائة السادسة) تهدم ، وبقي أثره وواديها يشقها نصفين ويمضي منها الى (تاهرت)

وقال ابن حوقل : وافكان مدينة لها أرحية وحمامات وقصور وفواكه، وكانت (بعد بني رستم) ليعلى بن محمد، ذات سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض، واديها يشقها نصفين، ومنها إلى (تيهرت) بالعرض إلى المشرق ثلاث مراحل، وافكان على واديها أعمال عريضة وجنات ومزارع (اهـ).

(٦) مدينـــة غـــزة

وقد قال الادريسي فيها، هي مدينة صغيرة القدر، فيها اسواق مشهورة مشهود لها يوم معلوم، وبها حمام وديار حسنة، ولها مزارع وذكرها ابن حوقل بمثل هذا وقال : هي مدينة صالحة .

(٧) ســـوق ابـــراهيـم

وبينهـا وبين غزة مرحلة واحدة، وقد ذكرها ابن حوقل بقوله : وهي

مدينة أيضا صغيرة، فيها حمام وسوق، وهي على نهر شلف (اهـ).

قال الصفاقسي : ومن سوق ابراهيم الى بلدة التين مرحلة، وهي بلدة صغيرة حسنة، كثيرة شجر التين جدا، ويعمل بها من التين شرائح أعظم من الطوب وبذلك تسمى ويحمل منها الى كثير من الأقطار، ومنها الى مدينة تنس مرحلة (اهـ).

(٨)واريفـــــن

وهي على مرحلة من مدينة تنس، في جبال وعرة شاهقة متصلة، وعلى مرحلة أيضا من الخضراء، وقد قال فيها الصفاقسي قرية كبيرة (لا مدينة) لها كروم وجنات ذوات سوان لزرع البصل والكمون، ومعظمها على نهر شلف .

(٩) مدينـــة أوزكـــي

وقد ذكرها المؤرخ البنا المتقدم، في مدن تيهرت ثم كررها في مدن فاس، فاما ان تكون هذه غير تلك، والاسم واحد، واما ان يكون التكرار اشارة الى انها تارة تتبع تيهـرت، وتارة تتبع فاس، وعلى كل حال فقد ذكرها المؤرخون كغيرها، منهم الأدريسي في نزهته قال :

وأمـا مدينـة اوزكي فانها من بلاد مسـوقـة ولمـطة، وهي أول مراقي الصحراء، ومنها الى سجلماسة ١٣ مرحلة، ومنها الى نول ٧ مراحل، وهذه المدينة ليست بالكبيرة، لكنها متحضرة، واهلها يلبسون مقندرات ثياب الصـوف، ويسمـونها بلغتهم القـداور الى ان قال : تسمى هذه المدينة بالـبربرية (آزقي) وبالجناوية (قوقدم)، من أراد الدخول الى بلاد (سلى)

وتكرور وغانة من بلاد السودان، فلابد له من هذه المدينة (١هـ).
والظاهر ان هذه المدينة بعيدة ومنفصلة عن عمل تيهرت المتصل بها، وكأنها كانت مع هذا البعد تابعة لها، كما هو واقع في ولايات كثيرة، مثل جبل نفوسة. ويعبر عنها الآن (١) بالمستعمرات، والله اعلم.

(١٠) مدينـــة الغـــــدير

قال الحموي: بلد أو قرية على نصف يوم من قلعة بني حماد بالمغرب، ينسب اليها عبد الله الغديري المؤدب احد العباد (١هـ).

وقال الادريسي: مدينة حسنة واهلها بدو، ولهم مزارع وأرضون مباركة، والحرث بها قائم الذات، والاصابة في زروعها موجودة، والبركات في معاملاتهم كثيرة

وقال صاحب كتاب الاستبصار المؤلف سنة ٥٨٧هـ: وهي مدينة كبيرة أزلية بين جبال قد احدقت بها، ولها نهر يجتمع من العيون في موضع دهس يخرج منه هذا النهر، ويسمى نهر سهور، ويمشي من هناك الى مدينة المسيلة، وهو نهرها ثم قال: وبقرب مدينة الغدير فحص عجيسة، هو فحص مدبر كثير الزرع والضرع، إلا انه شديد البرد والثلج، ولقد دخلت هذا الفحص في زمان الصيف، فرأيت الجليد ينزل فيه بالغدو، وفي امثال تلك البلاد (برد عجيسة في الصيف، واما في الشتاء لسكرات الموت)(١هـ).

(١١) مدينـــة زلاغ

ولم نقف لها على ذكر في كتب التاريخ سوى ما ذكره صاحب الاستبصار

(١) الفترة التى أرخ لها المؤلف.

حيث قال : في (قلعة أبي جندب) وكانت مدينة كبيرة لها أسواق ولها جنات واشجار، وهي كثيرة الزرع والضرع مشحونة بالعمائر متصلة المحارث والمزارع، في السهول والجبال، منها جبل زالغ (وقد رسمه هكذا)، وهو مشرف على مدينة فاس، كان فيه حصن بناه المظفر بن أبي عامر (اهـ).

(١٢) مدينـــة يـــلل

وهي غير بعيدة عن مدينة غزة، قال الادريسي : بها عيون ومياه كثيرة وفواكه وزروع، وبلادها جيدة الفلاحة وزروعها نامية (اهـ).

أقول : وقد استقلت هذه المدينة زمنا عن تيهرت وصارت دار امارة اباضية صغيرة كما سيأتي، والله اعلم

(١٣) مدينـــة قصـــر الفـــلوس

ولم يذكر المؤرخون عنها فيما رأيناه شيئا أكثر من انها مدينة بالمغرب قريبة من مدينة وهران .

(١٤) مدينـــة كـــرا

وقد كتبه الحازمي هكذا (كران) وقال : حصن على مدينة شلف، بالمغرب في بلاد البربر، وذكره ابن حوقل وقال : هو حصن أزلي، يقال له سوق كران، وبينه وبين مليانة مرحلة، وبينه وبين اشير ثلاث مراحل، وكتبه الشيخ مقديش هكذا (كرتاية) وقال : وهو حصن قديم، له مزارع وأسواق، وهو على نهر شلف، وله سوق يوم في الجمعة يقصده بشر كثير (اهـ)، وقد ذكره الحموي ورسمه كالأولين، والله اعلم

الباب الخامس

ويدخل أيضا في دائرة (تيهرت) عدة مدن، ذكرها المؤرخون، ولم ينبه عليها العلامة البنا، لأن من قواعده، أن لا يتعرض غالبا الا للمدن الكبيرة المشهورة منها :

(١) مدينة انكاد

ولها على تيهرت ثلاث مراحل إلى ناحية تلمسان، قال الحموي : كانت قديما ذات سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض، وواديها يشقها نصفين (١هـ).

(٢) مدينة مازونة

وهي تلي حصن فروخ في البر الى الشرق، على ستة أميال من البحر، قال الادريسي فيها : وهي مدينة بين جبال وهي أسفل خندق، ولها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة، ومساكن مؤنقة، ولسوقها يوم معلوم يجتمع اليه أصناف من البربر، بضروب من الفواكه، والألبان والسمن والعسل كثير بها، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا (١هـ).

(٣) قلعة هوارة

وقد ذكرها صاحب الاستبصار على أثر (تيهرت) عند ذكره مدن المغرب الاوسط فقال : هي قلعة منيعة في جبل خصيب، فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب، وتحتها فحص طوله نحو أربعين ميلا، يخترقه نهر سيرات،

ويسقي أكثر أرضه، يسمى ذلك الفحص سيرات باسم النهر، ونهر سيرات نهر كبير مشهور، يصب في البحر عند مدينة (أزواوا)، وهي مدينة قديمة رومية، وفحص سيرات يسكنه قبائل كثيرة من البربر مطغرة، وغيرهم من قبـائل زناتة، وزناتة تشعبت على قبائل كثيرة، وبلادهم واسعة، الى أن قال : وللمغرب الاوسط مدن كثيرة، فقد ذكرنا أكثرها في البلاد الساحلية، وهي كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم(١هـ) ، والمذكور في النخبة أنها تسمى بالبربرية، (تاشقدالت)، وأنها على جبل فيه معدن الحديد والزئبق .

(٤) مدينـــة مليانـــة

ولها على (تيهرت) ثلاث مراحل، وعلى الخضراء مرحلة واحدة، وقد ذكـرها الادريسي بقوله : وهي مدينة قديمة البناء، حسنة البقعة كريمة المزارع، ولها نهر يسقي اكثر مزارعها وحدائقها وجناتها، ولها ارحاء على نهرها المذكور (تدور بقوة الماء)، ولاقليمها حظ من سقي نهر شلف، وعلى ثلاث مراحل منها وفي جنوبها الجبل المسمى بجبل (وانشريش)، يسكنه قبائل من البربر (اباضية وغيرهم) منها مكناسة، وأوربة، وبنو أبي خليل، وكتامة، ومطاطة، وبنو مليلة، وبنو ورتجان، وبنو أبي خليفة، ويصلاتن، وزولات، وزواوة، ونزار، ومطغرة، ووارترين، وبنو أبي بلال، وايز كرو، وبنو أبي حكيم، وهوارة، وطول هذا الجبل اربعة ايام، وينتهي طرفه الى قرب تاهرت(١هـ) ، (باختصار) .

وقال صاحب كتاب الاستبصار : مدينة مليانة قريبة من مدينة اشير، وهي مدينة كبيرة من بنيان الروم جددها (بعد بني رستم) زيري بن مناد

أيضا : وفيها آثار قديمة، وهي مدينة حصينة في سفح جبل يسمى زكار، وشعار هذا الجبل كله ريحان وتنبعث منه عين خرارة عظيمة تطحن عليها الأرحية لقوتها، ولمدينة مليانة مياه سائحة، وبساتين فيها جميع الفواكه، وهي من أخصب بلاد أفريقية، وأرخصها أسعارا، ومدينة مليانة مشرفة على فحوص واسعة وقرى كبيرة عامرة ومزارع واسعة وحولها قبائل كثيرة من البربر، ويشق تلك الفحوص نهر شلف، هو نهر كبير مشهور، وعلى نهر شلف مدينة أزلية فيها آثار أولية تسمى شلف، واليها ينسب النهر الكبير، وهي اليوم خراب، والله أعلم لقد ذكرها الحموي أيضا بمثل هذا .

(حالتهـــا الحـــاضرة)

وهي الآن ذات حضـارة ومـدنية من الأهمية بمكـان، وفيها من تجار الأباضية بنو ميزاب رجال افاضل .

(٥) مدينـــة تاجَنّـــة

وقد ذكرها صاحب المعجم بقوله : بفتح الجيم وتشديد النون مدينة صغيرة بافريقية بينها وبين تنس مرحلة وبين سوق ابراهيم مرحلة (١هـ) .

(٦) مدينـــة أشـــير

قال صاحب الاستبصـــار : بنـــاهـــا (أي جدهـــا) زيري بن منـاد الصهناجي وتعرف بأشير زيري وكانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة، وانما بنى زيري سورها وحصنها، وعمرها فليس في تلك الأقطار أحسن منها، وهي بين جبال شامخة محيطة بها، وداخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور، ولا يدرك لهما قعر، من بناء الأوائل، وبالقرب من المدينة بنيان عظيم عجيب،

يعرف بمحراب سليمان، لم ير بنيان اعظم منه ولا احكم، فيه من الرخام والاعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف، والله اعلم .

أقول : وكان تجديدها المذكور بعد انقضاء دولة بني رستم، وذلك لما ادعى زيري الامارة سنة ٣٢٤هـ، وهو جد المعز بن باديس وتملكها بعده بنو حماد، وهم بنو عم باديس، وقاوموا بني عمهم ملوك افريقية المعروفين بآل باديس، كما ذكر في المعجم، والله اعلم .

(٧) المعسكر

وتعرف اليوم بأم عسكر، وبينها وبين تاهرت مرحلة قال الادريسي فيها هكذا .

والمعسكر قرية عظيمة لها انهار وثمار، ومنها الى جبل فرحان مارا مع اسفله، إلى قرية عين الصفصاف، وبها فواكه كثيرة وزروع ونعم دارة مرحلة ومنها إلى مدينة يلل مرحلة .

(حالتها الحاضرة)

أقول : وهي الآن (سنة ١٣٢٥هـ) من اشهر مدن الجزائر، ذات سور محكم جديد، وأسواق حافلة واشجار متنوعة، بلغت في المدنية الحديثة ما تضاهي به المدن الشهيرة، وبها من تجار الاباضية، بنو ميزاب جماعة لهم الاسم المحترم في دوائر التجارة، وبها في الغالب مقام قاضي محكمتهم الشرعية الحاكمة على قسم وهران من تلك الجهات، وقد زرتها سنة (١٣١٦هـ) في أول شهر رجب عند رجوعي من عند استاذي النحرير، قطب الأئمة علم الاعلام شيخ الاسلام والمسلمين، أمحمد بن يوسف الميزابي، ومعي جماعة من ادباء وأفاضل بني ميزاب، وفي يوم الاثنين الموافق

٦ من الشهر زرنا محل سرادق الامام يوسف بن محمد بن افلح الذي كان يضرب له عند استعراضه العساكر، وجمعه الجيوش، ولذلك سميت هذه المدينة بهذا الاسم فيما يقال، وهو موضع فيه بعض ارتفاع على ما يليه في مستوي من الأرض، بعيد عن المدينة بمقدار ٢ كيلومتر، وقد نبتت فيه سدرة يعقد امامها جماعة بني ميزاب عشية كل خميس غالبا مجلس قرآن، ويوزعون الصدقات على فقراء المدينة، الذين يأتون اليهم هنالك لشهرة ذلك عندهم .

وأعراب تلك الجهة، يعتقدون فيه البركة رغما عن علمهم، بأنه للاباضية ويشهدون له بكرامات متعددة .

منها انهم استسقوا مرارا لقحط أصابهم، فلم يسقوا، ولما استسقى فيه بنو ميزاب على الطريق المسنون، لم يصلوا باب المدينة حتى ابتدأ الغيث وكان سيل عظيم .

ومنها : ان اعرابيا رأى والدته في المنام، وقالت له لم يبق لكم مكان لاجابة الدعاء الا مقام الامام يوسف .

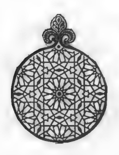
ومنها : ان صبيا هجر رضاع أمه، حتى توقعت هلاكه، ولما ذهبت به الى هذا المقام، وسألت الله شفاءه من تلك العلة، رضع في الحال هكذا سمعت من بعضهم، والله اعلم بالحقائق .

وقد رأيت في سور المدينة قبة صغيرة، فعجبت من ترك الحكومة اياها، ولما سألت عنها قيل لي : ان فيها ضريحا يقال : انه لولي من قدماء الاباضية، ولما عزمت الحكومة الفرنساوية على هدمه عند تأسيسها للسور، رأت من كراماته ما صدها عن ذلك، فجددت القبة ورفعت السور عليها،

ولذلك كان بعضها داخل السور وبعضها خارجه كما هو مشاهد، والعهدة على المخبر في ذلك، وما كتبت الا ما سمعته ولا غرابة فيه، والله اعلم وأحكم

هذا ما تكلم عليه المؤرخون من المدن الداخلة في دائرة (تيهرت) ايام بني رستم، ولم نقف على ذكر لغيرها إلا أن الادريسي ذكر في نزهته بعض مدن ومراسٍ متعددة فيما بين (وهران) وبين (تنس) ولعدم الاطلاع على تواريخ تأسيسها تركت ذكرها اذ ربما تكون حديثة الوجود .

ومن تتبع التواريخ، رآهم يجعلون (تاهرت) مركزا وسطا لتقدير مسافات البلاد، وبيان طرق المدن في المغرب كله، فيقولون في المدينة او البلد، ولو كانت بعيدة، بينها وبين تيهرت كذا وكذا مرحلة او ميلا مثلا، وكأنها لشهرتها كانت معلومة لكل أحد، والله اعلم



الباب السادس

(العلماء المنسوبون إلى تيهرت)

ينسب اليها من العلماء والأدباء والشعراء والعباد ، من الاباضية وغير الاباضية الذين اخذوا العلم بها ، أو نزلوها ايام بني رستم أو بعدها ما نحتاج في حصره الى تطويل .

الفصل الاول

(علـمـاء الابــاضيــة)

اما الاباضية منهم، فيعدون بالألف، ومن أراد معرفتهم، فعليه بتاريخ الشماخي، رحمه الله إذ هو حظيرة الأولياء، وروضة العلماء، وان لم يحصرهم هو أيضا إلا أنه أتى بأغلب مشاهيرهم وان لم ينبه على ذلك ولم يخصص له بابا، ونخص منهم بالذكر هاهنا ذلك الشيخ الجليل العلامة النبيل أبا يوسف يعقوب ابن سيلوس الطرفي السدراتي ـ رحمه الله ـ الذي قال فيه العلامة ابو العباس كما في السير: العالم الفقية، الفطن النبية، اليقظان الذكي، الورع الزكي، ذو الجهادين الاكبر والاصغر، والاجتهادين المصلى والدفتر، كانت قراءته على الائمة بتاهرت قال له ابنه: أوصني، فقال له: ما أراك تقبــل فتردد عليه ثلاثــة ايام، ولمــا رأى جده قال له (ونعمت الوصية): لا يكن ندبك الناس الى الخير أوكد من ندبك نفسك، ولا يكن غيرك أسبق الى الخير منك وكن للنـاس كالميزان، وكـالسيل للادران، وكالسماء للماء.

وكان رحمه الله ذا رأي صائب ونصيحة مخلصة مشهورا بالمعروف موسوما بالسخـاء، يقصده المحتـاجـون، فيسدد أحوالهم، ويستشيره الحائرون فيحسن دلالتهم، وقـد ذكـر الشماخي رحمه الله ان رجلا من أهل دمر، قصده في مجاعة يطلب منه الاعانة، ولما رأى أن الكثير ربما يجحف به حيث كان القحط عامـا، والقليل لا يجديه نفعا، أمره أن يذهب الى السوق، ويستفهم عن أرخص شيء فيه، ويرجع إليه، فذهب وسأل، ولما عاد قال له: لم أجد أرخص من الابل، فأقرضه اربعة وعشرين دينارا، فاشترى بها

ثلاثة جمال، وأحسن مرعاها الى أن تحسنت حالتها، فباع جملا منها بأمر الشيخ بأربعة وعشرين دينارا دفعها للشيخ، وباع آخر واشترى بثمنه ما لزمه من الطعام وغيره، وحمله على الثالث ورجع الى أهله على أحسن حال باحسان الشيخ وتدبيره، وقد ولي القضاء بمدينة وارجلان، فعدل في الحكم، وأنصف في الفصل، وله مصلى معروف باجابة الدعاء يزار ـ رحمه الله ورضى عنه ـ.

ومنهم : التقي الورع العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الشيخ قاضي الامام ابي اليقظان .

ومنهم : ابنه العلامة ابو محمد عبد الله قاضي الامام ابي حاتم وسيأتي ذكرهما .

ومنهم : الخطباء الخمسة المشهورون الآتي ذكرهم في كلام ابن الصغير .

ومنهم : الزاهد المتعفف الشيخ أبو سهل صاحب التآليف الكثيرة باللغة البربرية، فانه كان افصح أهل زمانه فيها، وكان ترجمانا للامام أفلح، ثم للامام يوسف، ومنزله قيل بمرسى الخرز، وقيل بمرسى الدجاج بجزائر بني مزغني قال في السير : قال ابو العباس : الغالب من أحواله اهمال الدمع، والتلهف على فائت ليس له رجوع، فجل هجيره في مراثي الدين وأهله، والبكاء عليه بوابل الدمع وطله، فدونت الدواوين من كلامه، فكانت اثني عشر كتابا وعظا وتذكيرا وتخويفا وتاريخا لأهل الدعوة، احترقت كلها لما اخذت قلعة بني درجين، ففقدت كما وقع لكتب أهل المذهب كلها والأمر لله .

ومنهم : العلامة الشهير بالعدل الشيخ ابو عثمان سعد بن ابي يونس عامل الامام أفلح على قنطرار .

ومنهم : رفيقه في طلب العلم عن الامام بتيهرت، ذلك الفهامة الذكي الذي كان يضرب بحفظه المثل، نفاث بن نصر الذي ضل في بداية أمره عن الحق، ومال وتاب في آخر عمره على ما يقال، وستأتي أخباره مع الامام إن شاء الله .

ومن شعرائها النبغاء صاحب القصيدة الآتية القائل فيها :

سقى الله تيهرت المنى وسويقة بساكنها غيثا يطيب به المحل

ومنهم : الولي الصالح الزاهد معدن العلم والعمل، أبو مرداس التبرستي حامل المذهب عن الامام عبد الوهاب رحمهما الله صاحب المناقب والكرامات المشهورة في الكتب .

ومنهم : العلامة المشهور بالزهد والورع، عيسى بن فرناس الذي ذكر ابن الصغير، أنه كان يجلس أمام الامام أبي اليقظان .

ومنهم العلامة محمود بن بكر، وهو من خواص الامام أبي اليقظان أيضا، وسيأتي كلام ابن الصغير فيه .

ومنهم : المتكلم العظيم الشيخ عبد الله بن اللمطي، الذي ذكره ابن الصغير وأثنى عليه وقال الشماخي عند ذكرهما، وكان الشيخان (عبد الله بن اللمطي ومحمود بن بكر) غاية في علم الكلام، وكانا يردان على الفرق وينقضان مقالات المبتدعة وألفا كتبا في ذلك (١هـ) .

ومنهم : العلامة أبو عبيدة الأعرج قال فيه الشماخي رحمه الله : وكان غاية في العلم والعمل والورع والأدب، وقال فيه ابن الصغير المالكي :

كلهم مقرون له بالفضل، مسلمون له في الورع، اذا اختلفوا في أمر من الفقه أو من الكلام، صدروا عن رأيه، وقد رأيت أنا هذا الرجل، وجلست اليه فما رأيت في أسود الرأس أخشع منه(١هـ)، ولي معه حكاية طويلة ستأتي .

ومنهم : الفقيه الكامل ابن العفير، والفقيه البارع عبد العزيز بن الأوز الآتي ذكرهما في كلام ابن الصغير

الفصل الثاني
« المشكوك في نسبتهم »

وأما الذين لم نتحقق مذهبهم، فمنهم ذلك العلامة الأديب صاحب النظم العجيب والانشاء الغريب المشهور في الشرق والغرب بين أرباب العلم والأدب (وهو اما أباضي أو صفري على الغالب) بكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي المتقدم الذكر القائل في حق (تيهرت) :

ما أخشن البرد وريعانه وأطرف الشمس (بتاهرت)

وهو القائل مادحا أبا العيش عيسى بن ادريس العلوي حاكم مدينة جراوة المجاوره لتاهرت على ثلاث مراحل منها :

سائل زواغة عن طعان سيوفه ورماحه في العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها والخيل تمرغ في الوشيج الذبل
غشى مغيلة بالسيوف مذلة وسقى جراوة من نقيع الحنظل

قال ذلك المراكشي في تاريخه وذكر أنه ولد ونشأ (بتيهرت)، ورحل الى الشرق سنة ٢١٧هـ، وهو حدث السن (أي في دولة الامام أفلح ، ولعله ذهب هاربا على ما يؤخذ من أبياته التي قالها يستعطف بها الامام أبا حاتم كما سيأتي)

فسمع بالمشرق من العلماء والفقهاء، وكان عالما بالحديث وتمييز الرجال، وشاعرا مفلقا، ومدح المعتصم ووصله بصلات جزيلة، واجتمع بحبيب وصريع ودعبل وعلي بن الجهم وغيرهم من شعراء العراق، وله أبيات الى المعتصم يحرضه فيها على دعبل وهي :

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الارض العريضة دعبل
أما والذي أرسى ثبيرا مكانه لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله يهم فيعفو أو يقول فيفعل

فعاتبه حبيب فيه وقال له : قتلته والله يا بكر، فقال في قصيدته هذه :

وعاتبني فيه حبيب وقال لي لسانك محذور وسمّك يقتل
واني وان صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

ولما عاد من المشرق، قصد القيروان فوشى به الى صاحبها فهرب وكان معه ابنه عبد الرحمن، فاعترضهما في الطريق بعض اللصوص، فجرحوا بكرا وقتلوا ابنه، وذهب هو في طريقه الى ان وصل (تيهرت) كئيبا حزينا ينـدب ابنه عبد الرحمن هذا، وكانت له فيه مراثٍ كثيرة تسيل الدموع، وتجرح الفؤاد لما بها من الألفاظ المؤثرة الدالة على عظيم أسفه وتلهفه عليه ومنها قوله :

بكيت على الأحبة اذ تولوا ولو أني هلكت بكوا عليّا
فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الأكباد كيا
كفى حزنا بأني منك خلو وأنك ميت وبقيت حيا
ولم أك آيسا فيئست لما رميت الترب فوقك من يديا
فليت الخلق اذ خلقوا أطاعوا وليتك لم تكن يا بكر شيا
تسر بأشهر تمضي سراعا وتطوي في لياليهن طيا
فلا تفرح بدنيا ليس تبقى ولا تأسف عليها يا بنيا
فقد قطع البقاء غروب شمس ومطلعها علي يا أخيا

وليس الهم يجلوه نهار تدور له الفراقد والثريا

وله في الزهد والمواعظ وذكر الموت وأهواله شعر كثير، وهو في قوة التأثير والقبول بمكان، ومن ذلك ما رواه عنه ابن اللباد وهو قوله :

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي من جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال يسوقها
الى مشهد لابد لي من شهوده ومن جرع للموت سوف اذوقها
ستأكلها الديدان في باطن الثرى ويذهب عنها طيبها وخلوقها
مواطن للقصاص فيها مظالم تؤدي الى أهل الحقوق حقوقها
سحاب المنايا كل يوم مظلة فقد هطلت حولي ولاح بروقها
وللنفس حاجات تروح وتغتدي ولكن أحاديث الزمان يعوقها
تجهمت خمسا بعد سبعين حجة ودام غروب الشمس لي وشروقها
وأيدي المنايا كل يوم وليلة اذا فتقت لا يستطاع رتوقها
يصبح أقواما على حين غفلة ويأتيك في حين البيات طروقها

ومن كلامه في الاعتبار بالنظر الى القبور، والتفكر فيمن مضى ممن أنشبت فيهم المنية أظفارها، ما حكاه ابو بكر اللباد حيث قال : دخلت على بكر بن حماد فقال : اكتب فأملى عليّ لنفسه قوله :

زرنا منازل قوم لن يزورونا انا لفي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم حل الرحيل فما يرجو المقيمونا
الموت أجحف بالدنيا فخربها وفعلنا فعل قوم لا يموتونا
فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا بجمعها لو كان جمع فيها كنز قارونا

اقول ولعله قال هذا لما حل (بتيهرت) بلده ما حل من قضاء الله كما يفهم من بعض كلامه عند التأمل ومن كلامه ايضا قوله :

لقد جفت الاقلام بالخلق كلهم فمنـهم شقي خـائب وسعيد
تمـر الليالي بالنفـوس سريعة ويبـدأ ربـي خلقـه ويعيـد
أرى الخيـر فـي الدنيا يقل بكثرة وينقـص نقصـا والحديث يزيد
فلـو كـان خيـرا قل كالخير كله وأحسـب ان الخيـر مـنه بعيد

وقال ايضا مذكرا ولقد أحسن وأصاب :

قف بالقبور فناد الهامدين بها من أعظم بليت منها وأجساد
قـوم تقطـعت الأسباب بينـهم من الوصال وصاروا تحت اطواد
راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا فـلن يروحوا ولن يعدو لهم عاد
والله والله لو ردوا ولو نطقـوا اذاً لقالوا التقى من أفضل الزاد
فبـرز القوم وامتدت عسـاكرهم كيمـا يوافـوا لميقـات وميعاد
مـا بالقلوب حياة عنـد غفلتها والله سـبحانه منهـا بمرصـاد
بيـنا نرى المـرء في لهو وفي لعب حتى نـراه عـلى نعش وأعـواد
هـذي أبا مالك دنيا منغصـة فيها حـرارات احشـاء وأكباد
وكلنـا واقـف منهـا على شفر وكلنا ظاعن يحدي به الحادي
في كل يوم نرى نعشا نشيعه فـرائح فـارق الاحباب أو غـاد
الموت يهدم ما نبنيه من بذخ فما انتظارك يا بكر بن حماد

ذكر هذا صاحب كتاب رياض النفوس، وكان نقله من نسخة عتيقة جدا لا نقط فيها على الاصطلاح القديم مع رداءة الخط فلا يفهم الا بالقوة والله أعلم

وقال في احمد بن القاسم بن ادريس حاكم مدينة (كرت) بالمغرب

ان السماحة والمروءة والندى
جمعوا لأحمد من بني القاسم
واذا تفاخرت القبائل وانتمت
فافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلا
وعليّ العضب الحسام الصارم
اني لمشتاق اليك وانما
يسمو العقاب اذا سما بقوادم
فابعث اليَّ بمركب أسمو به
عليّ أكون عليك اول قادم
واعلم بأنك لن تنال محبة
الا ببعض ملابس ودراهم

فبعث اليه بغلة سنية وصلة جزيلة، وكان له فيه من مثل هذا كثير على ما قاله صاحب البيان .

وقد ذكره العلامة محقق المعقول والمنقول ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني رحمه الله في سلسلة حديث ساقه في كتابه (الدليل والبرهان) حيث قال : وروى عبد الوارث بن سفيان ويعيش بن سعيد قالا : اخبرنا قاسم بن أصغر قال أخبرنا بكر بن حماد الخ . . ولم يتعرض لمذهبه

وذكر المراكشي : ان وفاته كانت سنة ٢٩٦هـ بقلعة ابن حمة بجوفي مدينة تيهرت وهو ابن ست وتسعين سنة والله اعلم .

الفصل الثالث

(علمـــاء غيـــر الابـــاضية)

واما علماء غير الاباضية، فينسب منهم الى تاهرت جماعة نذكر هنا بعض المشهورين منهم نقلا عن مؤرخي أفاضل المالكية فنقول :

منهم : العلامة زكرياء بن بكر بن احمد الغسالي التاهرتي قال المؤرخ الفرضي في تاريخ علماء الاندلس عند ذكر الغرباء لما تكلم عليه، يعرف بابن الأشج والأشج هو أحمد (والده) ويكنى ابا جعفر من أهل تيهرت، يكني ابا يحيى دخل الاندلس مع ابيه واخيه سنة ٣٢٦هـ الى أن قال : قال لي ولـدت بتيهـرت سنـة ٣١٠ (١هـ) وذكـر أنـه توفي في رمضـان سنـة ٣٩٣(١هـ)، وذكره صاحب (بغية الملتمس) وخالفه في تاريخ وفاته مخالفة فاحشة، ان لم يكن تحريف في احدى النسختين، قال في صحيفة ٢٧٩ زكرياء بن بكر بن الاشج التاهرتي توفي بقرطبة سنة ٥٢٤هـ والنسختان من مطبوعات الافرنج، فتأمل وبمثل هذا يتأكد على طالب الحق ان لا يعول على أقوال المؤرخين فيما يحتاج الى النظر والتدقيق الا بعد إمعان الفكر .

ومنهم : العلامة عبد الله بن حمود بن هلوب بن داوود بن سليمان ذكره المؤرخ ابن بشكوال في الصلة فقال في صحيفة ٢٩٣ يكنى أبا محمد طنجي فقيه موضعه وأصله من تاهرت (١هـ).

ومنهم : الأديب ابن هرمة، وقد جاء قاصدا الأندلس، فسمع بيت شعر لأحد علمائها، فترك العبور اليها وبقي بتاهرت، كما قاله (صاحب البغية) .

ومنهم : ابـو الطيب محمد بن احمد بن ابراهيم بن ابي بردة الشافعيّ

البغدادي، قال العلامة الفرضي : ووصل ابو الطيب الى الاندلس سنة (٣٦١هـ) فأكرمه أمير المؤمنين المنتصر بالله وأمر باجراء النزل له، الى ان قال : وكان ينسب الى (مذهب) الاعتزال، ورفع ذلك الى السلطان، فأمر باخراجه من البلد، وكان في رجب سنة (٣٧٣هـ) فصار بتيهرت عند بنت له (اهـ).

ومنهم : العلامة محمد بن عيسى بن حنين التميمي القاضي، نزيل سبتة ذكر العلامة ابن الأبار في معجمه بصحيفة ٩٦ انه انتقل مع ابيه من فاس الى سبتة، وأصله من (تاهرت) ويعرف بابن الدقاق .

ومنهم : العلامة عبد الله بن محمد بن عيسى بن حسين التميمي التاهرتي نزيل سبتة، ذكره ابن الأبار في الصلة منسوبا الى (تاهرت) بصحيفة ٥٢٦ .

ومنهم : العلامة الحسن بن علي بن طريف أبو علي النحوي، نزيل سبتة قال ابن الأبار في المعجم بصحيفة ٧٢ يعرف بالتاهرتي، روى عنه القاضي عياض

ومنهم : العلامة قاسم بن عبد الرحمن تلميذ ابن حماد نسبه المؤرخ الضبي الى (تيهرت) وقال في صحيفة (١٨٨) من البغية : دخل الاندلس وكان من جلساء بكر بن حماد التاهرتي، وممن اخذ عنه قال ابو محمد بن حزم (اهـ) وذكر ابن بشكوال في الصلة انه من اهل الحديث .

ومنهم : ابنه العلامة ابو الفضل قال ابن بشكوال في الصلة، ومن الغرباء احمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي البزاز، يكنى أبا الفضل، الى أن قال : مولده يوم الثلاثاء عند

انصداع الفجر في أول ربيع الاول سنة (٣٠٩هـ) وولد (بتاهرت)، الى أن قال وكان ابوه محدثا، قال أبو الفضل بدأت بطلب العلم سنة (٣٣٤هـ)، وانا ابن (٢٥) سنة ودخلت الاندلس سنة (٣١٧هـ)، وانا ابن ثمانية أعوام، وتوفي في جمادى الآخرة سنة (٣٩٥) (١هـ) وذكره الضبي في البغية أيضا، وقال : توفي سنة (٣٩٦هـ) فزاد سنة على ابن بشكوال، وأثنى عليه وقال : وقد روى عنه ابو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن ابي حاج فقيه القيروان ، وهو روى عن منذر بن سعيد القاضي

ومنهم : ابن الخزاز وقد سافر الى البصرة المدينة المشهورة بالمغرب، وهي من فاس على اربع مراحل، فأعجب بجمال نسائها كما ذكره الحموي، نقلا من كتاب المسالك، حيث قال ونساء البصرة مخصوصات بالجمال الفائق، والحسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن قال احمد بن فتح المعروف بابن الخزاز التيهرتي يمدح أبا العيش عيسى بن ابراهيم بن القاسم .

قبح الاله الدهر الا قينة	بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في	وجناتها والكشح غير نغاض
في شكل مرجي ونسك مهاجر	وعفاف سني وسمت إباض
(تيهرت) أنت خلية وبرقة	عوضت عنك ببصرة فاعتاض
لا عذر للحمراء في كلفي بها	أو تستفيض بأبحر وحياض

وساق المراكشي الحكاية بعينها إلا انه أتى بدلا من صدر البيت الاول بقوله :

ما حاز كل الحسن الا قينة

وأتى بدلا من عجز البيت الثاني بقوله :

وجـنــاتهــا هيــفــاء غير مخاض

وهما أرق وألطف من الاولين فيها يظهر .

ومنهم : سعد بن أشكل التيهرتي القائل فيها تقدم بتشوق الى مدينة (تيهرت) مسقط رأسه ويهجو مدينة تنس دار وفاته

وأصبحت عن (تيهــرت) في دار غربــة

وأســلمــني مر الـقـضــاء من الـقــدر

الى آخر الابيات .

ومنهم : العـلامة السلفي قال الحموي : والولجة ناحية بالمغرب من اعمال (تاهرت) نسب اليها السلفي أبو محمد عبد الله بن منصور التاهرتي قال : وكـان من الفضـلاء في الأدب والفقـه، وله شعر وكتب عني من الحديث كثيرا (اهـ) .

الباب السابع

(مدينة سجلماسة)

ولما انتهى الكلام بقدر الامكان على (تيهرت) وما نسب اليها من البلاد وما دخل في دائرتها ابان عمرانها بالاباضية تحت سيادة بني رستم لزم أن تأتي استطرادا بطرف .

الفصل الاول :

المؤرخون يصفون سجلماسة

مما وصف به المؤرخون مدينة سجلماسة قاعدة ملك بني مدرار التي كان بعض ملوكها اباضية كما سيأتي، وكانت عامرة بالاباضية حافلة بعلمائهم الأدباء ورجال العلم من أطراف البلاد، للافادة والاستفادة كما يؤمون تيهرت، وقد تكلم عليها المؤرخون .

(١) الحموي

قال المؤرخ الحموي (سجلماسة) بكسر أوله وثانيه وسكون اللام وبعد الألف سين مهملة، مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة ايام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل درن، وهي في وسط رمال كرمال زرود، ويتصل بها من شمالها جدد من الأرض يمر بها نهر كبير يخاض، قد غرسوا عليه بساتين ونخيلا مد البصر، على أربعة فراسخ، منها رستاق يقال له تيومتين، على نهرها الجاري، فيه من الأعناب الشديدة الحلاوة ما لا يحد، وفيه ستة عشر صنفا من الثمر، ما بين عجوة ودقل، وأكثر أقوات أهل سجلماسة من الثمر، وعلتهم قليلة ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأُزُر، تفوق

القصب الذي بمصر، يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا واكثره، كأرفع ما يكون القصب الذي بمصر .

ويعمل منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونه بأنواع الاصباغ، وبـين سجلماسة ودرعة أربعة أيام، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس، واكثرهم مالا، لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها .

(٢) الادريسي

وقال الادريسي في النزهة : وأما (مدينة سجلماسة) فمدينة كبيرة كثيرة العمران ، وهي مقصد للوارد والصادر، وكثيرة الشجر والجنات، رائقة البقاع والجهات، ولا حصن عليها وانما هي قصور وديار، وعمارات متصلة على نهر لها كثير الماء، يأتي اليها من جهة المشرق من الصحراء يزيد في الصيف، كزيادة النيل سواء ويزرع بمائـه حسبما يزرع فلاحـو مصر، ولـزراعتـه اصابة كثيرة معلومة، وفي بعض الاعوام الكثيرة المياه المتواترة بخروج هذا النهر، ينبت لهم ما حصدوه في العام السابق، من بذر وفي الاكثـر من السنـين، اذا فاض النهر عندهم، ثم رجع بذروا على تلك الارضـين زرعهم، ثم حصـدوه عنـد تنـاهيه، وتركوا جذوره الى العام القادم، فينبتَ ذلك من غير حاجة الى بذر زراعة .

(٣) الحـوقلي

(وحكى) الحوقلي أن البذر بها يكون عاما والحصاد كل سنة الى تمام سبع سنين، لكن تلك الحنطة التي تنبت من غير بذر تتغير عن حالها، حتى تكون بين الحنطة والشعير، وتسمى هذه الحنطة (يردن تيزواو)، وبها نخل

كثير وأنواع من الثمر لا يشبه بعضها بعضا، وفيها الرطب المسمى بالبرني، وهي خضراء جدا، وحلاوتها تفوق كل حلاوة، ونواها صغار في غاية الصغر، ولأهل هذه المدينة غلات القطن وغلات الكمون، والكروياء والحناء، تجهز منها الى سائر بلاد المغرب وغيرها .

وبناءاتها حسنة، غير أن المخالفين في زماننا هذا أتوا على أكثرها هدما وحرقا انتهى .

(٤) المقـــدسي

وقال العلامة المقدسي (سجلماسة) قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها، وهي طولانية نحو القبلة، عليها سور من طين، وسطها حصن يسمى المعسكر، فيه الجامع ودار الامارة شديدة الحر والبرد، صحيحة الهواء كثيرة الثمار والاعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان، والخيرات، كثيرة الغرباء، موافقة لهم يقصدونها من كل بلد، ومع ذلك ثغر فاضل، برستاقها معادن الذهب والفضة، وهم أهل سنة وقوم جياد بها علماء وعقلاء لها باب القبلي، باب الغربي، باب غدير الجزارين، باب وقف زناتة وغيرها وهي في رمال (١هـ).

(٥) صاحب المسالك

وقال صاحب المسالك ان سجلماسة مدينة عظيمة في جنوبي مدن بر العدوة متصلة بالصحراء الكبيرة من اكبر مدن المغرب، واشهرها ذكرا في الآفاق، وعليها نهر كبير، ذات قصور مشيدة وأبنية عالية وأبواب رفيعة، صحيحة الهواء لمجاورة البيداء، الى أن قال: وبها نخل كثير ثمره على اصناف يحمل منه الى عامة الغرب، ويفضل ثمره ما سواه حتى يضاهى به



الباب الثامن

(درعـــــة)

الفصـل الاول

المؤرخون يتكلمون عن درعـة

وقد تكلم عليها المؤرخون :

(١) الادريسي

فقال الادريسي، في درعة (ودرعة) ليست بمدينة، يحوطها سور، ولا حفير، وانما هي قرى متصلة وعمارات متقاربة ومزارع كثيرة، يتناول ذلك فيها جمل، واخلاط من البربر، وهي على سجلماسة النازل اليها، وعليه فيهـا جمل ، واخـلاط من الـبر بر ، وهي على نهر سجلماسة النازل اليها ، وعليه يزرعون غلات الحناء ، والكمون والكروياء والنيلج ونبات الحناء ، يكـبر بها حتى يكـون في قوام الشجـر يصعـدون اليـه ، ومنهـا يؤخذ بذره ويتجهز به الى كل الجهات ، ونبات الحناء لايوجد بذره الا في هذا الاقليم فقـط ، ولايـوجد بغيره من الاقاليم البتة ، وأما النيلج في درعه فليس طيبه هناك ، ولكنه يتصرف به في بلاد الغرب لرخصه ، وربما خلط مع غيره من النيلج الطيب ويباع معه (١هـ).

ثمـر العـراق، وثمـرهـا يضرب به في المغرب المثل، ولها بساتين خضرة نضرة(١هـ)، وكان لها أعمال واسعة، ومدن كبيرة مشهورة، ذكر العلامة البشاري منها في الحجاب هذه درعة، تاد نفوست، اترايلا، ويلميس، حصن ابن صالـح ، النحاسين، حصن السودان، هلال، إمصلي، دار الامير، حصن برارة، الخيامات، تازروت (١هـ) .

(٢) البنـــــا

وقال العلامة البنا : درعة لها رستاق واسع ومنابر على نهر جرار نحو ٦ ايام و(عريش) رستاق فيه منابر، وسائر المدن محيطة بها في الرمال عامرات ومعادن الفضة بتازروت، ومعدن الذهب بين هذه الكورة وبلد السودان وليس في العالم اصفى ولا أوسع منه(١هـ)، وهكذا تكلموا على غيرها من المدن، والله أعلم .

الفصـل الثاني

علماؤها الافاضـــــل

وقـد تلقى العلوم بسجلماسة رجال صاروا للدين حياة، وللامة هداة فسارت بذكرهم الركبان، وافتخر بوجودهم الزمان، ولو لم يكن منهم الا ذلك الطود الفاخر، والبحر الزاخر، لسان الحكم، ونبراس الظلم، الشيخ العلامة ابو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي لأغناها فخرا، كما خلد لها ذكرا فقد رحل إليها مع العلامة النحرير استاذه ابن الجمع من علماء اباضية الشرق وتجارها العظام .

ارتحـل هذا الاستـاذ من المشرق إلى المغرب، وقصد سجلماسة (قال الشـماخي رحمه الله وكانوا (يعني أهلها) يومئذ من أهل الدعوة (١هـ) . فأقـام بها خير مرشد، وأفضل استاذ حتى ابتهجت به محافلها، وتنورت مجالسها وعمرت بالعلوم ربوعها، ثم سار إلى رحمة مولاه تاركا من تلامذته علماء راسخـين وأدباء مهذبين منهم : ذلك الذكي الماهر الأمير ابويزيد مخلد بن كيداد اليفرني، الذي طغى، وتجبر في آخر أمره حتى استوجب براءة المسلمـين منـه كما سنأتي بحكايته بعد هذا ان شاء الله، ذكر هذا صاحب السير ـ رحمه الله ـ نقلا من تاريخ أبي زكرياء رضي الله عنه وقال في

صحيفة ٢٧٩ فحضره (اي الاستاذ ابن الجمع) الموت هناك (اي في سجلماسة) وأوصى بكتبه لأبي الربيع فرجع إلى قصطالية (أي توزر ونفطة وما يليها من بلاد الجريد) واشتهر في العلوم واضطربت قصطالية كلها من اجله، واختلف أهل سجلماسة بعد أن خرج من عندهم في مسألة كادوا يقتتلون عليها، فاتفق رأيهم على ان يرسلوا امينين إلى أبي الربيع ليعملوا بما يجيبهم به، فأدركه الرسولان وأجابهم، فأخذوا بما قال واصطلحوا، وممن اخذ عنه التفسير والفقه واللغة والفنون كافة، غير علم الكلام ذانك الامامان النيران، فخر زمانهما وزهرة عصرهما، ابو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يغلي بن زلتاف رحمهما الله وسيأتي خبرهما، والله اعلم



الباب التاسع

(الامامـــة فى المغـــرب)

عـــود إلى المقصـــود بالـــذات

هذا ولنرجع إلى ما كنا بصدده من أمر الامامة بالمغرب، وظهورها فيه فنقول : (ثم اجتمع أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء، وقالوا : قد علم ما حل بنا من الشتات والافتراق بعد وفاة امامينا، ومبارحتنا طرابلس، وقد اجمعنا على انتخاب مكان غيرها يليق بمنصب الامامة، ويكون ملجأ للاسلام، واذ رزقنا ولله الحمد بهذا المكان، وتم تحصينه على حسب المرام، وجب نصب امام، اذ لا يستقيم أمرنا ولا ينتظم شأننا ولا تجتمع كلمتنا الا بامـام، نرجع اليه في أحكامنا ومشكلاتنا، وينصف مظلومنا من ظالمنا، ويقيم فينا ما اوجبه الله ورسوله من حدود الشرع الشريف، ويظهر الدين ويؤمن السبيل ويحقن الدماء، ويعضد قنطرة الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، ويعدل في الرعية ويوسع دوائر العلوم، فان ذلك كله مما لا يسعنا التفريط فيه والتواني، إذ كنا ولله الفضل في درجة القيام بالامامة، ولدينا من القوة عدد وعدة وعلماء ما هو كاف لحمايتها، والذود عن حوضها، مع الاعتصام بالله تعالى) .

فتبادلوا الرأي فيما بينهم بقلوب سليمة من داء الغش والنفاق، مطهرة من شوائب كدورات الشقاق، معطرة بذكي مسك الايمان، منورة بأنوار الهداية والتوفيق والاذعان، وذلك في القرن الثاني من الهجرة عام مائة وستين هجرية وقيل اثنين وستين ومائة هجرية .

الفصل الاول

(١) خلافة الامام عبد الرحمن رضي الله عنه

فاستقر رأيهم بعد طول مذاكرة، على نصب الامام الولي ناشر لواء العلم والدين، عبد الرحمن بن رستم رحمه الله لما رأوه فيه من حميد الخصال، ومجيد الاعمال، ولعزم المسلمين على تقديمه بطرابلس، لولا امتناعه، ولرضاء الامام ابي الخطاب رحمه الله عنه اذ ولاه قاضيا ثم عاملا كما مر وقد تكلم العلامة المؤرخ ابن الصغير المالكي المغربي في تاريخه على خلفاء بني رستم (بتيهرت) كلاما يروح الأنفس، ويشفي الغليل، نأتي ببعض ما وقفنا عليه منه، مع الأسف على ما فقد، ولم نعثر له على خبر كلما بحثنا عنه.

قال عند ذكره لهذا الامام الجليل ما نصه : (ثم نهضوا إليه بأجمعهم، وقالوا يا عبد الرحمن : رضيك الامام (ابو الخطاب) في ابتدائنا، ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا، فقد علمت انه لا يصلح امرنا إلا امام نلجأ إليه في أمورنا، ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا، فقال لهم :

ان أعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه، قبلت ذلك منكم، فاعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك، وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم، وقدموه على انفسهم، والقوا اليه بأيديهم (قال ابن خلدون في ١٢١ من ٦) وبايعوه بالخلافة فسار فيهم سيرة جميلة، حمدها أولهم وآخرهم، ولم ينقموا عليه في احكامه حكما، ولا في سيره سيرة، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان، وكانت له قصص حكوها عنه، لا يمكن ذكرها الا على وجهها، وأن أتحرى فيها الصدق ولا احرفها عن معناها، ولا ازيد فيها ولا انقص منها، اذ النقص في الخبر والزيادة فيه، ليس في شيم ذوى المروءات، ولا من اخلاق ذوى الديانات، وان كنا للقوم مبغضين، وليسرهم كارهين(اهـ) .

ثم شرع في بيان تلك القصص حسبما وعد الا أن في عباراته من التطويل وبعض التكرار، ماهو معروف من تآليف اغلب المتقدمين، فخذها مني أيها القاريء مقتبسة من كلامه، بعضا باللفظ وبعضا بالمعنى، مشيرا إلى ما كان بلفظه خالصا لأمر ما بكلمة (قال)، وإلى ما كان باللفظ تارة وبالمعنى أخرى، مع اضافة شيء نزر من كلام غيره، مما له المام بالمقام بلفظه، (ممزوج) تنشطيا للنفس بالتفنن في الاسلوب، وطلبا للاختصار بطرح المكرر، مع كمال التحري، والله على ما أقول وكيل .

قال : لما ولي عبد الرحمن بن رستم ما ولي من امور الناس، شمر مئزره واحسن سيرته، وجلس في مسجده للأرملة والضعيف، لا يخاف في الله لومة لائم، وطار صيته في أطراف الارض شرقا وغربا، حتى اتصل ذلك باخوانهم أهل البصرة وغيرها من بلاد الشرق، فتباشروا وقالوا : قد ظهر

بالمغرب امام ملأه عدلا، وسوف يملك الشرق ويملأه عدلا ايضا، فأنشطوا لامداده وجدوا لاعانته، ورب يوم يأتي يشملكم فيه عدله، ويعمكم حكمه، إن قدر الله بذلك واراد بكم خيرا .

الاعانة الاولى من اهل المشرق لامام المغرب امتحانا واستكشافا لأحواله

(ممزوج) وعند ذلك دبت فيهم الغيرة، وسرى فيهم روح النشاط، وتسابقوا الى البر، فجمعوا أموالا عظيمة، ووجهوها اليه مع نفر من ثقاتهم، وقالوا لهم : انهضوا بهذه الاموال، حتى تردوا عاصمة امامته، فاذا وجدتم الأمر كما نقل الينا من حسن السيرة واقامة العدل بالكتاب والسنة، واعلاء كلمة الدين فادفعوها اليه، ليستعين بها على ذلك، والا ففرقوها في فقراء المسلمين هناك، فسار القوم على بركة الله إلى أن بلغوا مدينة (تيهرت) ونزلوا بالمصلى الذي به قبر مصالة اليوم، فأناخوا جمالهم ووضعوا أحمالهم ودخلوا من باب الصفا يسألون عن دار الامام، إلى ان اهتدوا اليها وكانوا يظنون انها على شيء من العظمة كديار ملوك الشرق، ولما وصلوها وجدوها دار زاهد ورع، ووجدوا عند الباب غلاما يعجن طينا ويناوله لآخر هو الامام يصلح به بعض خلل فيه، فسلموا على الغلام وطلبوا منه ان يستأذن لهم على الامام، ويخبره بانهم رسل اخوانه المشارقة اليه، فرفع الغلام رأسه نحو السطح، وقد علم ان الامام سمع كلامهم، فأشار اليه أن يصبرهم قليلا، فصبرهم إلى أن نزل وغسل ما كان بيديه من الطين، وجدد

الوضوء، واذن لهم فدخلوا، فوجدوا رجلا جالسا على جلد فوق حصير، وما في البيت شيء سوى سدة ينام عليها وسيف ورمح، وما اشبه ذلك من السلاح الوقتي، وفرس، فسلموا عليه وبلغوه سلام اخوانه، فحياهم بأحسن تحية، وامر الغلام فأحضر مائدة عليها قرص سخنه وشيء من سمن وملح، فهشم القرص في السمن، وقال: على اسم الله ادنوا وكلوا، فتقدموا واكل معهم إكراما لهم، وهضما لنفسه ثم قال: ما وراءكم، وما الذي جاء بكم ايها الاخوان؟ فقالوا: دعنا نخلو ببعضنا ساعة ثم نكلمك، فأخلى لهم المكان، وقال بعضهم لبعض: يكفينا عن السؤال عنه ما رأيناه منه مشاهدة من اصلاحه لداره بنفسه، ومن طعامه ولباسه وحلية بيته، فما لنا الا أن نسلم له المال، ولا نستشير فيه احدا، ثم أقبلوا عليه وقالوا له: اعزك الله، بعثنا اليك اخوانك بثلاثة احمال من المال تتقوى بها على عملك، وتصلح بها بعض شأنك فتفضل علينا بقبولها، فقال: هذه الصلاة قد حضرت ونحن ذاهبون إلى المسجد الجامع، فنعلم المسلمين بما جئتم به، حتى نرى رأيهم فيه، فقالوا: الأمر في ذلك اليك، وخرجوا، ولما اتوا المسجد وأدوا الفريضة نادى منادي الامام قائلا: لتذهب العامة، وليتخلف من كل قبيلة وجوهها، فخرج عامة الناس وبقي الوجهاء، وأهل الشورى، وعقدوا مجلسا ثم قال للرسل: اخبروا اخوانكم بسبب مجيئكم، وبما اتيتم به، ولما اخبروهم استشارهم في امر المال فقالوا: الرأي رأيك والامر أمرك، ولكن هذا رزق ساقه الله الينا بطوع من اخواننا، وبدون سؤال منا، والمناسب إن وافقتنا ان تحضره بين يديك، وتجعل منه ثلثا في الكراع، وثلثا في السلاح، وثلثا في فقراء المسلمين

وضعفـائهم، فقـال للرسـل : قد سمعتم رأي اخوانكم، فما تقولون ؟ فقالوا : سمعنا وأطعنا وأحضروا المال في الحال، وما خرجوا من هناك حتى قسم على الوجه المذكور، وبعد ان اقامت الرسل ما اقامت، من المدة بين اكرام واحترام، توجهت حامدة تلك السيرة شاكرة، ذلك الصنيع، وبعد وصـولهم المشرق، اخـبروا اخـوانهم بما رأوه، مما أدهش عقـولهم، وحير أفكارهم من زهد الامام واستقامته وعدله، فازدادوا بذلك فرحا واستبشارا .

ثم شرع الامام في شراء الكراع والسلاح، وقوى بيت مال المسلمين بالـذخائر الحربية، ومهمات الدفاع الوقتية، وتقوى الضعيف، وانتعش الفقـير وتحسنت الاحوال، وسارت الركبان بأخبارهم في الآفاق، ودخل الـرعب كل من اتصـل به خبرهم من الملوك والامـراء، على اختـلاف مراتبهم، وأنسوا من انفسهم قوة دعتهم إلى توسيع نطاق العمران، والتمدد في الاقطار، لتمهيد البلاد وبسط العدل، ونفخ روح الاخوة والاتحاد بين أفراد العباد، فشرعوا في العمارات والبناء، واحياء الموات وغرس البساتين وأنـواع الاشجـار واجـراء الانهار، وسـوقها من مكان إلى مكان، واتخاذ المـطاحن عليهـا والمستغـلات، وتفننوا في الصنائع، وتسابقوا في ميادين المعارف وفنون العلم، ونصبوا لواء الأمن والهناء، وطمحت انظارهـم إلى اخضـاع كل من ناوأهم وحـاد عن جادة الانصاف، من اولي الامارات الخـارجة عنهم، فمهدوا لذلك تأمين السبل وتسهيل المواصلات، وفتح ابواب التجارة، حتى استمالوا الالباب، وذللوا الصعاب .

قــــال

وأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار، وأقاصي الأقطار فقل احد أن ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم، وابتنى بيتا بين أظهرهم لما يراه من رخـاء البلد، وحسن سيرة امـامه وعدله في رعيته، وامانه على نفسه ومـالـه، حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفـلان الكـوفي، وهـذه لفـلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرْويين ومربعتهم، وهذا مسجـد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين، واستعملت السبل إلى بلاد السـودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغـرب بالتجـارة، وضروب الامتعه والعمارة زائدة، والناس والتجار من كل الأقطار قابلون بلفظه (١هـ).

أقول ولهذا والله اعلم، يوجد بالمغرب وخصوصا بجبل نفوسة اماكن وقبائل كثيرة تسمى باسماء اماكن في المشرق، ولعلهم اتوا في ذلك الزمن من المشرق، والله اعلم .

فمن ذلك قبيلة الحمران الاباضية بجبل فساطو القاطنة بقريتهم المسماة بهذا الاسم، وفيهـا مقـام ابي نوح المرساوني صاحب الكرامات الظاهرة المذكور في تاريخ الشماخي رحمهما الله .

ومن ذلك الموضع المعروف بحزوي في ظاهر جبل فساطو أيضا، ومن ذلك قبيلة طرميسة التي منها الشيخ عيسى الطرميسي العلامة المشهور في السـير، وهي الآن قرية صغـيرة على رأس جبـل بين بلدة (جـادو) (وتاردية)، ومن ذلك الموضع المسمى بجندوبة بناحية ككلة، وهو جبل صعب المـراقي جدا بجنب جبـل يفـرن لنـاحية الشرق، يتحصن فيه الثائرون على الملوك في تلك الجهات من قديم، ومن ذلك جبل غريان، العـامر الآن بقبائل مالكية المذهب، خرجوا عن مذهب الاباضية أيام

عمهم الجهل وانقطعت منهم العلماء والمرشدون، وذلك في عصر الشيخ الجليل العلامة اسماعيل بن موسى الجيطالي من ناحية فساطو مؤلف كتاب (القناطر) وكتاب (قواعد الاسلام) وغيرهما، وكان له معهم في هذا الباب كلام، وغير هذا من الاماكن كثير، لو تتبعناه لخرجنا عن موضوع كلامنا، والله أعلم .

الاعانة الثانية من أهل المشرق لامام المغرب عبد الرحمن بن رستم

مـزوج

ثم في العام الثالث من رجوع الرسل الى البصرة، اجتمعت الاباضية بالمشرق، وعنصرهم بالبصرة، وراسلوا من لم يمكنه الاجتماع بهم، وقالوا : ان أخبار التقدم في الاستقامة عن هذا الامام لازالت شائعة، ومحاسنه مستفيضة وعدالته ذائعة، فهو جدير بأن يكون في المغرب خلفا عن الامام أبي بلال، وأبي حمزة المختار بالمشرق، فلا تدخروا عنه مالا، ولا تحبسوا عنه عطاء، وأعينوه بكل ما قدرتم عليه اذ بالمال (مع العلم والعدل) تشد أركان الدولة، وبه يوطد عماد الدين وبه تعلو كلمة الاسلام وأهله، ولكم في ذلك الشرف العاجل والثواب الآجل .

فما كان غير بعيد حتى اجتمع عشرة أحمال ذهبا، فكلفوا بتبليغها الرسل الأولين لخبرتهم واطلاعهم على كنه الحال في تلك الاقطار، حتى اذا رجعوا اليهم اخبروهم بما رأوه من الفرق بين الحالين، فساروا من (مدينة) البصرة في كنف الله وحفظه، الى أن وصلوا (مدينة تيهرت) ونزلوا بمنزلهم الاول،

ودخلوا المدينة فرأوا هيئتها قد تبدلت، ولاح عليها رونق المدنية والملك، وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى، وازينت المدينة بقصور مشيدة، ودور منظمة وأبنية مبهجة، وقباب مرتفعة وأسواق مزدحمة ومساجد متعددة، بمنارات عالية، وحمامات متقنة يحيط بها بساتين متنوعة، ومطاحن منتصبة على تلك الانهار الجارية، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة (وقد مر أنها معدنها) وتنوعت الألبسة، وتعددت اللغات والأزياء ورأوا مالم يخطر لهم ببال، ولا سمعوه في مجيئهم الاول بحال من الاحوال.

وعند ذلك دار في خلدهم، قائد الوهم وتسلطن عليهم سوء الظن بحال الامام، فتسارعوا الى داره ليروا ما تغير من هيئته وحاله، فألفوه بأحسن ما عرفوه به قبل ذلك من حسن المقابلة والتواضع والزهد في الدنيا مع الحزم الكامل في ادارة شؤون الامامة، وداره كما هي عليه من قبل، فاطمأنت خواطرهم بعض الاطمئنان، الا أنهم خافوا أن يكون ذلك من ظواهر الامور، فلم يخبروه بشيء من شأنهم، وخرجوا من عنده ليكتسبوا الحقيقة ممن يظنون فيه الصدق، والامانة في القول فلاقوا رجالا يثقون بهم، ويستأنسون اليهم، فسألوهم عن الاحوال فأخبروهم بحسنها، وبأن الامام على ما هو مشهور به وأكثر من ذلك من حسن السيرة والعدل في الاحكام، واعلاء شأن الاسلام وأهله، ثم أخبروهم بما معهم من المال، واستنصحوهم، فأشاروا عليهم بتقديمه له، وقالوا لهم انا لا نراه يقبله منكم، وان قبله لم يصرفه الا في مواضعه الشرعية، وفي مستحقيه كأول مرة، فأتوا الى الامام بعد ذلك وأخبروه بالمال، وبحال من خلفوه بالمشرق

من اخـوانهم، ومـاهم عليه من موالاته وولايته، والدعاء له فسر بذلك وانشرح صدره، ثم سألهم عن أحوالهم من حيث الظهور والكتمان والقوة والضعف والغنى والفقر في العامة (تلك الامور التي تهم كل حاكم سياسي وعاقل غيور) فاخبروه بضد ما أراده فاستاء لذلك، ثم أمرهم بالحضور الى المسجد الجامع ليخبروا اخوانهم كأول مرة، فحضروا ونادى منادي الامام بذهاب العامة، وبقاء الوجوه من العلماء وأهل الشورى، فكان ذلك كله في الحين وأمـرهم باحضـار المال واخبار اخوانهم فاحضروه، واخبروهم وبلغوهم سلام اخوانهم، ثم استشار جماعته في شأنه فقالوا له : الأمر في ذلك اليك، فافعل ما شئت، فقال : أما انا اذ رددتم الأمر فيه إليّ فلا أرى الا رده الى أربابه ليعينوا به ضعفاءهم وفقراءهم، وما قبلنا منهم من قبل هذا ما أتـوا به الا لما بنـا اذ ذاك من الحـاجة اليه، وأما الآن فكلنا ولله الفضل، خاصتنا وعامتنا وبيت مالنا في غنى عن الاعانة، وهم أحق به منا، فليتفضلوا علينا برده، ولهم منا مزيد الشكر، فوافقوه كلهم على هذا واستصعبته الرسل لما في رده من المشقة والعناء لبعد المسافة، فترددوا اليه المرة بعد المرة مع من التمسوا منه المساعدة من أهل الرأي المقربين عنده في قبوله فلم يساعدهم، واذ ألحوا عليه آلى بأيمان مغلظة أن لا يقبل منهم دينارا ولا درهما، ولما استيأسوا من امساكه ولوا به راجعين الى ان وصلوا البصرة .

قال : فعظم ذلك عند القوم خطر عبد الرحمن وزاد في قدره ورأوا أنه لو كان طالبا دنيا أو مؤثرا لها لرغب في الاموال، فعند ذلك رغب القوم في امامته، ورأوا انها فرض عليهم، ثم لم تزل الرسل تختلف وتطلع الاخبار والبلد زائدة والعمارة في ذلك كله نامية والسيرة واحدة وقضاته مختارة وبيوت

أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته والطائفون قائمون بما يجب، وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في أوان الطعام فيقبضون اعشارهم، ويأتون أهل الشاة والبعير فيقبضون ما يجب على أهل الصدقات، لا يظلمون ولا يظلمون، فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء، وبيعت الشاة والبعير، فاذا صارت أموالا دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم، ثم نظر في باقي سائر المال، فاذا عرف مبلغه أمر باحصاء من في البلد، وفيما حول البلد، ثم امر باحصاء الفقراء والمساكين، فاذا علم عددهم أمر باحصاء ما في الاهراء من الطعام، ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة، فاشتري منه اكسية صوف وجباب صوف وبرا وزيتا، ثم دفع في كل أهل بيت بقدر ذلك، ثم ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الارضين وما أشبه ذلك، فيقطع منه لنفسه ولقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره، ما يكفيهم في سنتهم، ثم ان فضل فضل صرفه في مصالح المسلمين (١هـ) بلفظه .

دهاء هذا الامام وحسن تصرفه مع امارة مستقلة (عن تيهرت بعض ملوكها أباضية)

كان هذا الامام ـ رحمه الله ـ ذا بصيرة وقادة، وفكرة نقادة، موفقا في أعماله متدبرا في حركاته وسكناته، مراعيا كل المراعاة بكل حذق عواقب الامور، متحرزا (ببداياها) عن أواخرها، شأن كل حكيم حنكته التجارب، وتواردت عليه عوامل تقلبات الدهر وأحواله، حتى انه لما توفي أبو حاتم

(الامام قبله) بنواحي طرابلس سنة ١٥٥هـ كما مر، وانتقضت نفزاوة بعد ذلك في أفريقية سنة ١٦١هـ، وولوا عليهم صالح بن نصير (قال ابن خلدون ودعوا إلى رأيهم رأي الاباضية) وانهزموا بعد وقائع متعددة ولم تقم لهم قائمة. تروى عبد الرحمن في الامر وتثبت في الرأي، فاستنتج ان السكون والمهادنة أولى بهم وأصلح لشأنهم، حتى يندمل جرحهم ويلتئم فلهم وتشتد قوتهم، وتجتمع قواهم، فمال إلى الدعة وجنح للسلم راكنا في ذلك إلى استجلاب الخواطر، واستعمال المجاملة مع المتاخمين لحدوده، فكاتب صاحب القيروان على ان يكف نفسه عنه، ويستقل كل بما لديه وما واليه من حيزه، فقبل منه ذلك بكل ارتياح، كما ذكره ابن خلدون اذ قال في ١١٣ من (٦) ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة ١٧١هـ في موادعة صاحب القيروان، روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، فوادعه، ومما يعد من سياسته وآرائه النافعة، مصاهرته لمدرار بن الياس، أحد ملوك سجلماسة حتى آل الامر إلى ما ستسمعه أيها القاريء ان شاء الله .

(خطبة رئيس الصفرية لأروى)
(كريمة الامام عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ وأخبار ذلك)

كانت الصفرية في نواحي سجلماسة في جموع كثيرة تفوق الحصر، غير مستقلين بالامر، ثم اجمعوا على تأسيس مدينة سجلماسة، فكان ذلك سنة ١٤٠هـ أي قبل تأسيس (تيهرت) باربع سنين، ودخل اكثر مكناسة

المجاورة لهم في مذهبهم، ولما قوي أمرهم وتألفت كلمتهم، قدموا عليهم بالبيعة عيسى بن يزيد ثم قتلوه، وولوا أبا القاسم سمكو بن واسول، وكان أباضيا كما ذكر ابن خلدون في صحيفة ١٣٠ ثم مات سنة ١٦٧هـ، فولوا ابنه الياس ثم خلعوه، وولوا اخاه اليسع، وهو الذي شيد سور سجلماسة وحصونها، وعلى عهده استفحل أمرهم واشتد ملكهم، وكان يرى في نفسه العظمة لكثرة الجنود والاتباع، وله ابن يعرف بمدرار، فلم ير له كفؤا للمصاهرة غير الامام عبد الرحمن، وكانت له ابنة تعرف بأروى، فخطبها اليسع، وبعد أن أظهر الأمام العزة والامتناع مع الحاح الخطيب أجابه إلى طلبه، وزوجها من مدرار ابنه، ولم يصغ للمعترضين والمنكرين عليه، مؤملا ان يأتي يوم ما على أولادها ان قدر الله بحملها وهم على مذهبه، فيضمهم هو أو خلفه إليه، أو تتوثق علائق الوداد بين المملكتين، فلا يطرقه منهم طارق سوء، ولا يأتيه من قبلهم ما يكدر راحته او يوجب له قلقا او خللا في داخليته، اذ كان تحت حكمه من الصفرية ما يعدّ بعشرات الالوف من المقاتلين الموصوفين بالشجاعة والبسالة، كما أن بسجلماسة من الاباضية أمثال ذلك من الفرسان الاشداء، ولولا حكم القدر بهذه المصاهرة مع قرب الجوار، لكانت الحروب بينهم متوالية والفتن متتابعة حيث يطلب كل فريق منهم الانضمام إلى امام مذهبه، ويظهر التظلم حقا أو باطلا من مخالفة في المذهب الحاكم عليه، وهذا أمر طالما سفكت به الدماء انهارا يجعله من مريد الخروج عن الطاعة ذريعة يتوصل بها إلى غرضه، وحسب المعتبر شاهدا ما أجراه الافرنج في عصرنا هذا بجزيرة كريد، انقاذا لاخوانهم المسيحيين من أحكام المسلمين، وما هم الآن في

نسجه بمقدونيا ادعاء بهذا الوجه عينه، غيرة على بني جلدتهم وحمية دينية لا انصافا وحقا، وبأمر هذه المصاهرة التي دبرها الامام كفى شر ذلك كله، وكانت العاقبة ما ستراه .

حمـــل أروى بنت الامام بولدهـا ميمـــون

كان من قدر الله وقضائه ان حصلت الألفة وحسن العشرة والوفاق التام بين الـزوجـين المتبـائـنـين مذهبـا ومشربا، المتباعدين دارا ونسبا (مدرار وأروى)، وحملت أروى ووضعت ولدا سموه ميمونا، وكان لزوجها ولد آخر من البغي اسمه ميمون أيضا، ولما مات والد مدرار تولى هو أمر الصفرية سنة ٢٠٨هـ، وتلقب بالمنتصر وطالت ولايته، فكان مع الرستميين في ولاء ومسالمة لجانب المصاهرة، ولشغفه بزوجته أروى مع ما رأه في ابنها ميمون من الكفاءة، حدثته نفسه بتسليم أمر مملكته اليه في حياته، ولما أحس ابنه ميمون الثاني بذلك أوعز إلى رؤساء الصفرية ومقدميهم بذلك، فهاجوا وماجوا واضطربت أقوالهم واستعظموا الأمر خوفا من انضمام ملكهم، الى ملك بني رستم، من سيادة الاباضية عليهم في المملكتين، فثار ميمون بمن تبعه من الصفرية على والده ونازعه الملك، وكان بينهما ما كان من الفتن والمقاتلات إلى أن توفي سنة ٢٥٣هـ ، لخمس وأربعين من ملكه، وأقام ميمون في الامارة إلى أن مات سنة ٢٦٣هـ، وولي ابنه محمد .

قال ابن خلدون في صحيفة ١٣١ : وكان أباضيا وتوفي سنة ٢٧٠هـ لثمان من ملكـه فولى اليسـع بن المنتصر (مدرارا)، إلى ان اقتحم عليه الشيعي سجلماسة سنـة ٢٩٦هـ وقتله، وولي عليهـا ابراهيم بن غالب المراسي الكتامي وبقي فيها إلى أن قامت عليه أمراء سجلماسة سنة ٢٩٨هـ

وقتلوه، وولوا عليهم الفتح الأباضي ابن ميمون .

قال ابن خلدون : وبايعوا الفتح بن ميمون الامير ابن مدرار، ولقبه وسول، وميمون ليس هو ابن البغي الذي تقدم ذكره، فيظهر أنه أراد ميمون بن الرستمية، اذ لا ميمون آخر لمدرار غيره قال : وكان أباضيا وهلك قريبا من ولايته لرأس المائة الثالثة، فولي أخوه احمد واستقام أمره إلى أن هجم عليه مصالة بن حيوس من طرف الشيعي، فنزعه وولى مكانه ابن عمه المعتز، فاستبد ومات سنة ٣٢١هـ، وولي ابنه المنتصر إلى أن ثار عليه، كما قال ابن خلدون ابن عمه محمد بن الفتح (الاباضي) بن ميمون (الاباضي) الأمير، وتغلب عليه الخ، وذكر أن محمدا هذا رجع في آخر أمره أشعريا وتلقب بالشاكر، واتخذ السكة باسمه وكانت تسمي الشاكرية إلى أن زحف اليه جوهر الكاتب في جموع كتامة وصنهاجه سنة ٣٤٧هـ، ففر امامه تاركا ملكه، ثم قبض عليه واخذه اسيرا إلى القيروان، وانقضى ملك بني مدرار الذي علمت ايها القارىء أن بعض ملوكه صفرية وبعضهم أباضية على ما ذكره مؤرخو غيرهم كما سمعته، وأما مؤرخوهم فلم يتعرضوا لهذا الامر قط، اذ لاذكر لذلك في سير الشماخي ـ رحمه الله ـ ولا في الطبقات، ولا غيره، فاما ان يكونوا قد احدثوا احداثا أوجبت البراءة منهم فاهملوا ذكرهم، (ولا نظن انهم ارتكبوا من الموبقات اكثر مما أتاه ابو يزيد صاحب الحمار الآتي خبره، وقد ذكروه كثيرا)، واما أن يكونوا مذكورين في تاريخ نفوسة الكبير وغيره من الكتب القديمة التي لا وجود لها الآن الا بالاسم، والله اعلم .

والحامل على ذكرهم هاهنا مجرد الافادة للمطالع، وبيان ما آل اليه تدبير

الامام عبد الرحمن رحمه الله وما نتج عن مصاهرته لمدرار من بث دعوته فى هذه العائلة القابضة على زمام ملك الصفرية بدون رمح ولا سنان، وهذا لاشك مما يشهد له بطول الباع فى القيام بادارة مملكته، وأخذ الاحتياطات لدفع كل طارىء يطرأ عليها، وأمر المصاهرة وقع كثيرا قديما وحديثا من الملوك لغرض التوقي من فتنة قبيلة كبيرة او سلطان آخر، كما وقع للامام عبد الوهاب على ما سيأتى فى كلام ابن الصغير، ولتميم بن المعز بن باديس الشيعى صاحب افريقية فأنه صاهر بابنته الناصر صاحب القلعة سنة ٣٧٤ على ما ذكره ابن خلدون فى صحيفة ١٦٠، وانطفئت نار الفتنة بينهما بسبب ذلك، وفى زماننا هذا يقع بكثرة، خصوصا عند الافرنج، حتى صار أغلب ملوكهم وأمرائهم أقارب لبعضهم بعضا .

وبهذا عظم اتحادهم وفتر ما كان بينهم من الخلاف، وتناصروا على المسلمين وتحالفوا على محو كلمة الاسلام وأهله، الذين لم تربطهم ببعضهم بعض الا كلمة الشهادة، وهى رابطة عند التحقيق منحلة لما تهدد به منذ ظهرت من الاختلافات المذهبية والمشاكل الاعتقادية، التى صارت أساسا متينا لا تزلزله الازمان والدهور، لكل شقاق وتباين بين أفراد الجامعة الاسلامية .

ومن طالع التاريخ ورأى الوقائع الماضية التى جرت بين أهل الاسلام من عهد الصحابة بعد الخليفتين ابى بكر وعمر الى مالا يبعد عن عصرنا هذا، رآى بلا ريب ما يرعب فؤاده ويكدر صفو راحته، وأغلبه ان لم تقل كله متولد من انتحال المذاهب، ولو كانت لديهم آلات الحرب الحاضرة برا

وبحرا لقضى أمر هذا الدين وأهله من زمان بعيد **(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك)

فلو فتح امراء الاسلام باب المصاهرة بينهم، وسعوا فى توحيد المذاهب لأصبحوا وكلمتهم واحدة. والحق فى ذلك على أعظمهم سلطانا وأشدهم شوكة فى هذا العصر امير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان، فانه لو صاهر الامراء المنفصلين عن دائرة نفوذه وحكمه، ببنات وزرائه فضلا عن كريماته، لبادروا الى معاضدته وعضوا بنواجذهم على حبل الاتصال بعرشه، وأضحوا ولا وجهة لهم غير انتظار اشارته، وفى ذلك مما يهم العالم بأسره، ويزلزل دعائم السياسة مالا يخفى على الناقد البصير.

وكان الامام بالمشرق فى عاصمة عمان فى ذلك الوقت، الامام الوارث، وذكر أبو زكريا رحمه الله ان فى مدة الامام عبد الرحمن توفى أمام المذهب الكبير أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة البصرى رضى الله عنه والصحيح ما سنذكره بعد ان شاء الله.

وكان رحمه الله مشهورا بالعلم معدودا من فحول العلماء الراسخين، له تفسير جليل القدر، تكلم عليه المؤرخون، ولا وجود له الآن، وله ديوان خطب نفيسة، ذكر العلامة الوارجلاني - رحمه الله - انه راه، وله رسائل متعددة وجوابات كثيرة مفيدة فى فنون من العلم، بعضها موجود وبعضها مفقود، وبالجملة فقد كانت مدة هذا الامام بالمغرب أيام سكون وراحه وعدل، لا حرب ولا شقاق، وكان محبوبا عند الجميع مهيبا مطاع الاوامر والنواهي.

وفـــاتـه

قال : فلم تزل أمـوره كذلك، وعلى ذلك، والكلمة واحدة والدعوة مجتمعة، ولا خارج يخرج عنه، ولا طاعن يطعن عليه، الى أن اخترمته منيته وانقضت أيام مدته، وكنت قد وقفت على عدد امارته، كم كانت، ولكن نسيتها مع مرور الايام، وكان قد نشأ له فى أيامه ولد يعرف بعبد الوهاب، وكـان محمـود الافعال، وكان قد رشحه للقيام بعده، فلما انقضت أيامه صيرَّت الاباضية اليه الامر بعده(١هـ) .

أقول لما أيقن رحمه الله بدنو الاجل، وانقضاء العمر، وأيس من الحياة تأسى بأمير المؤمنين ثانى الخليفتين عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقتفى أثـره اعتناء بشأن الاسلام والمسلمين، فجعل الامامة شورى بين سبعة رجال ممن تفرس فيهم الصلاح، لتلقيها بما أحرزوه من كمال الاقتدار، وبما علمه فيهم من التضلع فى العلوم، مع التقوى والورع، وهم ولده الهمام العلامة المقدام عبد الوهاب، والعلامة مسعود الاندلسي، ذلك الرجل الفاضل البارع فى الفقه وغيره الشهير بالورع، والعلامة أبو قدامة يزيدبن فندين اليفرني، والعلامة عمران بن مروان الاندلسي، والعلامة أبو الموفق سعـدوس بن عطية، والعـلامـة شكـر بن صالـح الكتـامي، والعـلامة مصعب بن سدمان .

ولما ختمت أنفاسه-رحمه الله-وسيقت روحه الطيبة الى حيث أراد بارئها من مواقع التنعم ان شاء الله شيع المسلمون جنازته ودفنوه، ولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا، وأفئدتهم ترجف فزعا، وكانت خلافته أحد عشر عاما لا أربعين كما قيل ولا سبعة كما قاله المراكشي، وسيأتى وجه ذلك،

ثم اجتمع أهل الشورى منهم والصالحون للنظر فيمن يولونه الامر بعده، ولشدة تحريهم-رحمهم الله-لم يقصدوا بها أحدا الا وتبرأ منها، ودفعها عليا بحرج موقفها وبقي الامر كذلك موقوفا نحو شهر كامل، لم يثبت لهم فيها قرار، ولم يستقر لهم رأى، الا ان لعامة الناس ميلا زائدا الى اثنين من السبعة المذكورين، وهما الامام عبد الوهاب والعلامة مسعود الاندلسي فبعض يريد هذا وبعض يرغب في ذاك، ثم مال الكل الى مسعود ، وقاموا لمبايعته، وفى حين ما أدركه الخبر اختفى فرارا من الوقوع فيها واذا لم يجدوه أعرضوا عنه، وابتدروا عبد الوهاب لمبايعته، ولما سمع مسعود بذلك خرج الى مجتمع الناس ليكون فى مقدمة المبايعين منهم، وكأن فيهم يزيد بن فندين، وقد أدركه من الغيرة مالم يستطع اخفاءه، اذ لم يرغب فيه أحد، ولما رأى أنه لاحظ له فى الامامة، اشتدت رغبته فى تولية عبد الوهاب، رجاء أن يدرك فى ظله بعض المناصب العالية، وان يقلد مهام الأمور اعتمادا على علاقة النسب التى بينهما، لما أنه من أخوال عبد الوهاب فان والدة عبد الوهاب كانت يفرنية، الا أن لعلمه هو ومن معه بما انطوت عليه بواطنهم من المقاصد السيئة، أيقنوا بأن عبد الوهاب على ما هو معروف به من الشدة فى الحق والصلابة فى الدين، لا يدع لهم مجالا يبلغون به أمانيهم، ولو أدركوا من المنزلة عنده ما أدركوا، ولما وقف الكل بين يدى عبد الوهاب، وقام ابن فندين خطيبا فقال : انا نقدم لك بيعتنا يا عبد الوهاب على شرط واحد، وهو أن لا تقطع أمرا دون اتفاق جماعة معلومة معك عليه، راجيا أن يكون هو من المنتخبين فى ذلك المجلس (وبمثل هذا المطلب ينادى الحزب المسمى بالاحرار من الترك وغيرهم من أهالي الدول،

ذات الحكم المطلق فى هذا الزمان، فوقف مسعود وأجابه قائلا على طريق الانكار) ما سمعنا بهذا وما علمنا أن فى الامامة شرطا غير أن يحكم الامام بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين أهل الحق والصدق ممن تقدم، فسكت يزيد تاركا ذكر الشرط، وأجمع هو ومن معه من المسلمين على البيعة .

الفصل الثاني

خلافة الامام عبد الوهاب - رحمه الله - وكناه المراكشي بأبي الوارث ولم نره لغيره

فقام مسعود الى الامام عبد الوهاب وبايعه، ثم بعده الحاضرون وحملوه الى دار الامامة في موكب حافل غصت به طرق المدينة ومناهجها، وهنالك تمت البيعة العامة، وامتلأ الناس فرحا وسرورا، وسكن بعض ما كان بهم من الجزع على والده، إذ حل هو في محله ورجوا سعادة مستقبلهم، وذلك في صدر عشرة للسبعين بعد المائة تقريبا، اذ لم نقف على ما يوجب اليقين في ذلك كلما بحثنا، غير اننا علمنا أن تولية الامام عبد الرحمن كانت سنة ١٦٠هـ وانه في سنة ١٧١هـ عاهد صاحب القيروان كما مر غير بعيد، وعلمنا أن الامام عبد الوهاب كان راسخ القدم في الامامة في تلك السنة نفسها، أعني سنة ١٧١هـ أيضا على ما ذكره ابن خلدون حيث قال في صحيفة ١٩٤ من الجزء ٤ : ورغب يعني (روحا صاحب القيروان) في موادعة عبد الوهاب بن رستم، وكان من الوهبية فوادعه (١هـ) .

ولم نعثر على ما يحقق وجود عبد الوهاب في الامامة قبل هذا التاريخ، ولا على ما يثبت وجود عبد الرحمن بعده، فالموادعتان وقعتا في سنة واحدة

كما رأيته، فاما أن تكون الاولى وقعت مع عبد الرحمن مباشرة، والثانية مع عبد الوهاب بالنيابة عن والده، وهذا مما لا معنى له لاختلاف الطالبين لها، واما أن يكون عبد الرحمن طلب المعاهدة ووقعت، وعلى اثرها توفي فطلب روح تجديدها من عبد الوهاب توقيا منه لما شهر به من علو الهمة والشدة فساعفه عبد الوهاب جزاء لما ساعف به والده من قبل، وما جزاء الاحسان إلا الاحسان، وهذا هو المناسب والله اعلم فليحرر

فقام ـ رضي الله عنه ـ بالعدل احسن قيام، وأجرى الامور على أحسن وجه وأتقن نظام، فظهر ما انطوت عليه أخلاقه الكريمة وانفاسه السليمة الى عالم الظهور من الآثار الشريفة والمقاصد الخيرية والبسالة الكاملة والانعامات الشاملة، وأرسل في اطراف مملكته ودواخلها اوامره الشديدة بامتثال الاوامر واجتناب المناهي الشرعية، ورتب العمال والحكام والقضاة ورجال الشرطة في سائر انحاء اتباعه، فعمهم عدله وشملهم حكمه، ولم ينقم عليه احد شيئا في احكامه وسيرته الى ان حدث خروج ابن فندين عليه .

خروج ابن فندين عن طاعة الامام

لما رأى ابن فندين ما عليه الامام من الحزم، وتنقية ارباب الخبرة والعفة والاستقامة، في تعيين الموظفين، ولم يبلغ هو ما كان يؤمله من التقديم ونيل بعض المناصب، لم يطق صبرا على ذلك، وأظهر الانكار على الامام في توليته لبعض من كان يرى انهم لا ينالون مع وجوده شيئا، وقال : ان هؤلاء الذين ولاهم الامور ليسوا بأحسن منا سيرة، ولا أقوى منا اقتدارا على

اشغال الدولة وتدبير أمر الرعية، بل نحن أولى بالتقديم اذ كنا نحن السبب في اخذ البيعة له، وغير هذا من الكلام الذي لم يصب من الناس كافة اذنا صاغية، ولم يستمل به قلب أحد، ولما علم ان ذلك لا يجديه نفعا قام مطالبا بالشرط الذي تكلم به أولا (مجلس الشورى باصطلاحنا تقريبا)، وتدرج بذلك الى انكار الامامة قائلا : انا قد شرطنا عليه أن لا ينهي أمرا دون موافقة جماعة عليه، وهاهو قد استقل برأيه ولم يشارك أحدا في شيء، ونبذ الشرط وراءه ظهريا، فطاعته غير واجبة علينا لفسخه البيعة بتركه الشرط، ثم زاد تدرجا في دركات الشقاق واعلن بفساد البيعة من مبدئها بدعوى ان في المسلمين (الاباضية) من هو أكثر منه فهما وأغزر علما، واوسع ادراكا وفكرا، فلا يجوز تقديمه ولا البيعة له، ماداموا موجودين، وطفق ينشر هذه الاقوال في المجامع والمنتديات حتى استمال لفيفا من الناس، ممن كانوا على شاكلته في المقصد والطبع. واكثروا النجوى والاجتماع، والدخول الى المدينة والخروج منها الى المنازل والجبال، جماعات يتلو بعضها بعضا قصدا لاثارة الفتنة وتشويشا لخواطر العامة، وارهابا لنفوس رعاع الناس فأبلغهم الامام النهي عن ذلك، وحذرهم سوء العاقبة ان لم ينتهوا فقالوا للمرسل اليهم من طرف الامام هذه مدينتنا، وتلك منازلنا، فان عصينا في الدخول والخروج إليها، فليخبرنا الامام بوجه ذلك، فاعرض عنهم وتركهم وشأنهم مع مراقبة حركاتهم وسكناتهم بالتدقيق التام بواسطة الامناء (البوليس السري في اصطلاحنا الآن).

تدبير مكيدة لقتل الامام

ولما رأى ابن فندين ومن معه خيبة مساعيهم، وتحققوا عدم نجاحها

واتيانها بنتيجة تضمن لهم حصول مأمولهم، فكروا فيمن تقدمهم من الثائرين على الملوك والخلفاء فوجدوهم لم يظفروا بشيء مما كانوا يحاولونه الا بالقتل، فلووا أعنة أفكارهم الى تدبير مكيدة يتوصلون بها الى الفتك بالامام والغدر به، ولشدة تحفظه ـ رحمه الله ـ وأخذه الحذر من نفسه، بما ارتسم في صحيفة ذهنه مما درسه في وقائع المتقدمين، ووقف عليه في اخبارهم من قتل الملوك في الطرقات والغدر بالخلفاء في المساجد، حيث كانوا بسطاء الحالة لم يجدوا له سبيلا، ثم بعد استعمالهم الجهد في التفكر ضلوا الى مكيدة لو لم يعارضها القدر فذهبت أدراج الرياح، وردت عليهم لكانت القاضية على الامام، والمصيبة العظيمة على المسلمين.

وذلك ان الامام كان له بيت خصصه لنفسه، فيه ما يحتاج اليه من كتبه يخلو فيه للمطالعة والتهجد بالليل على ما يؤخذ من كتب السيرة، فاتفق القوم على ان يجعلوا رجلا بسلاحه في صندوق ذي قفل من داخله ويحمله اثنان منهم ممن لا ريبة فيهم إلى الامام، ويظهران له انهما متنازعان فيه ويطلبان منه حفظه على وجه الامانة حتى يعودا إليه، وكأنهم علموا انه اذ قبله لا يضعه الا في ذلك المحل المخصوص به، محافظة على الامانة وحرصا عليها، فيخرج صاحبهم من صندوقه في الليل ويقتله، اذا علم انه نام، فاتفقوا على هذا الرأي وتيقنوا بنجاحه، وقاموا لانجازه على نحو ما ذكر، فزجوا صاحبهم بطلب ورغبة منه في صندوق مصيبته متقلدا سيفه، وهو لا يعلم انه وقع في هوة هلاكه، واتفقوا معه على انه اذا قتله يذهب الى المنارة ويؤذن فيها ليعلموا بتمام مرادهم، فيهاجموا المدينة، ويحتلوا في ذلك الليل دار الامارة، ويتمكنوا من الحصون والنقط الحربية، من سور المدينة وغيره،

مما لا حرس فيه، ولما أتوا به الى الامام أجاب طلبهم، وأمرهم بحمله الى المحل المخصوص، ولاحظ حركاتهم عند حمله، فرأى فيهم من الرفق بالصندوق ما دله على ان ما في جوفه انسانا، وأدرك بفطنته الوقادة في الحال أن المسألة لا تخلو من مكيدة غريبة، فوضعوه في المكان، وذهبوا مستبشرين فرحين بما توفقوا اليه من الرأي .

فأقبل الامام على الصندوق وتأمل فيه مليا وجسه من جهاته الاربع فلم يجد له قفلا من خارج فازداد يقينا فيما فهمه أولا .

ولما جن عليه الليل قضى ما يجب عليه من أمور البيت ثم عكف حسب عادته على مطالعة الكتب جانبا من الليل ولما حان وقت النوم عمد الى زق (قربة) ونفخ فيه حتى امتلأ هواء وربطه ربطا خفيفا بحيث يخرج منه نفس خفيف ذو حس كنفس النائم، ووضعه في احدى زوايا البيت وغطاه برداء أبيض ليرى في الظلام، وأوقد قنديلا في زاوية أخرى وغطاه بوعاء يحجب ضوءه عن الناظر، وتنحى لجانب من البيت لاحياء بقية ليله بالصلاة والاستغفار، ولما أحس صاحب الصندوق بعدم وجود القنديل، وسكون حركة الامام ظن انه نام ففتح الصندوق برفق وخرج وسيفه في يده، ووقف مصغيا الى ان سمع النفس من القربة، وتخيل بياض الثوب في تلك الظلمة، فظن انها الامام فحمل عليها حملة الابطال وقدها نصفين، وعند ذلك كشف الامام الغطاء عن القنديل فبهت الآخر وأدركه الفشل، وسقط في يديه فبادره الامام بسيفه البتار، وقده نصفين أيضا، وضمه في ثوبه ورده في صندوقه حفرة الخداع وبيت الخيانة، وأتم بقية ليله بالذكر والصلاة حامدا لربه على ما وفقه اليه من التنبه لهذه المكيدة، ولعمري انها لمن أعظم

المكائد لو صادفت المرمى ، وانها لأشبه شيء بحكاية الزباء ، وهي من أقوى الدلائل على ما كان لهذا الامام من الانتباه والذكاء المفرط .

ولما أصبح الله بالصباح ، ولم يقع بالمنارة أذان ، وقد قضى القوم ليلتهم في سهر تساءلوا فيما بينهم عن صاحبهم ، وقالوا : اما انه لم يفعل شيئا ، واما ان يكون قد دارت عليه الدائرة وقتل ، ثم اتفقوا على الذهاب الى الامام لاخذ الصندوق بدعوى انهم أصلحوا ، ولم يبق بينهم في شأنه نزاع ، ولما أتوه قابلهم بكل بشاشة بحيث لم يفهموا منه مما كان له مع صاحبهم شيئا ، وهذا لعمري الحق أيضا من الثبات الذي لا يطيقه الا أمثال هذا العظيم القلب ، وإذ سألوه رد الصندوق قال لهم هو في مكانه الذي وضعتموه فيه ، لم يتحول فخذوه ولما حملوه وذهبوا به الى مأمنهم وفتحوه وجدوا صاحبهم ملفوفا في ثيابه مخضبا بدمائه وقد صدق عليه قولهم :

(من حفر حفرة سوء لاخيه المسلم أوقعه الله فيها)

وعندئذ توقعوا فتك الامام بهم ، فخرجوا من المدينة وأعلموا أنصارهم بالتأهب للحرب ، وصاروا يردون الى المدينة بالسلاح في جموع مع اظهار الشدة فكرر لهم الامام النهي عن ذلك بواسطة بعض خواص دولته ، فقالوا ما في امساك السلاح معصية ، ولا في حمله من بأس ، والمؤمن بسلاحه ، وان رأى الامام أن في ذلك معصية فليقنعنا بالحجة ، فتركهم وشأنهم أيضا ، وأمر أهل المدينة بأخذ الحذر بحمل السلاح مثلهم ، وبالاستعداد للحرب عند مجرد الاشارة منه فازداد الناس خوفا ، واشتدت وطأة الثائرين واكثروا من التعدي حتى فتحوا مع الامام باب الحرب ، وكانت وقائع متعددة سفك فيها الدماء ما اضطر به الامام والمسلمون معه الى طلب الهدنة

ووضع أوزار الحرب حقنا للدماء، الى ان يكتبوا لاخوانهم المشارقة بايضاح القضية وتفصيلها ويعود اليهم الجواب منهم بتخطئة المخطىء وتصويب المصيب من الفريقين، فقنع الطرفان بهذا الرأي، وأذعنوا للسلم وكتبوا الكتب على نحو ما اتفقوا عليه من حكاية الواقع (وبكل أسف لم نعثر على شيء من هذه الكتب قط مع طول البحث عنها)، ووجهوها مع امناء مخصوصين ليعرضوها على علماء أباضية الشرق ورجالهم، بمصر والحجاز واليمن والبصرة وعمان وخراسان وغير ذلك من بلاد الشرق العامرة بهم .

ولما وصل الرسل مصر، قصدوا العلامة أبا المعروف شعيبا ومن معه وأخبروهم بما كان من وفاة الامام عبد الرحمن ومبايعة عبد الوهاب وخروج ابن فندين وادعائه الشرط في الامامة وغير ذلك مما وقع كله، وتوجهوا الى مكة المكرمة وكان بها يومئذ من معتبري علماء الاباضية ورجالهم، ذلك العلامة الجليل المحدث المشهود له بالورع المقدم في الفتوى والمرجع في الرأي عند المشارقة كافة أبو عمرو الربيع بن حبيب صاحب كتاب (المسند في الحديث) والعلامة أبو غسان مخلد بن معمر الغساني، والعلامة وائل بن ايوب وغيرهم من رجال العلم والدين، فدفعوا لهم الكتاب وبينوا لهم مشافهة ما استفهموهم عنه وانتظروا الجواب .

جـواب علماء المشـارقة إلى المغاربـة

فجمع الربيع ـ رحمه الله ـ خيار المسلمين وعلماءهم، والوجوه من أهل الفضل والصلاح، وطرح الكتب في المجلس، وبعد مطالعتها وفهم معانيها وادراك روح القصد منها، أجمع رأيهم على رد الجواب بما اقتضته قواعد

الشرع العزيز وميزانه المحكم، ولم يألوا جهدا في النصيحة وبيان الحق، فجازاهم الله عن الاسلام وأهله خيرا، وهذا نص ما كتبوه بالحرف الواحد .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وآله الطاهرين

اما بعد : فقد بلغنا يا اخواننا ما كان قبلكم وفهمنا ما كاتبتمونا به، اما ما كتبتم به من أمر الشرط، فليس من سيرة المسلمين ان يجعلوا الشرط في الامامة ان لا يقضي أمرا دون جماعة .

ولـو صح في الامامة شرط لما أقيم لله حق ولا حد، ولعطلت الحدود وبـطلت الاحكـام وضاع الحق، على ان الامام اذا قدم إليه سارق فلا يصيب ان يقيم عليه حدا فيقطع يده حتى تحضر الجماعة التي ذكرنا، أو زنى أحد فلا يرجم ولا يجلد، حتى تحضر أيضا، ولا يجاهد الامام عدوا ولا ينهى عن فساد الا بحضرة الجماعة المعلومة، والجماعة يتعذر اتفاقها، فالامامة صحيحة والشرط باطل .

واما ما ذكرتم من تولية رجل من المسلمين، اذا كان فيهم من هو أعلم منه، فذلك جائز، اذا كان الثاني من القناعة والفضل بمنزلة حسنة، فقد ولى أبـو بكـر الصـديق ـ رضي الله عنه ـ، وزيد بن ثابت أفرض منه، وعليّ بن أبي طالب أقضى منه، ومعاذ بن جبل أعلم منه، وهذا ليس فيه اختلاف لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (**أفرضكم زيد وأقضاكم علي وأقرأكم أُبيّ وأعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل**)، وقوله صلى الله عليه وسلم (**معاذ بن جبل سيد العلماء سيحشر غدا ـ يوم القيامة ـ امام العلماء**) وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (اهـ).

ثم ألقى العلامة مخلد الكتاب الى العلامة عبد الله بن محمد بن مسلمة، وأمره بنقل نسخة منه وحفظها لتكون حجة للمسلمين بعدهم في مثل هذه الحادثة، والله أعلم .

ارتحال شعيب من مصر الى تيهرت طمعا في الامامة

هذا ما كان من أمر الرسل مع علماء الحجاز، واما العلامة شعيب المصري فانه لما أخبرته الرسل مع من معه بمصر من العلماء، بما صدر من ابن فندين من شق عصا الطاعة ومفارقة الامام هزته شنشنة الطمع في الامامة، وسولت له نفسه مالم يكن له أهلا، فعزم على التوجه الى (تيهرت)، ولما سمع من في مصر من عقلاء وعلماء الاباضية ورجالهم، وكانوا أهل فضل وورع نهوه عن السفر الى المغرب، وقالوا له : لا يسوغ لك الذهاب الى قطر فيه من الاختلاف والشقاق بين الامام ورعيته ما سمعته ووعيت تفصيله، وان كان ولابد فالزم مكانك حتى تنفرج أزمة هذه الحوادث، وينحسم الأشكال ويزول الاختلاف، ثم ان شئت الزيارة فاذهب في أمان سالما من التهمة، فلم يقنع برأيهم وكأنه أظهر للملأ أنه يريد بذهابه إلى المغرب اصلاح ذات البين (وما هو الا من المفسدين)، اذ جعل الامامة نصب عينيه، ورأى ان حصولها له أقرب اليه من جنبيه. وما ذلك الا غرور وغلط وجهل بمقام الامامة، فهي بعيدة عنه بعد ما بين المشرق والمغرب، ومصر وتيهرت لو تأمل .

ثم انه خلا ببعض خواصه وأصدقائه منهم الرجل المعروف بالمتوكل وكشف لهم عن خفي سره، واستشارهم فيه، وأظهر لهم من وجوه التحسين وضروب الترغيب ما أخذ بمجامع قلوبهم، ومناهم بما حملهم على

مساعفته وتصويب رأيه .

فخرج بهم في الليل من مصر، وطفق يمسح الارض مواصلا الليل بالنهار رغبة في دخول تيهرت قبل رجوع الرسل من المشرق، فبلغها يوم العشرين من خروجه من مصر، وقد أضنى السير رواحلهم، وكأنها من الهجين الذي يطوي مراحل في يوم، ويعرف عند بعض القبائل بالمهري، والا فان المسافة بعيدة جدا لا تقطع بالسير العادي إلا في اضعاف هذه المدة .

وقبل ان يجتمع بأصحابه استأذن على الامام لتقديم الزيارة، فأذن له وقابله بما يجب من الاكرام والاحترام، اذ كان من مشاهير العلماء ورجال المذهب، ولم يخطر له انه انطوى على نية سوء وفساد، لما عرف به قبل ذلك من حسن الحال وبعد السلام والسؤال عن الاحوال الشرقية سأله الجواب عن المسألتين المختلف فيهما، ولعلمه بما عليه الامام من غزارة العلم والاطلاع لم يمكنه إلا أن يجيب بما هو الحق طبقا لما أجاب به الربيع ومن معه، وهو أن الامامة صحيحة والشرط باطل، وأن امامة من استكمل أوصاف الامام جائزة، ولو كان في المسلمين من هو أعلم منه .

اجتماع شعيب بابن فندين وخروجهما عن الطاعة

ثم خرج وذهب الى ابن فندين وأصحابه، فأظهروا له الاستبشار بقدومه وبالغوا في اكرامه واحترامه، وأكثروا التودد له والخضوع بين يديه، حتى طمع في الامر ورجا نيل ما كان يؤمله، الا انه ندم كل الندم على ما أجاب به الامام في المسألتين واغراء لابن فندين واستمالة له، بالغ في الرضاء عنه وفي تخطئة الامام وآزره على رأيه، ورأي جماعته، وتداعوا إلى الاجتماع

خارج المدينة، فخرج اليهم كل من كان على رأيهم، واجتمعوا بكدية غير بعيدة عنها واتفقوا على انكار امامة عبد الوهاب، والسعي في نزع السلطة من يده وعولوا على الحرب، الا انهم لم يجمعوا رأيا على تقديم واحد منهم باسم امام ولو مؤقتا، الا ما كان من تقدم ابن فندين في الرأي لاغير، ولما لم يدرك شعيب من هذا الحال نتيجة ولم ينل شيئا مما كان يمني به نفسه وأصحابه الذين أتى بهم معه من مصر، ضاق صدره وخاف ان يكون من المذبذبين لا الى جهة الامام، لما ظهر منه من مؤازرة ابن فندين، ولا الى جهة ابن فندين لما صدر منه من الجواب للامام في المسألتين بمحضر من الناس وخاف رجوع الرسل من المشرق بتخطئة ابن فندين وحزبه، وهو منهم فتقوم عليهم الحجة، ويفارقهم كل عاقل ممن استغفلوه، واتبعهم على غير هدى وبصيرة .

فقال لابن فندين ما الذي تنتظرونه من القوم، وقد أظهرتم انكار الامامة وشهرت عنكم ومالكم في رسل الشرق وكتبه من نفع، فناوشوهم الحرب لعلكم تنصرون، فلا تعود الرسل الا وأنتم قد توليتم الامور وصفت لكم الولاية وارتفع النزاع .

فأجابوه الى ذلك، وهيأوا أنفسهم وتفقدوا أسلحتهم وجعلوا ينتظرون غرة الوثوب على المدينة على حين غفلة من أهلها، الى ان صادفوا خروج الامام لبعض مآرب بعيدة عن المدينة، فزحفوا بجيشهم وثارت الصيحة الى المدينة وكان أفلح فيها عند أخته قد ظفرت له أحد شقي شعر رأسه فقام قبل ان تتمم له الشق الآخر. وتقلد سيفه وقد اشتد غيظه، وزفرت نيران غضبه على الثائرين، وكان عظيم البنية قويا شديدا، واقتفى أثره أهل

المدينة مسلحين وتلاقى الفريقان لدى بابها، فوقف أفلح على العتبة مدافعا وانسلخت رجله الى العرقوب ولم يشعر بها وصارت الابطال تتوارد عليه وهو يناضل بسيفه متقيا بدرقته الى أن أبادتها السيوف، ولم يبق بها ما يصلح للتوقي به فاختطف احدى دفتي باب المدينة بيده وصار يتقي بها، وكان ممن أثقل كاهله بشدة البأس والقوة من مقابليه ابن فندين نفسه، فلوى عنان الطرف اليه وقصده وهو يسوق الناس ميمنة وميسرة، وعلى رأسه بيضتان وضربه على قمة رأسه فشقه مع البيضتين نصفين، وصوب معه السيف الى ان نشب في الباب فحس أفلح عند ذلك زلزلة واضطرابا في يده، لم يعهدها قبل ذلك فظن أن ذلك من صلابة رأس ابن فندين فقال ما أقوى رأسك يا بربري يا مشئوم ولما خر صريعا ورآه قومه بين القتلى، ولوا منهزمين وقد مات منهم بشر لا يقل عن اثني عشر ألفا سالت بدمائهم البطاح، وتلطخت بها الابواب ﴿**ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها**﴾ ولاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

فياليت الامام كفى المؤمنين عناء الحرب، بتسكين هذا الرجل من أول الامر، ولو بأدنى وظيفة من وظائف الدولة، حيث كان قيامه وخروجه انما هو لمجرد ذلك على ما صرح به حسبما مر، ولكن القضاء المبرم غالب ﴿**وما تشاءون الا أن يشاء الله**﴾ .

ولما افترق الجيشان قصد جمهور من أهل المدينة الى رد دفة بابها في مكانه فلم يقدروا، فقالوا لأفلح هلم لترد ما نزعت فقال ردوا عليّ ذلك الغيظ الذي كان بي أوان نزعه حتى أرده، والا فأنا الآن كواحد منكم، فتعاونوا عليه وردوه كما كان .

ثم عاد الامام من سفره، ووجد القتلى في اماكنهم والناس على أثر حرب مهولة في رعب وانزعاج، فاستغرب السبب وسأل عنه فأخبر بالواقع فأمر بجمع قتلى الفريقين، وصفت صفوفا وصلى على الجميع صلاة الجنازة تطيبيا لنفوس بقية أتباع ابن فندين، وتأنيسا لهم وتأليفا لقلوبهم، ولما وقع البحث عن شعيب وجد قد خرج عقب الهزيمة هاربا الى مدينة طرابلس، ولما وصلها أظهر البراءة من الامام والانكار عليه، وتغالى في ذلك حتى صار يعترض الحاج ابان التشريق ويعلن بذلك، فاتصل خبره بالمشرق فأجمعوا كلهم على البراءة منه ومن ابن فندين وأتباعه، الا من تاب، وأشد الناس عليهم في البراءة منهم العلامة الربيع رحمه الله، فانه كان يجهر بذلك في مجالسه، ويعلن بولاية الامام قائلا عبد الوهاب امامنا وثقتنا وامام المسلمين أجمعين، فإنّا برآء ممن خالفه أو أنكر عليه شيئا على غير حق، واذا قيل له كيف تبرأ من شعيب بدون حدث ؟ قال : وأي حدث أعظم من براءته من عبد الوهاب أمير المؤمنين .

وبموت ابن فندين انقطعت القلاقل وسكنت الحركات وانحسمت جرثومة الفساد، وانحاز من بقي من أصحابه الى ربوة خارج المدينة يعلو ظواهرهم الخضوع والمسكنة، وفي القلوب حزازات وضغائن لم ينشأ عنها شيء يكدر الراحة .

عودة الرسل من المشرق وما وقع بعد ذلك من قتل ميمون بن الامام

ولما عادت الرسل من المشرق بكتاب الربيع المتقدم، ومن معه من

المسلمين، وفيه ما مر من صحة ولاية الامام، وبطلان الشرط وغير ذلك، فرح المسلمون بموافقتهم الحق، وتأكدت أسباب المودة بينهم وبين امامهم، وازداد هو نشاطا في التقدم في الاصلاحات، وبينما الحال كذلك اذ أصبح ميمون ابنه قتيلا ممزق اللحم مفرق الاعضاء، ممثلا به تمثيلا شنيعا غدر به أصحاب ابن فندين، لما كمن في صدورهم من الحقد على الامام بسبب تلك الوقائع المتقدمة، ووقعة صاحب الصندوق، وكأنهم أرادوا بهذه فداء تلك، واذ بلغ الخبر الامام، قام مسرعا الى موقع الحادثة، ووجد ابنه ميمون الناصية ثمرة فؤاده على تلك الحال، فتسربل ثياب الصبر وأبرز من شهامته عظيم التجلد، وكامل الثبات، وان كان في نفسه من الكآبة والحزن ما يذيب المهج ويدك الجبال وقال وهو ينظر اليه .

أي بني اجتمع فيك ثلاثة، قولهم : ويل لمن مرت الخيل على كسائه، وقولهم، ويح من أصيب بليل، وقولهم : اذا مسست ابن السلطان فاسسه مسا عنيفا، ثم أمر به فكفن وشيعت جنازته حسب الواجب وغض طرفه عن الطلب بدمه، اذ لم يثبت ذلك على أحد ولم يعول على الظنون وأقوال المحركين وأرباب الاغراض، وكان شديد التحري في الدماء وحسب القائل بذلك حجة هذه الحادثة التي قل من يتربص إمامها التحقيق مع الاقتدار، وتوجه التهمة من أول وهلة الى أرباب الجريمة .

وكان لميمون ولد هو من النجابة والذكاء بمكان، رفيع فرق جده الامام لحاله، وولع به ولوعا زائدا واقامه مقام والده يتسلى به عنه، صارفا همته في تدريبه معمرا جل أوقات فراغه في تربيته وتهذيب اخلاقه وطبعه على الآداب اللطيفة، حتى شب على ذلك وحصل من العلوم النافع منها،

ولا غرابة اذ كان يغترف من ذلك البحر الزلال، كل ما رق وطاب من السحر الحلال ويختار النفيس من اللآلي ، من معدنها المباح له في الغدو والآصال، فما كذب اذاً من أطنب فيه المقال، ولا ينسب الى الاتيان بالمحال .

ولما حسن ذكره، وتأكدت الثقة به وتحلى بمحاسن الصفات، ورأى منه جده القـدرة على القيام بمعالي الأمور قدمه على جباية الحقوق الشرعية وغـيرهـا من مطالب بيت مال المسلمـين، فقـام بها عهد اليه قيام عاقل حكيم، يعامل الرعية بكل رفق وسياسة، وصار ينتقل من حي الى حي، حتى استخلص مطالبه بطيب نفس لا ازعاج ولا قهر، فيها لأحد الى أن بلغ مجتمع بقايا ابن فندين، فطالبهم برفق حتى استوفى حقه، وقبل ان يرتحل عنهم سمع بعضهم يقول وهو يعنيه (يا ابن المهدور دمه)، فتغافل عنه، وأوهم الحاضرين بأنه لم يسمع ذلك أو لم يدرك المراد منه، ولم يفه ببنت شفة سياسة ودهاء وتأدبا مع جده بعدم الدخول في أمر كهذا قبل استئـذانـه، وهذا يعد من نتائج تلك التربية وذلك الارشاد، فما أحسن العمل بالعلم، وما أبهى مراعاة الحقوق وجانب الأدب، وما أسلم عواقب الثبـات، ومـا أشـد تأثـير الدهاء، ونفوذ أعمال السياسة، وبعد استيفاء ما كلف بجمعـه من الحقوق قفل راجعا يحمله تيار الغيظ الى ان وصل (تيهرت) وفي الحال دخل على الامام جده وباح له بما حل به وما سمعه من القول، فأمره بالصبر والكتمان وعرفه بما لسفك الدماء في نظر الشرع العزيز من التعظيم، وأفهمه بأنه سيأخذ بثأر والده متى وجد لذلك سبيلا شرعيا ببينة لا تقبل الشك، ولو طالت المدة وامتد الزمان ان ساعد القدر، وكان

للعمر مجال يسع ذلك، ثم عمد الى البحث عن الجاني وثابر على ذلك حتى اتضح جليا بالحجة التي لا ريب فيها ان ذلك القائل من القاتلين لميمون المثلين به، فأرسل في طلبهم فامتنعوا واحتموا بمن كان معهم من بقايا قوم ابن فندين .

الأخـــذ بثـــأر ميمـــون

فوجـه اليهم حينئـذ جيشـا يرأسـه ابن ميمـون المذكور، فوافاهم في مواطنهم على مسـير أيام من المدينة مستعدين للقائه متحصنين، وما كاد يصلهم حتى شمروا لمبارزته وصففوا صفوفهم، وأوقدوا نار الحرب والتحم القتال بين الفريقين مدة أظهر فيها ابن ميمون من البسالة سعيا وراء ثأر والـده ما شتت أعداءه، فولوا الأدبار منهزمين وتركوا من قتلاهم ما يكثر عدده، وقد قيل ان بعضهم رام حصرهم، ولما رأى كثرتهم عمد الى أقل الاسماء استعمالا عندهم وهو هارون، فعد من سمى به من القتلى، فكانوا ثلاثمائة فانكسرت من هذه الوقعة شوكتهم، وتفرق جمعهم، وأخلد من بقي منهم الى الطاعة والانقياد فاستراح الامام عند ذلك، وعمت الطاعة سائر رعيته، الا أن بسبب توالي هذه الوقائع، وحصول هذا الافتراق في عصـابـة هذه النحلة، وهـو أول افـتراق وقـع فيها صارت الدولة مظنة للضعف، ومـرمى لسهـام الـطاعنين والطاغين من سائر الفرق الأخرى الداخلة تحت سيطرة هذا الامام ولوائه .

ولشدته ـ رضي الله ـ عنه مع ذلك في اقامة الحدود المرعية، والانتقام من كل من ظهر منه انتهاك حرمة من شعائر الدين المقدسة، تضايقت النفوس الميالة الى الهوى وحب اللذات والشهوات، انقيادا لقائد الاغراض، وطلبا

لحل عرى عقدة الاجتماع القاضية بالضغط على النفوس الشريرة، والمنع من تنفيذ المقاصد الخبيثة، ثار الثائرون من ذوي العصابات القوية، والأتباع الكثيرة من رؤساء العشائر والقبائل من اخوانه الاباضية وغيرهم، من الفرق الموجودة تحت لوائه كالواصلية من المعتزلة، وكالصفرية والازارقة، والعجم، فتكدر صفو الخواطر وتغير سماء الراحة، وكثرت الآراء والاقوال، وانتحل البحث في المذاهب، وعظم الجدال وفشت المناقشة في المسائل الخلافية بين علماء الفرق وأهمها مسألة الامامة، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها ويدعي انه أولى وأحق بها، ويقيم على ذلك الحجج ويرتب الأدلة .

فعظم التباغض، وظهرت مبادىء الاختلال والفساد، ونبغ في كل جهة داع للجدال، ومناد للمبارزة والنضال، وشنت الغارة في الأطراف ونصبت أعلام الفتن والحروب فسفكت الدماء بين أهل الاسلام والامر لله، وقطعت المواصلات من الجهات، لعموم البلوى بقطع السبل ونهب الاموال، فكان ذلك سببا لنهوض الامام رحمه الله واقتحامه المفاوز والوهاد لكبح جماح الطاغين، وقطع دابر المفسدين، فشمر عن ساق الحزم وكشف عن ساعد الجد، وجمع العساكر وجهز الجيوش، ووالى الحروب الهائلة وصرف الأموال الطائلة، حتى أخمد نيران تلك الفتن، وشتت شمل تلك الجموع القوية الطاغية، بعد وقائع يشيب لهولها الشباب، وأعظمها خطرا تلك الحروب الواصلية .

الفصل الثالث

خروج الواصلية من المعتزلة عن الامام وحروبه معهم

كانت الواصلية، وهى فرقة من المعتزلة في جموع قوية عددا وعدة بجهات المغرب، وهم قوم من البربر أكثرهم من قبائل زناتة، لهم رئيس في مدينة قريبة من مدينة طنجة، وهو الذي بايع ادريس صاحب المغرب الأقصى، وكان بنواحي تيهرت، منهم فريق لا يقل عن ثلاثين، وقيل عن أربعين ألف مقاتل، فيهم من مشاهير العلماء وأبطال الحرب، وأولى الثروة عدد وافر لا ينكر قدره، يفوق الكل رجلان أحدهما عالم غائر اللجة حائز قصبة السبق في ميادين المناظرة ذو علوم جمة ولسان طلق، ومنطق بليغ وله في المجادلة أطوار وطرق يعجز دونها فحول العلماء، قد أعجب بنفسه فأضحى يزخرف للملأ مذهبه ويزين حججه، ويطلب مناظرة كل من ينسب الى العلم من علماء غيرهم من الفرق، وبفوزه في مواطن متعددة، تطاول الى الامام وفتح معه أبواب البحث وجرت بينهما محاورات عديدة، كاد الامام يعجز فيها عن الجواب .

والآخر وهو ابن رئيسهم، فتى عرف بالشجاعة وشدة الاقدام والبسالة، وشهر بالفروسية والبطش بكل من بارزه، حتى صار أشهر من نار على علم في تلك الاقطار .

فاهتدت رجال هذه الفرقة الى تأليف القلوب، وبث روح التعارف بين افرادها، حتى اتحدت كلمتهم وتوحد رأيهم، فقامت تشق عصا الطاعة تأسيا بابن فندين وتطلب الاستقلال والخروج عن حكم الامام، زاعمة انها

في درجة يمكنها ان تحكم فيها نفسها بنفسها، وان تقوم بادارة شئونها، وكأنها رأت ان من العار عليها خضوعها لمخالف لها في المذهب، مع وجود رئيس لها يدعي الامـارة، ولعل هذا الرئيس أغراها على ذلك، فتكاتب رؤساؤها على الخروج ومناصبة الامام الحرب، وأتوا من أقاصي الأطراف رجالا، وعلى كل ضامر من كل حدب ينسلون، حتى اجتمع منهم وممن انضم اليهم ممن يسعى في الارض فسـادا من غيرهم قريبا من المدينة، جيوش غطت السهل والجبال، فناصحهم الامام المرة بعد المرة، وخوفهم الـوعيد وكـرر لهم الارشـاد والتنبيه، ودعاهم الى ترك ما به ضلوا، والى الاستسـلام والسكـون، فلم يكن منهم الا العتـو والعناد والجهر بانكار امـامته، ثم بدأوه بالحرب، فصار يجهز اليهم العساكر ويسوق الجيوش فتـظفـر تارة، وتهـزم أخرى، وفي كلها لم يدرك ذلك الفتى ابن الرئيس المعتزلي أحدا من الفرسان، الا ويقتله ويتولى سلبه حتى تقهقرت امامه الأبطال، وطار صيته فهابه كل موسوم بالشدة والبسالة، ولما كان الامام لا يقل عن درجة والده في الدهاء، ان لم يتجاوزها وعلم انه قد انتقل من حرب قوية (حرب ابن فندين)، الى حرب أقوى منها مع قوم هم أشد من الاولين بأسا، وأكثرهم قوة، وان الاسترسال في ذلك ربما يؤدي به الى ما لا تحمـد عقباه، دعاهم الى الاتفاق على هدنة الى أمد معلوم، يكف فيها القتال ويقصر فيها الفساد، وينظر فيما هم قائمون لأجله، ولعله يهتدي الى مافيه اصلاح الحال، فأجابوه الى ذلك وكف القتال واستراح الناس

طلب الامام الاعانة الحربية من جبل نفوسة لمحــــاربة الواصــــلية

لما أنهى الامام عقد الهدنة مع الواصلية، صرف همته الى الاستعداد لهم وتهيئة ما يطفىء به جذوة نفاقهم، ولما كان جبل نفوسة وما يليه من حيز طرابلس من جملة ولايات مملكته التي تدين بطاعته، وتتفانى في رضائه، وفيه من أهـل النجـدة والشجاعة وأبطال الحرب وفحول العلماء ما يعد بالألوف، رأى ان يطلب منهم الاعانة على مستقبل حروبه، فأرسل الى عامله بالجبل كتابا طلب منه جندا يتألف من أربعمائة نفر مائة منها من خيرة فرسان نفوسة، وصناديدهم المهارسين لفنون الحرب الماهرين فيها الموصوفين بشدة الاقدام، ومائة من المتبحرين في علم التفسير، ومائة من علماء الكلام الـواقفين على نزغات الفرق العارفين بطرق الرد على المخالفين، ونقض مقالاتهم، ومائة من العلماء المتضلعين في مسائل الحلال والحرام .

ولما بلغ العامل أمره المطاع جمع أهل النظر في الامور وأصحاب الرأي وعـرض عليهم كتاب الامام، وبعد مذاكرة وتربص في الأمر اتفقوا على توجيه أربعة من خيار رجالهم قد شهروا في اصنافهم بعلو المنزلة والكمال ليقوم كل واحد منهم مقام مائة ممن طلبهم الامام، وهم العلامة المتكلم مهدي النفوسي والعلامة المفسر محمد بن يانس، والعلامة الفقيه أبوالحسن الأبدلاني، والفارس الشجاع البطل الشهير العلامة أيوب بن العباس .

فأرسـل العـامـل اليهم، ولـما حضروا عنده أخبرهم باتفاق اخوانهم المسلمين على ارسالهم الى المغرب، اجابة لطلب الامام، فاجابوا بالسمع

والطاعة مسرورين وبعد أن هيأوا أنفسهم للسفر، وودعهم اخوانهم ودعوا لهم بالفوز، ساروا على بركة الله ملحوظين بعنايته محفوظين برعايته .

ولما تجاوزوا حد جبل نفوسة، ودخلوا البادية احتاجوا الى من يقوم بخدمتهم، فطلب ابن يانس وهو منهم ان يتولى ذلك بنفسه، وان يقوم بأمورهم الى أن يصلوا المغرب، فامتنعوا وأبوا نظرا لعلو مقامه ورفعة مكانه عندهم، فألح عليهم في الطلب الى أن ساعفوه، وصار كلما نزلوا منزلا هيأ لهم مقعدهم ومصلاهم، وربط خيلهم وأحضر لهم الطعام والماء، حيث يلزم للشراب أو الوضوء، ثم اذا صلوا وناموا قام الى التهجد والصلاة فيظل راكعا ساجدا حتى يطلع الفجر، فينبههم ويهيىء لهم الخيل، وبعد الصلاة جماعة يركبون وكان هذا دأبه ودأبهم، وهو صائم النهار قائم الليل، فشق عليهم الأمر شفقة عليه فسألوه الرفق بنفسه والتخفيف مما هو عليه، إما بترك الصوم، وإما بترك جانب من السهر والقيام بالليل، فأبى إلا التمادي، وأبوا الا التخفيف، ولما لم يمتثل قالوا له اما أن تترك السهر، واما ان ننظر غيرك لخدمتنا، وأما قيامك بخدمتنا بالنهار مع الصوم والقيام بالليل الى الصباح فلا نرضاه منك بعد هذا اليوم، وان لنفسك عليك حقا فحافظها .

ولما لم يجد ملجأ مما الزموه به قال لهم : اني رضيت بحكمكم الا اني أستأذنكم في صلاة ركعتين كل ليلة مع البقاء على خدمتكم، فرضوا بذلك وأذنوا له .

وفي الليلة المقبلة قام بعد أن ناموا ليصلي الركعتين فقرأ في الاولى النصف الاول من القرآن وفي الثانية النصف الثاني، وما سلم حتى طلع

الفجر وفطنوا له فازدادوا اشتغالا، وقالوا له قد نهيناك عن طريق فسلكت أشد منه فانك كنت تستريح في كل ركعتين برهة من الزمن لقراءة التحيات فصرت تقف من العشاء الى الفجر، فارجع الى ما كنت عليه أولا، فانه أخف مشقة وقد رضينا بك خادما .

فرجع إلى ذلك ولم يسأم رحمه الله ولم يقطع عادته طال الليل أم قصر صحا الجو أم أمطر إلى أن وصلوا تيهرت ومما يحكى عنه انه قام حسب عادته في ليلة ذات برد شديد ورياح عاصفة ومطر قوي، فانتبه أحد رفقائه فرآه واقفا يصلي والريح تعبث بطرف كسائه كالعلم، فقال ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثلك يا ابن يانس ستصيبك فيها الوحشة، فلله دره من مجاهد صابر مخلص جامع بين خدمتي الظاهر والباطن، ورحمه الله رحمة واسعة، هذا ما كان من أمر هؤلاء .

وأما الامام فانه بقي في انتظار جيش نفوسة منذ أرسل الكتاب إلى الجبل ونذر أن يعتق من يبشره من مماليكه بوصوله فصاروا يترقبون ويقفون على قارعة طريق الشرق، ويستخبرون من القادمين أخبارهم، وكان له مملوك أعرج لا يقدر على الخروج فلازم احدى شرافات السور ناظرا نحو طريق الشرقيين غير غافل عن المماليك الواقفين هناك، إلى أن رآهم يوما يتسابقون إلى المدينة، فأدرك انهم ما تسابقوا الا ليبشروا بوصول الوفد، فنزل ودخل على الامام قبل أن يصلوا وأخبره، فوفاه بما وعد به من العتق، ولما وصل الآخرون ليبلغوه الخبر قال لهم (فاز بها الاعرج)، فأرسلها مثلا، وهو أول من قالها ثم وصل النفوسيون، واذ علم انهم أربعة لاغير وقع في نفسه ما وقع من اتهام نفوسة بالتقصير في اعانته، اذ طلب أربعمائة وقيل أربعة

آلاف وجاءه أربعة رجال فقط .

فأمر بانزالهم في دار الضيافة، وبعد استراحتهم اجتمع بهم وأظهر لهم السرور التام بقدومهم، وان كان في نفسه من الانكسار ما كان .

وبعد أن أخبروه بوظائفهم، وبما كلفهم به اخوانهم وتعهدوا لهم بالوفاء به طابت نفسه، وقال لمهدي اصغ إليّ حتى أعرض عليك ما جرى بيني وبين المعتزلي من المحاورات لتكون على بصيرة من الامر، وتعلم مقدار معرفته فأصغى اليه، وصار يسرد له الحديث، وكلما رأى خطأ في كلام المعتزلي قال ها هنا حاد عن جادة الصواب، وسفسط، وكان من الصواب ان تجيبه يا أمير المؤمنين بكذا وكذا، فأطلع الامام عند ذلك على جميع أخطاء المعتزلي في كلامه وأدرك حيلته في السؤال والجواب، فازداد بذلك سرورا، ورجا بلوغ القصد وهمّ بالأمر بالمناداة في القبائل للاجتماع، وفتح باب المناظرة أولا ثم المبارزة فقالوا له دعنا أياما نستريح فيها، وتستريح دوابنا فقد أضناها السفر ولحقها التعب، فترك الامام ما هم به، والنفوس من الفريقين في اشتياق إلى رؤية النفوسيين اذ كان لمجيئهم صدى أطبق الاقطار .

وفي بعض تلك الايام تغيب مهدي عن رفقائه من الصبح، لم يأتهم الا في الليل، فغلط في عجين كان في وعاء بجنب عشائه فأكله، وبعد أن أتمه قال لهم أرى ان عشاءكم لم ينضج كثيرا، واذ تحقق غلطه قال اني احمد الله على ثلاث خصال، لم أرها لغيري، أقضي أربي من كل طعام صادفته، ولا يلحقني ضرر منه، وأقل شيء من النوم يكفيني، ولا يضرني السهر ولو توالى، ولا أخاف باذن الله مخالفا ان يضحض حجتي الا ان داهنت في دين

الله (لا سامح الله)، ثم قال لهم : قد أفحمت في هذا اليوم تسعين عالما من المخالفين واسترحت منهم والحمد لله، ولما قرب انتهاء مدة استراحتهم تقدم أيوب إلى الامام وقال له : ان جوادي قد أضعفه السير وأدركه الحفاء، وأخاف أن لا يقوم بحاجتي عند مبارزة فارس المعتزلة فاختر لي غيره من خيل بيت المال، فأمره الامام ان يدخل المحل ويختار ما أعجبه منها، فدخل وكلما رأى جوادا حسن الصورة قوي البنية قبض على ناصيته بيده وجذبه اليه فلا يثبت ويكاد يقع على ركبتيه فيتركه، وينتقل لغيره وهكذا حتى أتى عليها كلها ولم يجد فيها ما يناسبه فقال عليٌّ بجوادي فأوتي به اليه وفعل به كما فعل بغيره فرآه لم يتزحزح عن مكانه وأرسى أرجله في الارض ثابتة كأنها ضربت بمسامير فقال البركة في البرذون فأرسلها مثلا، وأخذه وعالجه بالدهن والرمل المحمس حتى زال ما به من أثر التعب .

المنـــــاظرة والمبـــــارزة

وبعد أن انتهت مدة استراحتهم دعا الامام المعتزلة إلى الطاعة فأبوا فنادى مناديه بالحضور إلى المناظرة والمبارزة، فهرعت من الفريقين أمة كالجراد المنتشر شاكة السلاح في خيول تدك حوافرها الجبال، ورجال تذيب لامة حربها مهج الابطال، أزعج ضجيجها الثقلين وسد نقع غبار حركتها ما بين الخافقين، في يوم بلغت فيه أرواح الفريقين الحناجر، وخطب فيه خطباء الرخم والسباع على المنابر، وزلت فيه عند الامتحان أقدام الطاغين ورفعت فيه رايات النصر لاهل الحق المبين، وكان القائم بأمر المناظرة في هذا اليوم المشهود من الاربعة المذكورين، ذلك العلامة المقدام السميدع الهمام خائض لجج الفنون على الاطلاق، حائز قصبات السبق في ميادين

السباق، الشيخ مهدي النفوسي بعد أن عرضها على العلامة ابن يانس، وقال له تقدم أنت ولست بأعلم مني .

وكأن المعتزلي داخله الرعب أو قصد الخيانة فقال لمهدي : مالنا ولابداء عوراتنا للناس، وكلانا ممن شهر في قومه ونال الصيت البعيد، فهلم لنتعاهد على أن يستر كل منا صاحبه سواء حاججتني أم حاججتك، ولا يعلم أحد بمن كانت له الغلبة منا على صاحبه، أجابه مهدي لذلك وقد أدرك انها مكيدة منه، وقال لأصحابه : اني قد عاهدته على الستر وعدم التكلم، ولكن اذا نزعت القلنسوة من رأسي ووضعتها تحت ركبتي فادركوا اني قد فزت عليه، وظفرت بالقضية .

ولما خرجا إلى ما بين الصفوف، ومع كل منهما خواصه من العلماء كان الامام معهم فتناظرا في المسائل الخلافية وأطالا في ذلك، ودخلا أبوابا وفنونا صعب على الحاضرين فهمها، حتى كان الكلام بينهما كصفق الحجر لا يدرك أحد من الحاضرين معنى له على ما قيل ثم عجز المعتزلي وسلم .

فنزع مهدي قلنسوته كما وعد به أصحابه، فكبروا لما رأوا ذلك تكبيرة رجل واحد بلغ صداها عنان السماء، فبهت المعتزلي، وقال : غدرت يا مهدي وخالفت العهد، وما هكذا كان الوعد بيننا، وقاما والفخر يصاحب هذا والقهر يؤازر ذاك، فبرز على أثر ذلك فارس المعتزلة وابن رئيسهم في هيئة مرهبة شاك السلاح على جواد سابق، وهو يزأر كالأسد ويرمح كالعقاب، ويظهر للناس من أنواع فروسيته ما جعلهم في غرابة وعجب .

فخرج أيوب من بين الصفوف يقود جواده مع سكينة وهدوء إلى أن

تراءى للفريقين، وكانت العيون شاخصة لرؤيته مصوبة السهام نحوه من كل الاطراف، لما يبلغهم من أخباره في الفروسية وشهرته، ولما أراد الركوب وكلهم ينظرون تجاهل فركب من جهة اليمين خلافا لما هو المتعارف عند الناس من الركوب من جهة الشمال .

فضحك المستعجلون من المعتزلة، الذين لا علم لهم بمكائد رجال الحرب واستبشروا وضمنوا الفوز لصاحبهم، الا والده فانه أدرك ذلك في الحال وقال متأوها وقلبه يرجف، ولسانه يتلجلج هيهات هيهات الآن حل أجل ولدي اذ جاء قاتله بلاشك .

فسأله بعض الناس عن ذلك، فقال ألم تروا كيف تدلى اليه فرسه ولا يفعل الفرس ذلك الا مع الفارس الحاذق .

وبعد أن استوى مهدي على ظهر جواده قذف حربته في الهواء كما هي عادته، حتى كادت تغيب وكانت تزن ثمانية عشر رطلا وهيأ لها رمحه فجاءت فيه مستوية متمكنة لا تحتاج إلى تركيب، وذلك أول ما ألقى به الفزع في قلوب الناظرين، فأستعظموه وهالهم أمره ثم جال في ذلك المضمار جولان الاسد الضائر، وأقبل وأدبر مع المعتزلي على جواد كالعقاب الطائر .

(مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل)

حتى رأى منه الاقران من فنون الاحتيال وغريب طرق الفروسية في النزال وبديع الخداع في الاقوال والافعال، ما قذف في قلوبهم الرعب وصدهم عن القتال .

وما كان غير ساعة حتى التقم فارس المعتزلة وابن رئيسهم التقام عصا

موسى سحر سحرة فرعون، وجندل به الارض مع ذلك الجواد المستأسد، وذلك السلاح المكنون، فتحمست المعتزلة وزحفت إلى القتال فتسعرت نار الحرب بين الفريقين برهة من الزمن، حمي فيها الوطيس واشتد الخطب وعظم المصاب، وكان افلح بن الامام وأيوب يجزان الهام ويشتتان الصفوف ميمنة وميسرة، إلى أن سقط في أيدي القوم ورأوا أنهم قد ضلوا وضربت عليهم الذلة، وباءوا بغضب من الله، وولوا الادبار منهزمين، وقد مات منهم خلق كثير حسبوا منه ما قتله افلح وما قتله أيوب فوجدوا لأيوب قتيلا زائدا على أفلح، وكأن كلا منهما استقل بجهة، والا فكيف يصح تمييز ذلك خصوصا في يوم كذلك اليوم المزدحم والله أعلم .

وكان أيوب قد أحس في اثناء الضرب بزلزلة شديدة في ذراعه، فاخبر بها بعد ذلك، وقال اني قد ضربت شيئا صلبا لا أدرى ما هو ولا أظنه آدميا فتصفحوا القتلى فوجدوا بينها عمودا قائما، ولما جسوه بأيديهم وقع إلى الارض نصفين فعلموا أنه هو الذي أخبر به أيوب، وقد ضربه وهو يظن أنه رجل، وكان لسيفه مقدار شبر لا حد له مما يلي مقبضه لكي لا يضره ان جعله على عاتقه اذا سئم من حمله، أو تعب من الضرب به، وبعد استسلام المعتزلة واقرارهم بالطاعة التامة، لم يبق لهم طمع ولا رجاء في القيام بعد هذه الحادثة .

فعاد الامام إلى عرش خلافته يكتنفه الظفر، ويتوجه الفخر، وقد ناله من الجذل ماحمله على نشر الثناء الفاخر، والذكر العاطر على ذلك الوفد النفوسي المنصور .

استدعاء المعتزلة أبا العباس للضيافة

بقصـــــد الغـــدر بـــــه

ثم بعد ذلك بيومين على ما قيل، أرسل وجوه المعتزلة إلى أبي العباس يدعونه للضيافة عندهم، فمنعه خواص المسلمين وحذروه الغدر به، فأبى الا اجابة دعوتهم والمسير اليهم، ولما وصلهم رحبوا به وأظهروا له من أنواع التبجيل ما ظنوا انه أغتر به، ولدى اجتماعهم وتبادل الرأي في كيفية غدره وقتله، رأوا أنه لا يمكنهم ذلك وهو في اليقظة لما علموه من شدة بأسه، وأجمعوا أخيرا على أن يكثروا له من الاطعمة الجالبة للنوم، حتى اذا نام قتلوه، فقدموا له عند العشاء قصعة طعام عليها عجل صغير برمته، وقربة من اللبن الحامض وكان رحمه الله عظيم البنية جدا كثير الاكل فاستوفى الطعام أكلا، وانتقى العظام عظما عظما، وشرب ذلك اللبن كله اظهارا للقـوة أمـامهم، اذ فهم مرادهم من ذلـك، ثم استوى في وسط الخص متربعـا، وأخـذ في تلاوة القرآن العظيم حتى طلع الفجر فصلى الصبح بوضوء العشاء اذ لم ينتقض، لا بنوم ولا بحدث وكأن ما أكله من الطعام واللحم، وما شربه من اللبن لم يكن شيئا مذكورا .

ولما طلعت الشمس طلب جواده ليذهب فأحضره وقد أبهرهم ما رأوه منه في تلك الليلة، وقالوا له : ان فتيان الحي طلبوا منك ان تعلمهم شيئا من الفروسية ومما عندك من فنون الحرب، فقال أجل : وليحضروا فركبوا خيلهم وبأيديهم قضبان ليعلمهم كيفية العمل بها عوضا عن السيوف، وكان فيهم رجل مشهور عندهم بالاقدام والقوة تعهد لهم بقتله، وبينما هم

في أثناء التعلم أخذ الرجل في الاحتيال لضربه ففطن له وتغافل عنه، حتى هم به فاتقى ضربته، والتفت اليه فصرعه إلى الارض ميتا، ومال عن يمينه فقتل ثمانية ثم عن شماله فقتل مثلها، وصاح بنساء الحي وهن يرقبن ويبكين فقال: أزيد أم يكفيكن، وترك الكل في نحيب وعويل وتوجه راجعا من حيث أتى فمر بواد فيه سباع، قل من يتجاوزه وينجو سالما، ولما أحسوا به تسارعوا اليه فشمر لهم عن ساعده، وقطع أرجلهم وتركهم يزحفون، وجاز على بعض أحياء البربر فقال لهم من أراد اللحم المكروه فليذهب إلى الوادي الفلاني، ولما جاء إلى الامام ورفقته أخبرهم بما جرى فحمدوا له السلامة وشكروا الله على نجاته وخلاصه من هذه المكيدة.

ذكر هذه الحكاية كما سمعتها كل من العلامة الشماخي والعلامة أبي زكرياء رحمهما الله والظاهر ان في كلامهما اختصارا مجحفا بما يقتضيه المقام من الايضاح، والا ففي بعضها عندي نظر فان استدعاء المعتزلة أبا العباس بعد يومين من تلك الحرب العظيمة، مع ما حصل منه فيها مما يستبعده العقل جدا، ثم أجابته دعوتهم وذهابه اليهم بدون رفقة كما يفهم من كلام الشيخين أشد بعدا، اللهم الا ان تكون الحكاية واقعة قبل اعلان الحرب رسميا لا بعدها أو كان الذين دعوه لا دخل لهم في هذه الحرب، وانه استصحب معه رفقة، وأهمل الشيخان ذكرها، والله أعلم بالحقيقة، وكان يقول لا أعلم أن لي مقابلا يبارزني فيما بين مصر وفاس، وبعد أن قضوا وطرهم من (تيهرت) في أيام وليالي قطعوها بين احترام وتعظيم، ونالوا حسن التوجه من الامام وتزودوا بالدعاء من أكابر العلماء، وأفاضل الصالحين، والاولياء عطفوا أعنتهم نحو وطنهم، ومقر عزهم موطن الفخر

والعلاء، اذ ذاك ذلك الطود الشامخ عالي القمم والهمم مرتفع الرؤوس والنفوس (جبل نفوسة) سيد جبال الغرب، ومجمع الفحول من الرجال ومنبع علوم المعقول والمنقول في ذلك الوقت بلا جدال .

ولهؤلاء الاربعة فضائل ومآثر كثيرة وكرامات، ذكر الشماخي رحمه الله بعضا منها فلتراجع هناك .

ومما يؤثر بالذكر من كرامات العلامة مهدي في هذا السفر، ما ذكره الشماخي من انهم ضربوا أخبيتهم في الطريق أثناء رجوعهم (تيهرت) لحر أصابهم، وكان مهدي خارج الاخبية فسمعهم يتمنون أمورا خطرت لهم فقال أحدهم : لا أتمنى في هذا الحر الا لبنا صافيا باردا، وقال آخر ما مناي الا شربة من ماء (أيندل) وهى عين بقرب الجزيرة المعروفة بقرب (مدينة شروس)، ولم اقف على ما تمناه الثالث، ولما سمع ذلك منهم دخل اليهم وسألهم، عهد الله وميثاقه على كتمان ما سيطلعهم عليه من السر، فاعطوه العهد على ذلك فحل وكاء قربة لهم فيها شرابهم، وصب منها لمن تمنى اللبن لبنا خالصا، ولمن تمنى الماء ماء لا يشك في انه من عين (أيندل)، وصب للثالث ما تمناه أيضا، فحمدوا الله على نيل مطالبهم، وشكروا فضل مهدي وزادوا في توقيره لما رأوه من الكرامة على يديه، وجدوا السير إلى أن وصلوا الجبل، وقد خلفوا الامام بتيهرت راضيا مستريح البال، لا حرب ولا شقاق ولا نفاق، إلى أن تنوسي الامر بمرور الزمان، وبلغ الامن منتهاه، وحدث من لم يحضر تلك الوقائع من حديثي السن وقريبي العهد بالدخول في زمرة المعدودين من الرجال، وأولي الثروة فنبت في قلوبهم بذر النفاق، وسرى فيهم سم الخيانة، فكانوا سببا لحصول وقائع وحروب

اخرى، حملت الامام ودولته مشاق التجهيزات والخسائر القوية في الاموال والرجال، وقد ذكرها ابن الصغير المالكي مفصلة على وجه لم يذكره غيره من المؤرخين، فخذها على سبيل الاجمال طبقا للقاعدة المتقدمة .

حـــرب أخــــرى لهـــذا الامـــام

(ممزوج) جرت عادة قبائل البربر وغيرهم من سدراتة ومزاتة وغيرهما من أهل البوادي، أن يرتحلوا من أوطانهم التي يجتمعون فيها من بلاد الزاب وغيره من الجهات في زمن الربيع الى حوالي (تيهرت) وما يليها من الأودية والجبـال والغـابات، لما فيها من العشب والاتساع مع الأمن، ولما يجري لرؤسائهم عادة من الاكرام، والضيافات والاحسان من أقاربهم وأحبابهم الذين هم بالمدينة، ومن وجوهها وتجارها مع مشاركتهم في الرأي فيما يختص بمصالح الاسلام، والامام ولأداء حق التزاور في الله وصلة الرحم .

ولما دار في الخواطر هاجس الفساد وسرى سم النفاق في صدور أهل البغي والعناد، من أهل المدينة، كان الارتحال من قضاء الله في سنة من السنين (ولم يعين ابن الصغير تاريخ تلك السنة)، خارقا للعادة فجاء من كل قبيلة وفرقة خلق لا يحصى، حتى امتلأت المدينة برؤساء تلك العشائر فوجـد اربـاب الفساد، ومن قصد الشقاق من رجال المدينة فرصة لبثّ وسائل البغضاء، وبذر ناقع السم في الدسم، فاستمالوا القوم على حين غفلة من انفسهم ونـاجـوهم بالـطعن في ولاة الامام وقضاته وأصحاب شرطته، وقالوا لهم : قد ساقكم الله الينا وأنتم من أكرم الاضياف يسمع لكم القول، ويقبل منكم النصح، وقد تعين عليكم الدخول إلى الامام لتسألوه عزل هؤلاء الولاة وتبديلهم بغيرهم ممن يحمد الناس سيرتهم، (ولا

يخفى على العالم الخبير ما عليه غائب أهل البوادي من جهل السياسة الحضرية، وعدم ادراك حيل ومقاصد أهل الحضر، شأن سائر أرباب البادية)، فأثر ذلك في نفوسهم، وظنوا أن ذلك من النصيحة في الدين بمكان كبير، به ينال المرء عظيم الدرجات عند ربه.

فأجتمعوا واستأذنوا على الامام فاذن لهم، ولما دخلوا تلقاهم حسب عادته بكل بشاشة وقابلهم أحسن مقابلة، وبعد تبادل عبارات التحية قام متكلمهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: ان رعيتك يا أمير المؤمنين قد ضجت من قاضيك، وصاحب بيت مالك، والقائم بشرطتك، وقد جئناك نطلب منك أن تستبدلهم بغيرهم ممن يرضونه من خيارهم، وبذلك تحوز رضاءهم وتفوز برضاء مولاك.

فأظهر الامام الارتياح لهذا الطلب، وقال لهم جزاكم الله من وفد خيرا، فقد افتقدتم من الاسلام ما يفتقده من كان مثلكم وهأنذا قد فوضت لكم الامر في ذلك، فبينوا لي من ترونه صالحا لذلك لأقدمه.

فدعوا له وأثنوا عليه بخير، اذ ساعفهم فيما اقترحوه عليه، وانصرفوا فدخل على الامام بعدهم وجوه رجال دولته وقواده وأهل الاصلاح من جماعة المسلمين، وقالوا له ما بال اخواننا أتوك اليوم بأجمعهم، وأخليت لهم المجلس وحجبت غيرهم، ولعلهم أشاروا بخير ودلوا على صلاح ؟!.

فذكر لهم ما قالوه مفصلا، وما أجابهم به فاغتموا وقالوا له: قد أسأت إلى نفسك وإلى جميع اخوانك المسلمين ورجالك، فقال: وكيف ذلك وقد قالوا خيرا وما سألوا شططا؟!، فقالوا: لو كان ذلك منهم لقصد الاصلاح والنصيحة في الله لهان الامر، ولحسن المآل، ولكنهم سألوك عزل من أرادوا

من رجالك بدون سبب ليحرفوا عنك قلوب العامة، ثم اذا فعلت ما طلبوه شكروك وحمدوا فعلك، وأتوك بعد ذلك قائلين ان المسلمين قد نقموا عليك أشياء أخرى فاتركها، فان أجبتهم إلى ذلك شكروك وان أبيت خلعوك، ثم لا تأمن وان أجبتهم إلى كل ما سألـوه ان يقـولوا لك ان المسلمين لم يجتمعوا عليك في ابتداء أمرك، فاردد اليهم أمرهم حتى يجتمعوا عليك، ويكون ذلك زيادة في شرفك .

وعلى كل حال فسؤالهم هذا هو عين الفساد وأُسّ الاضطهاد .

فأمعن الامام النظر، وقدح زناد الفكر في الكلامين، إلى أن أدرك سر الطلب، وما كمن فيه من المكائد، فقال : وما الرأي الآن وقد تقدم مني لهم من الجواب ما سمعتموه، ولا يجمل بمثلي الرجوع فيما قال ؟، فقالوا له : ان الامر في ذلك سهل، قال وكيف ذلك ؟ قالوا : اذا رجعوا اليك غدا لانجاز الوعد فقل لهم ان لنا ولكم اخوانا لا غنى لنا عن مشاركتهم في الرأي في أمر عظيم كهذا لما فيه من العزل والتولية، فيجب حضورهم معنا ثم اجمع بيننا وبينهم فنكفيك مؤونة الجواب ان شاء الله .

وفي الغد دخل القوم على الامام في الوقت المعين لهم لاتمام ما وعدهم به، وبعد تمكن كل من مجلسه سأل مقدمهم من الامام الوفاء بالوعد فقال ـ رضي الله عنـه ـ : اني على ما عاهـدتكم به من قبل، ولكني أرى من القبيح بي وبكم أن نستأثر بمثل هذا الامر دون اخواننا، لما فيه من تغيير قلوبهم وكسر خواطـرهم المـوجبـين لشتات الرأي والاختلاف، فقالوا : صدقت وأصبت فأحضرهم، ولا نراهم الا موافقين لنا، فأمر بهم فحضروا في الحال، وقال لأولئك أخبروا اخوانكم بما به أشرتم وبما لأجله اجتمعتم،

فبينـوا لهم عند ذلك ما دار بينهم وبين الامام من الكلام، فقالوا لهم : جزاكم الله عن الاسلام وأهله خيرا على هذا الاهتمام الا اننا نطلب منكم بيان علة هذا الطلب والداعي اليه، اذ لا يخفى على كل عاقل مثلكم ان العزل بدون سبب بين وجرحة واضحة، لا يمكن ان يصدر من الامام لما قد ينشأ عن ذلك من المضار، فأبرزوا ان علمتم شيئا يوجب ذلك حتى يجعله الامام حجة عليهم جبرا للخواطر، وأما العزل بمجرد سعي السعاة فلا نرى انكم تطلبونه مع ما أنتم عليه من الدراية والعقل، فلم يكن منهم الا أن قالوا هذا رأي حادث وأمر مبرم، وما هكذا كان اتفاقنا مع الامام بالامس .

ثم خرجوا ممتلئين غيظا حالفين على أن لا يدخلوا في أمر دون عزل من سألوا عزله أو محاكمة الامام، فشاع خبرهم بين قبائلهم وانضم اليهم لفيف من النـاس، ومن كان على رأيهم، وظهـرت المنـاقشات في ذلك وفشى الخلاف واتسع خرقه، فاستشار الامام رجال دولته ومن تجب مراجعته من ذوي الرأي والعلم، فأشاروا عليه بالقاء المواعظ اليهم، واعلامهم بحرج موقفهم وانـذارهم بسـوء عاقبة ما انتحلوه من الشقاق، ان لم ينتهوا عما يقولون، ثم ان أصروا وأبوا الا العناد والعتو في الارض، كانوا بغاة فيجب على الامـام والمسلمـين ردعهم وقتالهم عملا بقوله تعالى : ﴿**فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾ .

فعمل الامام بمقتضى هذه الاشارة ولم ير منهم الا الاعراض والعناد والسعي في اثارة الفتنة ، فشمر لاقناعهم بالسيف .

قال : فلما رأى ذلك عبد الوهاب، ومن معه برز اليهم، فما كان الا

كلمح البصر الا وجميعهم صرعى، الا من شذ، وولوا ولم يتبعوا لهم موليا، ولا أجهـزوا لهم على جريح، ثم انصرف عبد الوهاب قافلا بمن معه، وولت القبائل الداعية إلى مواضعها واستملك الأمر لعبد الوهاب، وبقيت حزازات في النفوس في قلوب عشائر من قتل، ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوي وانتقل من حال الامامة إلى الملك(١هـ) .

تـزوج الامام مـن قبيلة لواتة وحـرب بـني مسـالة معـه لـذلك

«ممـزوج»

لا يخفى أن القبـائـل الكثيرة العدد، قلما تخلوا في الغالب من رؤساء متعددين متفاوتين في كثرة الاتباع، والمنتسبين اليهم، وقد كانت القبائل القـاطنـة بازاء (تاهرت)، على هذا المنوال فكانت في هوارة تلك القبيلة الطويلة العريضة من الاباضية رؤساء مقدمون، يقال لهم الاوس ويعرفون ببني مسالة، فتقرب رئيسهم لرئيس قبيلة لواتة، (وقيل لغيرها من قبائل البربر الكبيرة) بقصد مصاهرته في ابنة كانت له، توصلا إلى تعزيز جانبه بضم تلك القبيلة اليه .

ولما أحس من له بصيرة وعلم بحقيقة ذلك، أشار على الامام بالمبادرة إلى تلافي الامر، بأن يخطب البنت ويتزوجها او يسعى في تزويجها ممن يأمن شره إضعـافا لشوكة ذلك الرئيس، وابعادا له من الالتحام بقبيلة البنت وانضمام القبيلتين بطريق المصاهرة، اتقاء من حصول الاتحاد على الفساد والتعصب (وهكذا شأن الملوك في سياستهم حتى الآن، فانهم يخافون من

حصول الوفاق بين القبائل ولا يطمئنون لكل من رآو له اتباعا من الرؤساء وأصحاب الطرائف ، لما ينشأ عن ذلك غالبا من الفتن وظهور الثائرين، حسبما قضت به التجربة وشهدت به التواريخ بما دون فيها من الوقائع).

واذ ذاك خطب الامام البنت وتزوجها، ولما بلغ خبر ذلك إلى الرئيس الأوسي غضب، وآلى أن لا يساكن الامام في مدينته، وارتحل منها إلى واد ينسب إلى هوارة على بعد نحو عشرة أميال من المدينة، وهنالك انضمت اليه عشيرته، ومن غضب لغضبه ممن ضاقت بهم سبل الحق، وقيدتهم خطة العدل، وراموا الزيغ عن جادة الاستقامة، ولما صار في جموع كبيرة أعلن الخلاف .

ولم تزل السعاة بين الفريقين رائحة غادية إلى أن أوقدت نار الحرب، وبدأت بالغارات فأصابت أول غارة لهوارة ولدا لبقال على نهر هناك يعرف بنهر أبي سعد الله فقتلوه وتركوه، ولم يغيروا من حاله، ولا من ماله شيئا، وثارت الصيحة إلى المدينة فابتدر الناس الغلام فأصابوه ولا روح له، ولما لم يجدوا فيه تغييرا حاروا في الامر، ثم صاروا يبحثون في متاعه إلى أن فقدوا خاتما كان في أصبعه .

قال : فكبروا وقالوا هؤلاء قد استحلوا الاموال والسلب، فحل للمسلمين وامامهم قتالهم، فحملوا قتيلهم وواروه التراب، وأخذ الامام في التهيؤ للحرب والخروج اليهم، فاجتمع له من العسكر خيلا ورجلا ما ملأ البقاع واجتمع للآخرين من الجموع مالم يجتمع لمثلهم .

قال

حتى عدوا في خيلهم من لون واحد الف فرس أبلق، وخرج عبد

الوهاب بعساكره من المدينة في جموع لا يعلم عددها إلا الله، واتصل خروج عبد الوهاب ببني أوس، فجمعت جموعها وعبأت كتائبها على نهر يقال له اسلان قالوا : وكان عبد الوهاب قد أصابته ريح فأمر براحلته فرحلت وجعل عليها محمل، وجعل عديله رجلا من نفوسة وقائد راحلته رجلا من نفوسة، وكان القائد ربما عجل، ويقال له رويدا رويدا، قال : فيقال له ويحك انما قيل رويدا فيقول هو ذاك، فلم يزل يسير حتى تراءى العسكران (١هـ).

«ممـــزوج»

فرتب الامام قواده وصفوفه، وجالت الخيل في ميدان الحرب ميمنة وميسرة، وتنازلت الابطال من الصفين، والتحم القتال فسد غباره ما بين الخافقين، وكلما نظر الامام ذات اليمين وذات الشمال، والقلب رأى فارسا فاق الاقران ودوخ الكتائب، فيقول من الفارس ؟ فيقال له : هو ابنك أفلح، فقال معجبا به قد أستحق أفلح الامامة (فانها انما تنال بامثال هذا الاقتدار لا بغيره)

قال : فكان أول يوم عقدت له فيه الامامة، قال : فلم يزل الناس يقتتلون لا يولي بعضهم لبعض الدبر إلى أن سال وادي سلى ذلك اليوم دما(١هـ) .

(ممزوج) ولما رأى الامام صبر الفريقين، وعدم تزحزح العدو عن موقعه والسيوف تحز الهام ولبرقها لمعان في سحب تلك السهام اشتد غضبه، وزاد في الثقل ونادى يا دينار زم الخطام وتقدم بنا ففزع زميله النفوسي وخف فرجح الامام به، ولما شعر بذلك قال : ما بال المحمل ؟ فقيل له : قد

خف زميلك النفوسي (وقد يكبو الجواد والا فان لنفوسة الثبات في الحرب) فقال ثقلوه بحجر، ولازال دينار يتقدم والامام يثقل والنفوسي يخف فيزيدون معه حجرا إلى ان هزم العدو، وولى الادبار ولحق بجبل ينجان، واستكان للطاعة وخمدت نار الفتنة، ورجع الامام يحف رايته النصر والظفر، فأقبل على ابنه أفلح وقربه اليه ورشحه للامامة .

قـــال

وانقطع له (أي لأفلح) المنقطعون، ودارت الحوائج اليه والعطاء من تحت يده(١هـ) .

وصار الامام بعد ذلك في راحة، ودولته في تقدم، إلى ان كان كما وصفه بعد ذلك .

قال : وكان عبد الوهاب هذا ملكا ضخما وسلطانا قاهرا، قد اجتمع له من امر الاباضية وغيرهم، مالم يجتمع لأباضي قبله، ودان له منهم مالم يدن لغيره، واجتمع له من الجيوش والحفدة، مالم يجتمع لأحد، حتى انه لقد حكى لي جماعة من الناس، انه لقد بلغت بهمته إلى ان حاصر مدينة طرابلس، وملك المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان(١هـ) .

ومدينة تلمسان الآن من اعمال الجزائر، وهى نهاية حكمها مما يلي مملكة فاس، فيها من الأبنية العجيبة والصنائع المهمة، ما يستحق الذكر، وأهلها اولو رفاهية ونظافة، غير بعيدين في ذلك عن سكان مدينة تونس ذات الأدب والعلم والحضارة في المغرب بهذا العصر، ولهم في التجارة غربا وشرقا حسن اقتدار، وقد استبحرت في العمران بعد استيلاء الدولة الافرنجية (فرنسا) عليها تبعا للجزائر، ونمت تجارتها بما جرى فيها من تسهيل طرق

المواصلات، والنقل كغيرها من مدن قطر الجزائر وتونس، التي لا تبعد كلها في الوضع والشكل والترتيب عن بعضها لبعض، اذ كان نافخ روح العمران والحضارة العصرية وبث الصنائع على اختلاف أنواعها وفنونها في الكل دولة واحدة .

عــزم الامــام على اداء فريضة الحــج ومــروره بجبــل نفوســـة

ولما رأى الامام رحمه الله من سائر اتباع دولته كمال الانقياد، واستيلاء الامن والعافية على البلاد وانقطاع دواعي الفساد، وجرثومة العتو والعناد حن متشوقا إلى زيارة ضريح أفضل الخلق على الاطلاق نور الوجود، ونبراس اليوم المشهود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الابرار، والى تلك الديار المقدسة الطاهرة، وقد علم من نفسه رحمه الله انه ممن تعين في حقه القيام بأداء فريضة الحج المعظم، لما لديه مما أتاه الله من فضله من الثروة الواسعة اذ كان رحمه الله قبل تحمله أعباء الامامة من أعاظم أولي الاموال الوافرة في عصره، فكانت تجارته في أشهر المدن والجهات كالسودان والحجاز واليمن والبصرة وغيرها من مدن الشرق حتى قال شاهدا على نفسه بالغنى شكرا لله تعالى، وتحدثا بالنعمة ما معناه (لو لم أكن الا أنا وابن جرني وابن زلغين لأغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية)، فهو ذو ذهب وفضة، وابن جرني فلاح عظيم كانت زكاته في السنة آلاف حمل من البر والشعير، وقيل ان أندر زرعه يرى من مسافة أيام كالجبل، وابن زلغين ذو ابل وغنم له من ذلك ما يعد بمئات الالوف ذكر المؤرخون ان له

من صنف الحمير وحده اثني عشر ألف حمار .

وبعد أن أبرأ ذمته من التباعات، وقضى ما عليه من المطالب دينا ودنيا امتطى متن جواده مستصحبا معه (زوجته) وتوجه إلى الحجاز مع البر في جمع كبير، فمر على جبل دمر وأقام فيه أياما، اعترفوا له فيها بالامامة وقدموا له البيعة مباشرة، واستعمل عليهم عاملا يعرف بمدرار .

وله هناك مسجد كبير ومصلى مشهور به في موضع يقال له (تلالت) فيه رخامة كان يستند اليها تساوي رأسه عند قعوده، وقد ذكر صاحب السير رحمه الله وهو من علماء آخر المائة التاسعة انها في وقته تساوي صدر الواقف، وكأنه رحمه الله كابنه أفلح عظيم البنية، وله في وادي تطاوين بجهة أفريقية، مصلى أيضا أصلح خرابه العلامة الشماخي رحمه الله باعانة مجاوريه من العرب كما حكاه في سيره أثابه الله .

ثم سار الامام من جبل دمر إلى أن دخل حدود جبل نفوسة، وبينما هو يسير بين المنازل والقرى الغربية اذ أدركه المطر، واشتد البرد، وكان ذلك بالقرب من قرية (ويغو) الكائنة فوق جبل مدينة (سروس)، وهي قرية جميلة المنظر تدل اطلالها ورسومها العتيقة، على اتقان صنعة بنائها، فقصد الامام دار العلامة مهدي فيها، فوجدها دار رجل زاهد عابد، لا غطاء ولا وطاء، وقد حصل للامام ومن معه من البرد والمطر تعب كبير .

وكان الشيخ فرج ابن خالة مهدي رجلا مترفا متحضرا، ذا بسطة في المال، وكثيرا ما عاتب مهديا على غلوه في التقشف والاعراض عن الدنيا، وكأنه يميل إلى استحسان أمثال قولهم (لا يستقيم الدين الا بالدنيا) وقول الشاعر :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا وأقبح الجهل والافلاس بالرجل

فيعكس مهـدي عليه القضية، ويعـاتبـه على اشتغاله بالدنيا وتعلقه بأسباب جمعها تعلقا زائدا، حتى انهما اجتمعا ذات مرة بتيهرت بين يدي الامام قبل قدومه إلى الجبل، فشكا له كل منهما صاحبه، فقال مهدي ان ابن خالتي هذا يا أمير المؤمنين قد اشتغل بدنياه حتى كاد يضر بآخرته، وقـال فرج ان مهـديا هذا ابن خالتي، قد اشتغـل بآخرته حتى أجحف بدنياه، وطالما نهيته عن ذلك ولم يقبل، فمن المصيب منا يا أمير المؤمنين ؟ فسكت الامام ولم يرد لهما جوابا إلى ان كان قدومه هذا إلى الجبل بعد سنين متعددة، وبينما هو بدار مهدي على ما وصفناه من عدم توفر أسباب راحته من مشقـة السفر والمطر، اذ أقبل ابن خالته من غيبته، فطلب منه نقل الامـام ومن معـه اليه فسـاعفـه، وفي الحـال حضرت الخدم، وهيأ لهم ولـدوابهم ما يكفيهم من المحـلات، وخصص لكـل واحـد منهم فراشا ووسادة وغطاء، وبدله ثياب نظيفة طاهرة، ونشر أثوابهم المبلولة بالمطر، وقدم لكل واحد كانونا من الجمر أمامه، وأحضر لهم في الحال ما كفاهم من أنواع الطعام الفاخر، وأكرم دوابهم بما لزم من العلف والشعير، وبسط عليهم مما لديه من الخير ما جعلهم في راحة تامة .

واذ ذاك تذكر الامـام الحكـاية المتقـدمة، فدعا مهديا وقال له : قد حاجك ابن خالتك يا مهدي (لأن للدنيا في اقامة الدين يدا طولى)، وقد تعجب القـــوم من استحضـار فرج في أقـرب وقت على حين غفلة تلك الكوانين كلها، ويقال انها محابس فخار كان اعدها للغرس، وكأنهم كانوا يستعملونها على نحو ما يستعملها الناس اليوم في المدن، وهذا دليل على

أنهم كانوا أهل اعتناء وعمل للدين والدنيا، لا أهل بطالة وكسل، على حد قول حكيم زمانه وامام أوانه العلامة أبي نصر الماوشائي النفوسي رحمه الله .

احب فتى ماضي العزائم حازما لدنيا وأخرى عاملا بالتشمر
وأما أخو النومات لا مرحبا به ولا بالجثوم الراكد المتدثر

وبعد أن قضى الامام في قرية (ويغو) أياما، استراح فيها من تعب السفر ارتحل إلى بلدة (ميري)، وهي قرية متوسطة بقرب حصن بني زمور المشهور في التواريخ، ولبلدة ابي يحيى الترديتي، وبلدة أبي الشعثاء السنتوتي مستجابي الدعاء الشهيرين في جبل نفوسة بالعلم والورع والكرامات الباهرة، وتعرف تلك الناحية في زماننا هذا بناحية الرجبان لعمرانها بعد خرابها وجلاء نفوستها منها، بعرب يسمون بهذا الاسم، يتمذهبون بمذهب الامام مالك، وهي تابعة في الحكم الآن لحاكم فساطو المقيم في بلدتنا (جادو) المسماة باسم مدينة جادو المشهورة في التواريخ التي خربتها قبائل العرب عند ضعف نفوستها، ولا تبعد عنها الا بمقدار نصف ميل تقريبا .

منع نفوسة الامام من الذهاب إلى الحج وخبر ذلك

ولما فشى خبر توجه الامام إلى الحج اجتمع العلماء وأصحاب الرأي من نفوسة وغيرهم واتفقوا على منعه والتعرض له خوفا من غدر ملوك الشرق (بني العباس) به ومن قبضهم عليه لان الملك في تلك الاقطار لهم، ولانهم

كانوا منه في رعب شديد .

فاستـأذنوا عليه فأذن لهم، ولما دخلوا وأخذوا مجالسهم قام متكلمهم وقـال : انـك قد تقلدت يا أمير المؤمنين أمور المسلمين فأحسنت السيرة وقمت بالعدل، ولا يخفاك ما لملوك الشرق نحوك من الحقد وخبث النية، وانـا لنخاف أن يقبضوا عليك أو يغروا أحدا على قتلك فتعظم مصيبتنا وتضيع الحقوق وتتعطل الاحكام، ولذلك اجمع اخوانك المسلمون الرأي على أن يشيروا عليك بالاستخارة في ترك ذلك، والرجوع اخذا بالرخصة (لانه ورد أن الله يحب أن تؤخذ رخصه)، وما كلفت به من امر الامامة ومصالح الاسلام والمسلمين واقامة العدل شيء عظيم عند الله تعالى .

وبعد أن أثنى عليهم بما أظهروه من الاهتمام بالدين بين لهم شدة تعلق قلبه بزيارة تلك البقاع المقدسة، وانه لا يمكنه الرجوع الا بقول معتمد ظاهر الحجة من أكابر علماء المذهب، وكأنه لم يطمئن إلى الاخذ بقول علماء الغـرب بانفـراده، وبما علمه هو وأراد تقويته بقول علماء المشرق، وكان المرجع في الفتوى لاصحابنا في المشرق اذ ذاك العلامة المحدث الربيع بن حبيب والعـلامة ابن عباد ـ رضي الله عنهما ـ فارسل الامام اليهما رسولا بكتاب من عنده يستفتيهما في ذلك، وبقى في انتظار الرسول إلى أن عاد بالجواب، فكان من جواب الربيع جواز اعطاء الاجرة لمن يحج عنه، حيث كان مشغـولا بامـر المسلمـين والاسـلام، مع خوفه على نفسه من ملوك الشرق، وكان من جواب ابن عباد سقوط فرض الحج بالكلية عمن كان بهذه الصفة، (وبكل أسف لم نعثر على كلامهما حتى ننقله بعينه)

فأخذ الامام احتياطا بقول الربيع، واستأجر رجلا من بلدة (تمزدا) بفتح

التاء والميم وسكون الزاي، وهى من احدى القرى الكبيرة في ناحية جبل فساطو عامرة الآن بالاباضية، وفيها قليل من العرب المالكية، وبعد أن توجه الاجير إلى الحج أقام الامام بقرية (ميري)، وكأنها من اشهر بلاد الجبل في ذلك العهد، ولذلك اختارها لاقامته أو فعل ذلك لانها جاءت وسطا بين طرفي الجبل، وبنى فيها مسجده المشهور الآن بمسجد سيدي عبد الوهاب، وقد تهدم بعضه لخراب البلدة بجلاء أهلها، وتفرقهم في البلاد بتسلط العرب عليهم بالغارة عند قلتهم، وفي هذا الوقت يضع عرب الرجبان في وسطه وفيما يليه من الارض، مما يعد من حريمه زروعهم تأمينا له من السرقة، كما هى العادة في كثير من القرى والبوادي، لما يشاهدونه لتلك المساجد والمقامات من الكرامات، حتى هابها المفسدون، وطالما نبهنا عليهم هنالك على هذا العمل، ولم يغن الكلام شيئا لما عليه العامة في كل الجهات من شدة التمسك بالعوائد، وأشدهم تمسكا بذلك أهل البوادي والقري الصغيرة، والتي لا علم فيها، حتى انهم قد يعدون العادة من الدين، وان كانت في الواقع معصية فتراهم يهتكون الحرمة توصلا إلى الاحترام، فيدخلون دوابهم إلى المسجد فتبول فيه، وتروث ليضعوا فيه زرعهم حماية له باعتقاد البركة فيه، وقد زرت هذا المسجد مرارا، فوجدته في غاية الاتساع والكبر، وما بقى فيه من البناء الاول وانقاضه، يدل على ما كان فيه من حسن الترتيب والصنعة، طالما عمره هذا الامام بمجالس الذكر العظيم، وأضاء فيه الليالي الطوال بالعبادة والقاء الدروس على اختلاف فنونها ويقال : ان غالب دروسه في السبع سنين التي أقامها هناك في مسائل الصلاة خاصة ولم يتمها .

وبالجملة فقد نشر في تلك المدة من درر البيان وجواهر التبيان ما اهتدى به كل جاهل، واستضاء به كل مظلم، وتنبه به كل غافل من علوم زاهره، ومواعظ زاجرة، وأحاديث فاخرة، عطفت عليه الالباب، وأخضعت له الرقاب، فاتسعت حلقة مجلسه المهيب وانتظم في سلك عقدها العلماء الراسخون وأمها من الفقهاء والعلماء والادباء والعباد وأهل الصلاح من نفوسة وغيرهم من يثلج ذكرهم الصدور، ويملأ حديث مفاخرهم ومزاياهم الدفاتر والسطور، فرحم الله الكل ورضي عنهم .

حكاية أبي عبيدة في نهي الامام
ـ رحمهما الله ـ

ومما دون في التاريخ، ان خيل الامام ودوابه أفسدت بعض المزروعات والاشجار المجاورة لمرعاها بتهاون الرعاة واهمالها، فبلغ الخبر أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني ذلك الرجل الباسل علامة عصره، وكان شديد الشكيمة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، عالي الهمة بعيد الجاه لا يخاف في الله لومة لائم، ذا علم غزير، وورع زائد وزهد فائق، وفصاحة بالغة، فأتى إلى الامام مستأذنا، فأذن له، ولما دخل وسلم كما يلزم قال : وهو قابض على سيفه مخاطبا للامام يا أمير المؤمنين، قد آذيت الضعفاء والفقراء واليتامى بخيلك لاهمال رعاتك، فكفها عن المضرة، والا حال بيننا وبينك هذا (يعني السيف)، فأطرق الامام لحظة من الزمن مفكرا، وقال : ان كان أبو عبيدة في شيء من هذا القطر، فهو هذا، فقال له الحاضرون الامر كذلك فقال : صدق المشائخ الذين زارونا بتيهرت وأعجبنا حالهم،

وسـألنـاهم عمن خلفـوه في الجبـل فقالوا : تركنا من هو خير منا، وهو أبـو عبيدة ثم قرب مكانه منه وشرف منزلته ورسخت محبته عنده، حتى اختاره بعد ذلك لامارة الجبل، كما سيأتي ذكر الحكاية كل مؤرخينا، وفيما ذكـروه اختصـار مجحف بما يقتضيه المقـام، بل في كلامهم ما يوهم ان الحكاية وقعت بعد وصول الامام، إلى قرية ميري واقامته فيها، وهو أمر يستبعده العقل جدا فان أبا عبيدة مع جلالة قدره وشهرته، لا يمكن ان يجهله الامـام حتى يستفهم عنـه، بل لايمكن أن يعـرف أحـدا قبله، فالمناسب أن يقال ان القضية وقعت حال مسير الامام، بين قرى الجبل قبل وصـوله ناحية فساطو، وقبل اجتماعه برجال تلك الجهة، أو يقال ان أبا عبيدة كان مسافرا في بعض جهات بعيدة، ولم يأت الا بعد وصول الامام واقامته، والله أعلم بالواقع، وعلى كل حال فالمسألة دليل قاطع على ما كان لرجال الأباضية، من قلة المبالاة في الدين، وما كان لائمتهم من الخضوع للحق، وقبول المراشد من أربابها، والمكافأة عليها بزيادة الاحترام والاعتبار والرضاء التام، وفي ذلك من الترغيب في ابداء النصائح مالا يخفى رضي الله عن الجميع .

محـاصرة هذا الامـام لمدينة طـرابلس

كانت قبيلة هوارة من الـبربر، قبيلة كثيرة الافخاذ، واسعة الاطراف ذات جموع كثيرة، رجـالا وفرسانا تحيط منازلها بطرابلس احاطة السوار بالمعصم، وكلهـا أبـاضية المذهب، والآن كلها مالكية، وكانت كلها او غالبها خاضعة لعامل بني الاغلب بطرابلس، ثم وقع بينهما خلاف كبير، (لم يذكـر المؤرخـون سببه) أدى إلى وقوع شقاق، فخرج اليها الجند من

طرابلس إلى وادي الرمل، ولما التقى الجمعان وانتشبت الحرب، ولى الجند منهزما إلى المدينة فاتبعته جنود هوارة اليها، وحاصروها، قال ابن خلدون عند الكلام على ذلك في الجزء (٦) هكذا :

ثم ثارت هوارة من بعد ذلك على ابراهيم بن الاغلب سنة ١٩٦هـ، وحاصروا طرابلس وافتتحوها وخربوها، وتولى كبر ذلك عياض ووهب، ولا ذكر لهذين الرجلين في كتب الاباضية أصحابنا، ولعلهما في غير الولاية عندهم، ولما ضاق الحال بالجند خرج هاربا إلى ابراهيم بن الاغلب بافريقية وكان بمدينة القيروان واليا لهارون الرشيد ثم لابنه الامين .

ولما بلغه بعد أن لاقى من الخسارة في الاموال والرجال شيئا كثيرا، وجه إلى طرابلس ابنه عبد الله في ثلاثة عشر الف فارس، وعدد وافر من الرجال وجدد القتال مع هوارة، حتى كاد يأخذ بثأره منهم، فاستغاثوا بالامام عبد الوهاب، ولما لم يمكنه الا تلبية دعوتهم للعلاقة المذهبية، ولما في اغاثة المظلوم للقادر من الثواب الجزيل، جهز من الجبل جيشا جرارا، وسار به حتى نزل على المدينة وحاصرها محاصرة شديدة مدة من الزمن، لم يبينها المؤرخون فسد عبد الله باب زناتة، وصار يقاتل من باب هوارة، وفي أثناء ذلك استشهد العلامة الشيخ مهدي النفوسي، المتكلم الجليل الذي تقدم انه ذهب إلى تيهرت في مقام مائة عالم، وذلك انه انفرد عن العسكر على شاطيء البحر، ورأوه من المدينة فسبحوا اليه وقتلوه، وأخذوا رأسه وعلقوه على السور، فان قالوا له : انهزم أصحابك الاباضية عبس وانقبض، وان قالوا له انهزم الجند تبسم وانبسط، نقل ذلك الشماخي وغيره رحمهم الله (وان لله خرق العوائد فلا غرابة)، وقد صعب موته على الامام والمسلمين

كثيرا، واستعظموا مصيبته، وان كان القضاء لا يرد وكل حي خلق للموت، الا ان لموت مثله في مثل ذلك الوقت الذي هم في حاجة فيه إلى أمثاله وقع عظيم .

وحيث ان المدينة حصينة جدا وسورها في غاية المنعة، صعب على الامام افتتاحها، فصار يجمع رجاله لتدبير الوسائل المعينة على ذلك كل ليلة، وكلما دبر بالليل رأيا وجده بالنهار فاشيا في العسكر، فيؤخر عن حضور مجلسه في الليلة المقبلة من يتهمه بافشاء السر، وصار يفعل ذلك كل ليلة إلى أن بقى هو ووزيره ذلك السياسي الكبير المدبر الخطير العاقل الشهير باصابة الرأي، والصدق في الاقوال والافعال (مزور بن عمران)، فقال عند ذلك لا أحاصر مدينة كهذه في المنعة برجل واحد، وفي ذلك الوقت أرسل اليه عبد الله رسولا يطلب منه الصلح لما بلغته وفاة والده ابراهيم بالقيروان، فأجاب الامام طلبه وخفف وطأة الحصار، وأبرم معه عهدا على أن تكون المدينة والبحر لعبد الله، وما كان خارج المدينة كله إلى نهاية أرض سرت للامام، فدخلت هوارة كلها ومن معها من القبائل في دائرة حكم الامام، وولى على الكل عمالا من عنده، وعاد بعساكره راجعا إلى الجبل، وقد نودي بالآمان في العسكرين، وفتحت أبواب المدينة وعادت المعاملة بين الناس إلى مجراها، واستقل كل بما خصصته له تلك المعاهدة .

والظاهر أن حركة هوارة، وتشبثها بمخالفة بني الاغلب، انما كانت والله أعلم لغرض خاص، وهو التوصل إلى الانضمام إلى دولة بني رستم الحاكمة على جبل نفوسة الموافقة لها في المذهب، وزادها رغبة في تلك حضور الامام بالجبل طمعا في اعانته أياها، كما وقع وهو المفهوم من كلام ابن خلدون

حيث قال : وحجي هوارة بعبد الوهاب بن رستم من مكان امارتهم بتاهرت فجاءهم واجتمعوا اليه، مع قبائل نفوسة، وحاصروا أبا العباس الخ، وإن كان الصحيح أن اصل مجيء الامام من تيهرت إلى الجبل كان لاجل الحج كما مر، لا بطلب من هوارة كما قال، والله أعلم .

محـــاصرة عسـكر الامام لمدينة قـــابس

ولما توجه الامام من طرابلس إلى الجبل، أرسل من طرفه قطفان بن سلمة الزواغي في عسكر إلى البلاد الغربية من طرابلس، فرتب فيها العمال ولما وصل مدينة قابس، امتنع عامل بني الاغلب فيها من الدخول في الطاعة والتسليم، فشدد قطفان الحصار على المدينة، إلى ان استولى عليها، وهي مدينة مستبحرة العمران، ذات نخل وافر وأنهار جارية، مشهورة بين مدن الغرب في ذلك العصر، ثم انتقل منها إلى ما يليها من القرى والجبال كمطماطة وزنزفة إلى جبال دمر التي هي في حكم الامام من قبل ذلك، وإلى جزيرة جربة فاستولى على الكل ورتب فيها العمال .

رجوع الامام إلى تيهرت وتعيينه السمح عاملا على الجبـــل بعــــده

وبعد أن اطمأن الامام على ما استولى عليه في رحلته هذه، ورتب كل ما يلزم ترتيبــه مما يعــود على الــرعية بالــراحــة والامن في هذه الــولاية الطرابلسية، التي تحد شرقا بأرض سرت، وغربا بجبال مطماطة ودمر وعاد اليه أجيره من الحج عزم على العود إلى تيهرت، ولما شاع خبر ذلك اجتمع

اليه اهل الفضل والصلاح من نفوسة وغيرهم ، وسألوه أن يولي عليهم واليا قبل سفره يسندون اليه امورهم ، ويقيم فيهم العدل ، ويقبض حقوق بيت مال المسلمين ويرسلها اليه .

فخيرهم في بعض وزرائه ، فأبوا الا وزيره السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى ، الامام الاول بطرابلس ، وكان الامام ضنينا به محبا له ، لما رآه منه من النصح لدولته مع سداد الرأي ، وحسن السياسة ، فصعب عليه فراقه ، ولما لم يجد مخلصا من توليته لشدة رغبتهم فيه ، أجاب طلبهم وقال (قد علمتم يا معشر المسلمين ان السمح وزيري وأخص الناس بي وأحبهم الي ، وأنصحهم لدولتي ، وبذلك لا أصبر على فراقه ، وقد آثرتكم على نفسي تتميما لرغبتكم ، فها أنذا قد وليته عليكم فاحسنوا الطاعة له ، والانقياد لاوامره ما سار فيكم بسيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادة العدل والانصاف ، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب وبمخالفتنا) .

وقد ذكر العلامة الشماخي رحمه الله في السير أن من كان مع الامام من الفرس والاتباع تزوجوا أيام اقامتهم معه في الجبل باماء بني زمور خوف العنت .

ولما أرادوا الرجوع معه أيضا إلى تيهرت ، رفعوا ما ولدن منهم من الاولاد أمامهم على الخيل ، فجاء أبو عبيدة ـ رحمه الله ـ وأنزلهم عن السروج قائلا خذوا عبيدكم يا بني زمور، (لان ولد الامة ملك لسيدها) .

ثم ودعهم الامام وودعوا بأعين سائلة ، وقد حل بهم من الاسف والحسرة بفراقه وفراق مجالسه العلمية ، ما جعلهم في حيرة وزاده محبة في قلوبهم ، فأحسن السيرة فيهم بعده واليهم السمح ، وعدل في الاحكام

وساس الرعية بأقوم سياسة، ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من امناء الاهالي في النقط المهمة، ومراكز العمران وفق مرغوب امامه، بحيث لم ينكروا عليه شيئاً في مدة ولايته كلها، لا يخرج عن رأي الامام ولا يخالف له أمرا إلى ان أدركته منيته والمسلمون والامام في رضاء عنه .

وفاة السمح - رحمه الله - وولاية ابنه خلف وما نشأ عنها من الفساد

ولما حضرت السمح الوفاة، اجتمع اليه أهل الرأي من المسلمين، وقالوا له أوصنا بما بدالك - يرحمك الله - وانصحنا فاننا مطيعون لامرك، وقابلون لنصيحتك، اذ لم تقصر من قبل هذا في كل ما يجلب لنا الخير دينا ودنيا، وانا نقدم لك على ذلك الشكر، ونسأل الله تعالى أن يكافئك بما هو أهله .

فقال لهم أوصيكم بتقوي الله تعالى، وباتباع ما أمركم به الشرع الشريف، وبطاعة امامكم عبد الوهاب، وتأييده ونصرته مادام مستقيما على الحق الذي مضى عليه السلف الصالح من المسلمين .

ثم سار إلى رحمته تعالى مأسوفا عليه يندبه كل من عرف سيرته، وأطلع على أحكامه، وقد بلغ في الناس موته مبلغا عظيما، وبعد تشييع جنازته ودفنه اجتمعوا للنظر فيما يصلح أمرهم، ويحفظ جامعتهم إلى أن يعرفوا الامام بوفاته ويأتيهم الامر منه بتعيين غيره .

ولدى المذاكرة بادرت العامة، ومن لا نظر لهم في عواقب الامور إلى نصب ابنه خلف مكانه ظنا منهم ان ذلك أرضى لامير المؤمنين، وأوفق لرأيه لما فيه من احياء أثر السمح، وجبر خاطر عائلته، وتهوين مصيبتهم، وأنكر

الخاصة ذلك كأبي الحسن أيوب بن العباس، وأبي المنيب اسماعيل بن درار الغلماسي وغيرهما، وقالوا : لا يجوز لنا أن نقدم أحدا قبل ان نستأذن ولي الامر في ذلك، فتعللت العامة ومن رغب في تقديم خلف ببعد المسافة قائلين نقدمه مؤقتا، ونعرف الامام، فان رضي به رضينا به، وذلك ما كنا نبغي وان عين لنا غيره وقبلناه وتركنا هذا، فسكت من انكر ذلك طلبا للسلامة وفرارا من التفرق وتشعب الآراء، ووصولها إلى درجة المراء ثم كتبوا كتابا إلى الامام بينوا له فيه وفاة السمح، وتقديم بعض الناس ابنه خلف وانكار بعضهم ذلك، وقالوا له : الامر موقوف إلى أن يأتي كتابك، فان رضيت به قبلناه، وان أخرته أخرناه، وأرسلوا إلى الامام مع رسول مخصوص، ولما بلغ الامام تأسف وأغتم وتحسر تحسرا لا مزيد عليه لوفاة وزيره السمح، وأجابهم عن كتابهم بهذا الجواب .

جواب الامام ـ رحمه الله ـ إلى جبل نفوسة في مسألة خلف

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله .

من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس .

اما بعد : فاني آمركم بتقوى الله، واتباع ما امركم به واجتناب ما نهاكم عنه . وقد بلغني ما كتبتم به إلي من وفاة السمح، واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل الخير ذلك .

فان من ولي خلفا من غير رضاء امامه، فقد اخطأ سيرة المسلمين ومن أبى من توليته، فقد أصاب فاذا آتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل

استعمله منكم السمح إلى عمالته التي ولي عليها، الا خلف بن السمح فحتى يأتيه امري وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون(١هـ) .

ودفعه للرسول فأتى به إلى طرابلس، ولما فتحوه في الجبل ووجدوا فيه تخطئة من نصب خلفا والرضاء عمن أنكر ذلك، استعظم الذين قدموه الامر وأنفوا من الابطال الامام عملهم، وقد ذاق خلف في تلك المدة حلاوة الحكم وتلذذ بطلاوة الأمر والنهي، فعض بنواجذه عليها وحث أصحابه على التمسك بما فعلوه، وأن يكرروا الكتابة إلى الامام في تنفيذ ما كان منهم من تقديمه .

وكأني به وقد وعدهم بالوظائف ومناهم بأماني جعلتهم أشد الناس حرصا على الطلب، كما فعل ابن فندين وشعيب فكتبوا عند ذلك إلى الامام كتابا آخر في ذلك، وأرسلوه، ولما وصل الامام استشعر من القوم الدخول في دور العناد، وأحس بوقوع التفرق فتربص في الجواب، وتفكر في سد هذه الثلمة مليا ولا ريب في انه لا محيص له منْ احد أمرين خطيرين فاما أن يجيبهم إلى ماطلبوه فيعدون ذلك عجزا عن معاكستهم ويستفحل أمرهم وتنكسر شوكة الآخرين، وربما يعود خلف إلى التسلط عليهم اذا استبد بالرأي واستقل (والناس أتباع لمن غلب)، واما ان يصدهم عن طلبهم ويعين غيره فينموا غيظهم ويتضاعف شرهم ويفسدون في الارض، ويجعلون ذلك ذريعة إلى طلب الاستقلال متى وجدوا فرصة بمساعدة أولي الفساد وعلى كلا الحالين فالأمر مشكل .

ثم جزم بعد اقدام واحجام على طريقة اكتشف بها الحقيقة، ووقف على نوايا خلف وحزبه ذلك انه كتب باسم خلف كتابين، احدهما فيه عزله

وأمره بتقوى الله تعالي واعتزال أمور المسلمين والتوبة مما صدر منه من الخطأ وحرم عليه فيه أخذ صدقات الناس، وثانيهما فيه توليته، وكتب كتابا ثالثا الى من ائتمنهم من وجهاء المسلمين بحيز طرابلس أمرهم فيه أن يعطوا لخلف كتاب عزله أولا، فان قبل وسلم الامر ولم يعد على ذلك، امرهم بالكتاب الآخر الذي فيه امر ولايته وفوضوا له الامر، وان ابى ترك الامور والتسليم والتفكير تركوه وغيه وعرفوه بذلك ليبدي لهم فيه رأيه .

ولما وصلت الكتب إلى من وجهت اليهم بطرابلس، امتثلوا الأمر سلموا لخلف الكتاب الأول، ولما وجد فيه عزله أبى واستكبر وأصر على مباشرة الامور غير مكترث بعزل الامام، رضي المسلمون أم كرهوا، وساعده على ذلك جماعته واختل نظام الحكم عند ذلك، ثم ان جماعته كتبوا كتابا إلى العلامة أبي سفيان محبوب بن الرحيل، وهو اذ ذاك مرجع أهل الدعوة بالشرق بعد الربيع ومعاصريه، يستفتونه في المسألة راجين أن يجوز لهم الخروج عن طاعة الامام، ونصب خلف اماما مستقلا، بدعوى انهم منقطعون عن تيهرت ومنفصلون عنها بولايات بني الأغلب، كما مر فكتب اليهم بعد أن وصله كتابهم مع رسلهم بتخطئة من ولى خلفا، وأمرهم بطاعة الامام وحرم عليهم الخروج عنه (وكلما بحثنا عن هذين الكتابين لم نقف لهما على أثر)، ولما وصلهم الكتاب وكان على خلاف مأمولهم، نبذوه وراءهم ظهريا، وأنكروا امامة عبد الوهاب وبايعوا خلفا، وعند ذلك حرر جماعة المسلمين إلى الامام كتابا في ذلك مفصلا .

الفصل الرابع

ولاية أيوب بن العباس ـ رحمه الله ـ على الجبل

ولما وصل كتابهم الى الامام، كتب بالولاية إلى العلامة الباسل أبي الحسن أيوب بن العباس، أحد الاربعة المتقدمين في الذكر، وكان ذا بأس وشدة في الدين، ولما بلغه الامر فرح المسلمون بذلك وهابه خلف وأتباعه، فالتزموا السكينة، ورفع هو راية العدل، وحمل الناس على الواضحة، وسار فيهم سيرة حمدها جليلهم وحقيرهم، ولازال في رضاء الامام وقبوله إلى ان حضرته منيته، وسار إلى عفو ربه وسعة رحمته، وهو في رضاء المسلمين (ولم نقف على مايبين مدة ولايته)، فلحق المسلمين بفقده من الكدر مالم يلحقهم على أحد قبله لما أظهره في مدة ولايته من العدل، ولاخماده فتنة خلف.

وبعد أن شيعت جنازته ودفن، أرسل المسلمون من نفوسة ومن معهم إلى الامام كتابا بوفاته، وطلبوا منه تعيين من يقوم مقامه، ولما وصله الكتاب أدركه من الكدر ما أنساه حرارة جمرة وفاة السمح قبله، ثم تفكر مليا فيمن يوليه الأمر، فلم يهتد إلى أحد لارتباك أفكاره وتغير سماء ذهنه بمصيبة هذا الشهم الجليل التي ذكرته رزية ذلك الطود الفاخر، فأرسل اليهم ان يختاروا من كان منهم أهلا لها ويعرفوه ليأذن لهم في تقديمه .

الفصـل الخامس

ولايــة أبي عبيدة عبد الحميد رحمه الله على الجبل

ولما ورد عليهم كتاب الامام اجتمعوا لقراءته، واتفقوا على أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني ذلك الرجل المشهور بالعلم والورع، وكتبوا إلى الامام بذلك كتابا، ولما وصله رد في الحال اليهم كتابا بالاذن في توليته، ولما بلغهم استبشروا وأرسلوا إلى أبي عبيدة، (وكأنه لم يبلغه خبر اتفاقهم الاول، ولعله كان سرا) فحضر إلى المجتمع، وبلغوه اذن الامام، وقالوا له ان أمير المؤمنين يأمرنا بطاعتك والانقياد لأوامرك، على ان تقضي فينا بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين فماذا تقول ؟

فاستعظم أبو عبيدة الامر، ورهب من ذلك الموقف الجلل لما في مستقبله من الصعوبات بوجود خلف واتباعه الشاقين لعصا الطاعة، ولما في تقلد أمور المسلمين من المشقة وسوء العاقبة دينا ودنيا ان زاغ يوما ما (لا سامح الله) عن جادة الصواب، فلم يكن منه الا أن دفع ذلك عنه وتبرأ قائلا : أنا ضعيف أنا ضعيف أنا ضعيف (عن القيام بهذا الامر العظيم فانظروا

غيري)، ولما لم ينالوا منه طوعا، ولم يظفروا بمراد بعد كل رجاء، أعادوا الخبر إلى الامام وبينوا له ما جرى مفصلا فازدادت رغبة الامام فيه وتفرس فيه النجاح .

فأرسل اليهم كتابا مصدرا بأيمان مغلظة بأربع لغات عربية وحضرية وبربرية وحبشية (لانه كان رحمه الله يتكلم بلغات متعددة)، على انه لا يقلد أمر المسلمين الا رجلا يقول انا ضعيف، وكأنه رحمه الله أدرك بذكائه حكمة تكرير ابي عبيدة جملة انا ضعيف ثلاثا، فكتب اليه الامر بالدخول في العمل وحتم عليه قبول الولاية، وقال له : ان كنت ضعيفا في البدن فادخل في امور المسلمين، والله يقويك، وان كنت ضعيفا في المال فبيت مال المسلمين يسعك ويسع غيرك، وان كنت ضعيفا في العلم فعليك بأبي زكرياء التوكيتي .

ولما ورد الكتاب على نفوسة اجتمعوا وطلبوا أبا عبيدة فحضر، وأطلعوه على قول الامام، وقالوا له لا يسعك الآن الا القبول وامتثال الامر، واذ ذاك علم انه لا محيص له عن القبول، الا أن من باب الثبات والتأني في ذوات البال من المسائل، سألهم المهلة في الجواب، ثم توجه إلى عجوز هنالك مشهورة بالعلم والزهد، وكان بيتها مجمعا للعلماء واهل الصلاح من المسلمين، وقال لها : ان امير المؤمنين قد ألح عليّ في التولية على الجبل بعد كل امتناع مني، وقد جئتك مستشيرا، فما رأيك ؟ فقالت له : ان كنت تعلم ان في نفوسة من هو افضل منك واقوى على القيام بالامر، وتقدمت

فستكـون خشبة في جهنم، وان علمت انه لا يوجد فيهم ذلك وتأخرت فكذلك (وليس هذا الكلام من قبيل كلام ابن فندين ومن معه فليتأمل) فقال لها : أما في امور الرجال فلا أرى أن احدا يقوم مقامي، (وهذا ايضا منه رحمه الله حكاية للواقع لانه في مقام الاستشارة الموجبة لذلك لا افتخار) فقالت له : ادخل حينئذ في الامر، واشهر الحق، والا فسخ الله عظامك في النار، فرجع إلى الجماعة وهم في انتظار، وقبل الأمر ففرح الناس فرحا شديدا، وعمهم السرور حتى قالوا امضوا بنا لزيارة (وقاية)، فانها افضل من عمائمنا حيث كانت السبب في قبوله الولاية .

فشمـر رحمـه الله لأحياء السـيرة وعـدل في الاحكام، واستعمل على النواحي من حسنت سيرته وطابت سريرته من المسلمين، واستصحب معه للمشـورة في مهـمات الامور خيار المسلمين وارباب العلم والنصيحة في الدين، كابي زكريا المذكور وابي مرداس وابي الحسن الابدلاني وغيرهم ممن يطول ذكرهم .

وقد ذكر العلامة الشماخي رحمه الله نقلا من الطبقات انه كان أحد علماء نفـوسـة الموصوفين بالاخلاق النفيسة ميالا إلى ما طبع عليه من الورع،

واطـراح الحرص في الدنيا وترك الطمع، وقال كان غاية في انقاذ الامور وامضـائهـا وقـائما بالمدافعة لأحوال البغاة، ودفاعها ووافيا بما أمر به من اصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها(اهـ) .

ولما بلغ خبر قبوله الولاية إلى خلف، طارت شرارة غضبه بين قومه، وتولى الشيطان كبره فرفع راية العناد وجدد الخلاف والانكار على الامام، ثم شن الغارة على بعض الاطراف، مما تحت حكم أبي عبيدة وعتا في الارض، فأخاف السبل، وقطع المواصلة بين الناس، فأرسل أبو عبيدة إلى الامام ببيان ذلك كله، وأستأذنه في محاربته، وكان الامام كما قلناه شديد التحري في سفك الدماء، واعلان الحرب، فلا يقدم على شيء من ذلك الا بوجه شرعي لا خلاف فيه، فرد إلى أبي عبيدة الجواب بملاطفة خلف ومناصحته وعدم المبادرة إلى فتح باب القتال معه، الا ان فاجأهم بمكروه، فليدفعوه عن أنفسهم بأقرب وسيلة وأبعد طريق عن المضرة، فامتثل أبو عبيدة الامر، وعدل إلى السكون فهدأت حركة خلف، قانعا بما في حيزه ساعيا في استمالة الناس إليه .

حكاية ابن يانس المفسد التابع لخلف وجـواب الامـام إليـه

وكان من خواص رجال خلف، عمرو بن يانس، منبع النميمة ومعدن الفساد وجرثومة الشر، وأسّ المفتريات الذي كان دابه، تتبع خطايا المسلمين وزلاتهم، والتجسس عن أحوال الناس، خاصتهم وعامتهم، لا لينهاهم عن منكر فعلوه، أو يأمرهم بمعروف ضيعوه، بل ليتوصل بتلك

الاكتشافات إلى القاء العداوة والبغضاء بين الناس، وايقاد نار الفتنة، فان هذا الرجل كان يكاتب الامام بكل ما يسمعه من خطأ، في فعل أو قول، من أعيان المسلمين مع زيادة أضعاف ذلك زورا وبهتانا بدون أن يكلفه الامام بشيء من ذلك، زاعما انه يخدم دولة الامام والاسلام، تشبها بأرباب الاصلاح (وما هو الا مفسد كذوب) شأن كثيرين من شياطين الانس في كل زمان ومكان، ويعبر عنهم في بعض البلاد الآن بالشاشيدات، فان شأنهم مخابرة الحكام سرا بعورات الناس مع الطعن في خواصهم، على افتراء في أكثر الاحوال غواية من الشيطان الرجيم، وحسدا وطمعا في حطام الدنيا والعياذ بالله .

ولما أكثر عمرو هذا من مخاطبة الامام، وتبين له زوره وكذبه، كتب اليه كتابا في غاية الايجاز، كله حكم وجواهر، ترشد الحائر وتهدي الضال وتبكت الكاذب، كما تدل على ذلك قطعة منه، عثرنا عليها تصدق ما يقال من أن كلام الملوك ملوك الكلام وهذا نصها .

أعاذنا الله يا عمرو بن يانس من النزول بعد الطلوع، ومن الترك بعد الاجتهاد، ومن بغض المسلمين بعد محبتهم، ومن نفاق تخفيه الصدور، ومن اقتحام الاشياء من غير تجارب(اهـ) .

وأمر رسله أن يبلغوه اليه، وقال لهم : ما أظنكم الا أن تدركوه ميتا، وقد كفى الله المسلمين شره، ولما أشرف المرسلون على بلدته، رأوا نعشا خارجا فقالوا من هذا ؟ فقيل لهم عمرو بن يانس، فقالوا : الحمد لله الذي استجاب دعوة الامام فيه .

وكان عمرو هذا ممن يتلقى العلوم عن شيخه العلامة الكامل، أخيه أبي

المنيب ما مد (محمد) بن يانس، مع الشيخ العلامة أبي خليل، الا أن للشيخ رحمه الله فرقا فيهما في المعاملة بالهام من الله، فكان اذا دخل عليه أبو خليل أظهر احترامه وتعظيمه، حتى انه ليقعد اذا دخل عليه، وهو مستند بخلاف ما اذا دخل عليه عمرو، فانه يعكس الامر، ولما سئل عن ذلك قال: اما أبو خليل فانما يتعلم لله، وأما عمرو، فانما يتعلم ليؤذي المسلمين ويعنتهم، فآل أمر أبي خليل إلى أن صار قدوة في الدين وكهفا للمسلين، وآل أمر عمرو إلى ما ذكرناه من الانضمام إلى خلف، ولله في خلقه تصرف غريب، يضل من يشاء ويهدي من يشاء **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾** وبقي أبو عبيدة رحمه الله قائما بأموره في حيزه، مواصلا للامام بما يجب من المال، حتى انقضى أجل الامام، فذهب رحمه الله إلى دار البقاء، والمسلمون شرقا وغربا راضون عنه، كما ستطلع عليه في هذا الجواب.

جواب إلى امام عمان

وقد وقفت على رسالة من أرباب الصلاح والاصلاح من أهل الدعوة الاباضية بالشرق، كتابها مجهولون أرسلوها إلى امام عمان بتاريخ **٢٣٧** هجرية تقريبا ينصحونه فيها كما هو شانهم في كل عصر، افتتحوها بما نصه.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله

إلى امام المسلمين الصلت بن مالك، المبتلى بأمور أهل عمان، ومن وصله كتابنا هذا من المسلمين أهل عمان، من أهل النصيحة لهم والشفقة عليهم اخوانهم، وأهل دعوتهم من أهل الستر في أمكنتهم، سلام عليكم

إلى آخرها، وهي طويلة تتجاوز عشرين ورقة، كلها مراشد وقواعد لشد دعائم الامامة وحفظ هيكلها، وفيها ما يدل صريحا على أن أباضية المشرق في مسألة الامام عبد الوهاب مع ابن فندين كلهم على رأي واحد موافقون لرأي الربيع ـ رحمه الله ـ في الرضاء عنه، والاقرار بامامته في المغرب، وتخطئة المنكرين عليه، وهذا ما حرره كاتب تلك الرسالة في ذلك بالحرف الواحد .

قال : ولو أن فرقة من المسلمين خرجوا عن الامام، يلتمسون منه أشياء ويدعونها عليه، مما لا يستدل المسلمون على أنهم صادقون فيه، اوكاذبون، والامام ينكر ذلك ويدعي عليهم ظلما أيضا، لا يعرف المسلمون ما يذكر فيه فخرجوا عليه، واستحلوا قتاله من قبل أن يوضحوا عليه تلك الاشياء، التي ادعوها، فهم بغاة على الامام، ويحل للامام قتالهم، وذلك لانه لا ينبغي للمسلمين أن يقاتلوا امامهم بالاشياء التي يدعونها عليه، حتى يوضحوا له ما ادعوه، ويستتيبوه فيصر، ولا يتوب، ويأبى الاختلاع عنهم، فان تعدوا عليه فقاتلوه وزحفوا اليه يطلبون ازالة امامته بمجرد الدعوى لاغير، فقد حل للامام وجميع المسلمين قتالهم لبغيهم، وتركهم رأي من كان قبلهم من المسلمين .

وبهذه المنزلة كانت الخارجة على عبد الوهاب (امام المغرب)، لاستحلالهم الخروج عليه بدعوى الشروط التي يقرون على أنفسهم بالظلم فيها، وقولهم نعز لك لاننا أصبنا من هو أعظم منك، وقد كان المسلمون رحمة الله عليهم ولوا من ولوه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الرعية من هو أعلم منهم في الاحكام ولو كان الأمر كما زعموه من عزل

الامام كما حدث من هو أعلم منه، لكان أمر المسلمين مختلطا أبدا، ولكانوا كل يوم في انتظار ظهور من يزيل امامة امامهم، والحال أن المسلمين قد ولوا أبا بكر رحمه الله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعاذ بن جبل حاضر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (معاذ أعلم العلماء) وقـال معاذ أعلم أمتي بالحلال والحرام، فلما استحل الخارجون على عبد الوهاب الخروج عليه بالاشياء التي يعلم المسلمون انها بدعة وخطأ، وانها لا تزيل امامته، علموا انهم مخطئون مبتدعون، فدعوهم إلى ترك ما دخلوا فيه من البدعة، وإلى مراجعة الحق، فأبوا الا تماديا على المعصية، ثم زحفوا إلى المسلمين فقاتلهم المسلمون، وامامهم عبد الوهاب على اصرارهم على المعصية، وادعـائهم زوال امامته بلا حدث واضح عند المسلمين انتهى المراد منه .

تصـــحيح قـــــول

كنت أعتقد أن الامام الكبير ابا عبيدة مسلماً ـ رضي الله عنه ـ توفى في أواخر دولة الامام عبد الرحمن ـ رضي الله عنه ـ لما يؤخذ من ظاهر كلام أبي زكريا رحمه الله، وقد مر ذكره، ولعدم ذكره في الكتب الموجهة إلى المشرق مدة خروج ابن فندين عن الامام عبد الوهاب، ثم عثرت في رسالة للعلامة محمد بن محبوب العماني إلى أهل المغرب، على ما يؤذن بخلاف ذلك، اذ قال رحمه الله : بعد كلام هكذا وذلك في زمان ابي عبيدة مسلم، وعن رأيه كان ذلك من عقد أهل المغرب لابي الخطاب، ثم ابن رستم بعده ثم عبد الوهاب بعد ذلك (اهـ).

فدعاني هذا إلى البحث على اكتساب حقيقة ذلك، حتى وقفت على

قطعة رسالة في مجموع لبعض أصحابنا المشارقة، ذكر كاتبها انها من الامام أبي عبيدة إلى الامـام عبـد الوهاب، فتحققت انه حضر له، وانه كتب الرسالة في صدر امامته، وتوفي قبل خروج ابن فندين عنه، ولذلك لم يذكر في جوابات الشرق، والله اعلم .

والموجود من هذه الرسالة آخرها لاغير، لان صاحب الكتاب المنقول منه قال هكذا .

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم)

ومن سيرة الامام أبي عبيدة الى الامام عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم

قال : لا يخلو اما أن تكون دعوت الناس الى نصرتك على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يجيبوك، وأفردت فهلك القوم وثبتت ولايتك لاخوانك وزالت امامتك، واما أن لا تكون دعوتهم، فزالت امامتك بالتضييع، واستعلان الباطل قبلك واماتة الحق فلا امامة لك، واما أن تحمل سيفك على عاتقك فتفيء الله بما ضمنته له، وتلحق بائمة المسلمين قبلك فيهلك من استنصرته فخذلك ، واما ان تكون رجلا قد عزت نفسك عليك ومن قبلك، فحللت المسلمين من ولايتك والسلام انتهى .

وعلى أثر هذا تفسير له لم ينسبه صاحب الكتاب لاحد، الا ان الذي يدل عليه بعض منه انه له، والذي يدل عليه البعض الآخر انه لغيره، وعلى كل حال فقد سلك فيه كاتبه طريق الشدة معرضا فيه بما اشتهر به بيت

الرستميين ـ رضي الله عنهم ـ من علمي التنجيم والرمل، مشيرا الى بعض ما ادعاه قوم ابن فندين على الامام، والله أعلم بالحقيقة قال صاحب الكتاب .

وتفسير ذلك ـ والله أعلم ـ ، ان الامام اذا رأى الرعية لم تستقم لله على الطاعة التي ينالون بها ثواب الله عليه ان يدعوهم الى الوفاء لله بطاعته، فان لم يجيبوه الى طاعة الله، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبقى منفردا بنفسه هلك كل من كره الاجابة الى الاستقامة، وبقيت ولاية الامام عند من حضر من المسلمين، وزالت امامته عند الناس، لانه قد صار في هذا الوجه الى حد الكتمان، واذا كتم الامام خرج من حد الامامة والظهور بالاسلام، لان البيعة انما هي على اقامة كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، واتباع آثار المسلمين منه ومن الرعية، واذا لم توف الرعية بذلك ضلت، وصار الامام الى حد الكتمان لانه لا يظهر المنكر بحضرته، الا على احد وجهين : اما ان يكون مقهورا ذليلا ، فعليه ان يخرج من الامامة ويعتزلها .

واما ان يكون مداهنا مقصرا، فلا امامة له بالنكث وتركه الوفاء بما عاهد الله والمسلمين عليه .

وقد بلغنا ان ابا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بلغه أن أناسا من المسلمين كرهوا مقامه، فصعد المنبر وحمد الله واثنى عليه، وقال : (أيها الناس كرهتموني فاستقيلوني اقلكم . فقال له علي بن ابي طالب : هيهات هيهات لا تقال ولا تستقال) . فاجمع صالحو المسلمين على الرضاء بامامته، وذلك لانه لا يلتفت في هذه الامور الى انكار العامة، ولا الى رضائهم،

وانما ينظر الناظر لله ولدينه، وللاسلام وأهله وهم المستنبطون، واما سواهم من الناس، فانما عليهم الاتباع والانقياد، وليس لهم من النظر للاسلام وأموره، والتقديم فيها شيء قال الله عز وجل ﴿**وإذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾ ، وهم أهل العلم بالكتاب والسنة، لانهم المنهاج، ألا ترى انه ذمهم حين لو يردوا الامر الى الرسول والمستنبطين .

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ اذا رأى من المسلمين تقصيرا قال لهم : اما ان تقوموا بما عاهدتم الله به، والا خرجت اليكم من الامامة . فكذلك ينبغي، لان كلا قد وجب عليه الوفاء لله بما عاهده به، وذلك اذا كان عن مشورة من خيار المسلمين ورضائهم به لله ولدينه، ثم كان منهم الوفاء بذلك والاستقامة فيه، فان عمر ـ رضي الله عنه ـ قال : (الخلافة) ما أتتمن عليها يعني ما كانت عن مشورة أهل العلم والصلاح، و(الملك) ما أخذ بالسيف فكل امامة كانت عن غير مشورة من أهل العلم والصلاح، فهي ملك، وكذلك من عقد له الاشرار فهي ملك .

(أصل) واما أن لا تكون دعوتهم، فزالت امامتك بالتضييع واستعلان الباطل قبلك واماتة الحق فلا امامة لك ، (تفسير) وذلك لان الامام اذا ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، واقامة الحدود وصلاة الجمعة بالناس، من غير عذر يعذر بذلك مثله الفقهاء، وترك جهاد العدو ودفعه عن المسلمين زالت امامته بما قصر فيه من أمر الظهور بذلك كله أو ببعضه، وكذلك اذا بدل السيرة، فسار بغير سيرة من مضى، وبغير ما هو معروف من سيرتهم وكذلك اذا ترك الاحكام .

(أصل) واما ان تحمل سيفك على عاتقك فتفيء لله بما ضمنته له أو تلحق بأئمة المسلمين قبلك فيهلك من استنصرته فخذلك .

(تفسير) هذا تفسير لاول الكلام، لانه اذا بقى معه أربعون رجلا من أهل الصلاح، فلا عذر له في الضعف، فاذا لم يبق معه أربعون من أهل الصلاح والامانة، فعليه ان يعتزل الامامة، ويحل اللواء وتسعه التقية، فان رجعوا اليه فليلزم بيته، ولا يقبل ذلك منهم، فقد اختبر غدرهم ويقال لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

فكل من دخل في الامامة والعمالة، وله فيها رأي اذا كان يعجبه ذلك يعني يحب الدخول فيها، ويحن اليها وامام المسلمين وعاملهم فيها كالمسجون، وهو كاره لذلك، فانه على خطر عظيم، والذي يوجد عن المسلمين ايما امام جبى ارضا جباها غيره من الجبابرة، فلم يمنعهم من الظلم لضعف منه، أو مداهنة هو امام جائر فاسق نخلعه، ونبرأ منه ولا نلبس الحق بالباطل، ونحن نعلمه لا تختلف احكامنا على الناس ، وهذا ديني ومذهبي واعتقادي، ولست ممن يصدق بالنجوم والكهانة، ولا بالملاحم، لكني اتبع النبي محمدا صلى الله عليه وسلم وأقتدي بآثار الصالحين الذين لم يتخذوا دينهم لهوا ولعبا، ديني دينهم، وان كنت قد بان لك الحق فالحق مقبول، والسلام عليك وعلى المسلمين من تلك البلاد أجمعين، وصلى الله على رسوله محمد وآله وسلم تسليما . انتهى فليتأمل .

وفاتـــه وعدد مدتـــه وأولاده ومقدار علمـــه

ـ رضي الله عنه ـ

(هـذا) والـذي يوجد في بعض التقاييد، أن إمامته كانت ٤٠ سنة، والذي ذكره المؤرخ المراكشي المالكي، انها كانت عشرين سنة، لانه على رأيه ولي سنة ١٦٨ هـ وتوفي سنة ١٨٨ هـ، والصحيح ان ولايته كانت سنة ١٧١ هـ، كما تقدم ومدته ١٩ سنة فوفاته تكون سنة ١٩٠هـ تقريبا كما سيتضح، وكان له من الاولاد المشهورين ميمون المقتول في حياته ويوسف وافلح الامـام بعـده، ومن الحفـدة محمد بن يوسف ومحمد بن ميمون، (ولعله هو الذي قدمه قائدا للجيش المذكور سابقا) وأبو معبد عبد الرحمن حفيد ميمـون، وكـان له عدة رسـائل واجوبة مفيدة جدا في فنون شتى بعضهـا موجود وبعضها مفقود. قال ابن الصغير: وكان لعبد الوهاب كتاب يعرف بمسائل نفوسة الجبل، كتبت اليه في مسائل أشكلت عليها، فأجابها عن كل مسألة مما سألت عنه، وكان هذا الكتاب في أيدي الاباضية مشهورا عندهم معلوما يتداولونه قرنا عن قرن، الى أن لحق الفضل . . . ، فأخذته من بعض الرستميين فدرسته ووقفت عليه ألخ .

وله أقوال مشهورة معتمدة في كتب الفقه وغيرها، وذكر ابو زكرياء وغيره انه ـ رحمه الله ـ ارسل الى اخوانه بالبصرة في الشرق ألف دينار ليشتروا له بها كتبـا ولـا وصلتهم اتفقـوا على أن يشـتروا بها كلهـا رقا فكان ذلك، واستنسخوها من عندهم، فكانت وقر أربعين جملا، ولما بلغته اجتهد في مطالعتها، وتصفحها أوقات فراغه من الاشغال، وجد في ذلك حتى قيل انه يتجرد من ثيابه ولا يترك الا السراويل، حتى اتمها فقال: الحمد لله

الذي علمني كل ما فيها من قبل ولم استفد منها إلا مسألتين، وقيل ثلاث مسائل، ولو سألت عنها لاجبت فيها قياسا كما رسمتا فيها . فلله دره من بحر .

وكانت مكتبته تشتمل على آلاف من المجلدات، وذكر الشماخي - رضي الله عنه - نقلا عن ابن سلام ان نفات ابن نصر النفوسي حدث ان هذا الامام أرسل الى الامام الربيع بالمشرق اثنى عشر ألف درهم (اعانة له كما أعانوا والده الامام عبد الرحمن قبل ذلك) فاشترى بها الربيع سلعة، وأرسلها اليه مع اخيه، فكلف الامام بها بعض تجار تيهرت فباعوها، واشتروا له بثمنها غيرها في ثمانية ايام وأرسلوها اليه .

وقيل ان علماء من أصحابنا المشارقة زاروا جبل نفوسة وتيهرت، ولما سألوا بعد ذلك اختاروا من تيهرت الامام ووزيره مزور بن عمران، ومن جبل نفوسة أبا مرداس وابا زكرياء التوكيتي، والعباس بن أيوب، وقال ابو العباس في الطبقات : وكفاك في فضل الامام وعدله قول ابي مرداس : لا أعرف الا الامام ووزيره، وهذا الفزاني، ولم أره وانما أعرفه بكتابه يعني عبد الخالق الفزاني المشهور، واخبار هذا الامام كثيرة، والله اعلم .

عمال هذا الامام

وكان من ولاته وعماله المشهورين، العلامة وكيل بن دراج النفوسي من بني يخلف عامله على مدينة (قفصة) وما يليها . والعلامة سلام بن عمرو اللواتي عامله على (سرت) ونواحيها، والعلامة محمد بن اسحاق الخزري عامله على (نفزاوة) والعلامة جارون بن القمري الزناتي، والعلامة نهدي بن عاصم الزناتي، والعلامة يبران اليزمرتني المزاتي، وهؤلاء لم أعلم

اماكن ولايتهم إذ لم يبين الشماخي ـ رحمه الله ـ ذلك .

والعلامة ابو يونس وسيم النفوسي التمزيني عامله على قنطارة (مدينة تيجي) والعلامة أبو عبيدة الجناونى، واليه على (جبل نفوسة)، ويعرف الآن بجبل الغرب، والعلامة مدمان الهرطلي، وقد امتحنه الامام فبعث اليه ذات مرة كتابين في احدهما عزله وفي ثانيهما ولايته، ولما فتح الاول قال : رحم الله الامام علم ضعفي وقصوري عن هذا الامر، فكتب بعزلي، ولما رفع اليه التأني، وقرأه قال : رحم الله الامام، علم أن لا أحد يحلني من هذا الامر، فاستحسن الناس منه هذا الانقياد التام، وكان مستقيم الحال، والعلامة ايوب بن العباس واليه على (جبل نفوسة)، والعلامة سلمة بن قطفان الزواغي عامله على مدينة (قابس) . والعلامة مدرار عامله على (جبل دمر)، والعلامة مناد، والسياسي الشهير مزور بن عمران الهواري قبل تقليده الوزارة، ولم يذكر أحد محل ولايته هو، والذي قبله، والعلامة السمح بن ابي الخطاب واليه على (جبل نفوسة) والمشهورون من وزرائه السمح ومزور، وغير هؤلاء كثيرون أهمل ذكرهم المؤرخون المتأخرون لعدم وجود المادة بفقدها بالحرق في أواخر الدولة، وبعدها كما سيأتي خبر ذلك، والله أعلم .

الفصل السادس

خلافة الامام أفلح بن عبد الوهاب

ـ رحمهما الله ـ

وكناه المراكشي بأبي سعد ولم نره لغيره

لما كانت الامور بجبل نفوسة مضطربة بخلف وأتباعه، وقد وقع بأطراف تيهرت مامر ذكره من الحروب التي أبقت في النفوس حزازات وربت في الضمائر أحقادا، خاف أهل الرأي وأصحاب الشورى من المسلمين بعد وفاة الامام عبد الوهاب ان يحصل بتأخير نصب امام غيره بعض حركات فسادية فبادروا في يوم وفاته إلى ابنه الامام أفلح، الذي كان مترشحا للامامة بأعماله العالية وعلومه ومداركه الواسعة، فبايعوه وسلموا له مقاليد الامور، بدار الامارة قطعا للخلاف على أن يسير فيهم بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، فقبل منهم ذلك على ذلك سنة ١٩٠هـ مائة وتسعين من الهجرة، وعلى قول المراكشي يكون ذلك سنة ١٨٨، وليس كلامه في هذا الباب بسديد لما سيأتي تحقيقه .

وما كاد ينتشر خبر وفاة الامام عبد الوهاب، وولاية الامام افلح حتى وردت اليه كتب العمال وصلحاء للمسلمين من كل الجهات، والولايات بالتعزية مع تقديم البيعة، ومن ذلك كتاب ابي عبيدة ومن معه في حيز طرابلس، وفيه استأذنه في محاربة خلف وحزبه اذ اشتد فسادهم، وكثر جورهم وتعديهم بعد سماعهم بوفاة الامام ظنا منهم أن الامر بتيهرت لا يستقيم بعده، وأن الذي يتولى الامامة سيكون له اضطراب، وارتباك فلا يلتفت اليهم فينالون في تلك المدة غرضهم، فأجابه الامام بكتاب امره فيه

بمسايرة خلف، واستعمال كل سياسة توطد الأمن وتحقن الدماء، وتسد أبواب الحرب كما صنع والده قبله، فامتثل أبو عبيدة الأمر وزاد خلف في العناد فوالى النهب والقتل والسلب في كل من عثر عليه من أتباع أبي عبيدة، وتحيز بجيوشه إلى مكان يعرف بتمتي والظاهر، والله أعلم انه قرية من القرى التي يسكنها عرب الرجبان في وقتنا هذا، وتغلب على ما وراء ذلك من الجبل إلى جهة الشرق، وقطعه عن أبي عبيدة وهم بين راض وساخط، وشدد المضايقة على أبي عبيدة في حدوده حتى مل الناس واستمالهم، ومن حكمة القضاء والقدر أن أخصب الله جهته، وأجدب جهة أبي عبيدة في بعض السنين، فرغب أرباب الحيوانات وأهل البادية في جهة خلف، ورحلوا اليها تبعا لرخص الأسعار وجودة المرعى، فكثرت بذلك اتباعه وقوى جنده وأعجب بذلك حتى حدث نفسه بالهجوم على أبي عبيدة والاستيلاء على ما في يده وضم الجبل كله اليه .

المحاربة الاولى لأبي عبيدة ـ رحمه الله ـ مع خلف

فخرج خلف بجيش كبير قاصد ناحية (جادو)، ولما سمع أبو عبيدة بذلك خرج بمن معه إلى طرف غابة الزيتون، وعسكر بمكان هناك يبعد عن الجبل بمسافة ساعة تقريبا غير بعيد من قرية (أدرف) بلدة العلامة أبي محمد الدرفي، وهي مشهورة إلى الآن بهذا الاسم، الا أنها خراب مأوى لقطاع الطريق والسراق ومكمن للصوص، ولم يشعر أبو عبيدة رحمه الله حتى غشيته فرقة من جيش خلف فيها أربعمائة فارس بين مواليه، وأقاربه

واخوته، فأمر أبو عبيدة بالكف عنهم وعدم التعرض لهم، إلى ان يبدأوا بالشر، ويدخلوا حريمه فأغاروا على قرية (أدرف)، وهي في طاعة أبي عبيدة، وشرعوا في النهب والقتل، وكان أهلها ضعافا قلالا، ولما بلغ أبا عبيدة انهم قتلوا نحو عشرة رجال وتحقق ذلك، قال لأصحابه الآن وجب الدفاع، واندفع هو واصحابه اليهم وناجزهم القتل، فولوا الادبار منهزمين، بعد أن هلك منهم من هلك، حتى وصلوا خلفا ومن معه من العسكر، وقد ترك ابو عبيدة سبيلهم، ولم يتبع ادبارهم ونهى عسكره عن ذلك، فرجع بهم خلف إلى (تمتي)، وعاد أبو عبيدة إلى جناون، وهو يظن ان ذلك يقنعهم ويردعهم عن الرجوع .

ثم ان آبا عبيده كتب إلى خلف كتابا يعظه فيه، ويرشده رجاء أن يتيقظ من غيه، ويكف عن الفساد ويقول له فيه هكذا (واذ نزعت يا خلف يدك عن الطاعة فكن في حيزك وأكون في حيزي وما بال الحرب) فلم يقنعه ذلك، وحرض قومه على الاعتداء والمثابرة على الغارة والفتك بأصحاب ابي عبيدة أينما وجدوهم، ودام الحال على ذلك نحو سنة، وأبو عبيدة يناصحه ويلاطفه ، ولم تنفعه الذكرى (ومن يضلل الله فلا هادي له) .

المحاربة الثانية لابي عبيدة - رضي الله عنه - مع خلف

ولما اشتد الحال، وضاق الفضاء بأبي عبيدة ومن معه من فساد اتباع خلف، وبلغ خبر ذلك إلى خلف، خرج بعساكره قاصدا أبا عبيدة كأول مرة، وكان في أربعين ألف مقاتل، فلاقاه أبو عبيدة لما بلغه خبر خروجه في

قليل من أصحابه، اذ جاءه الخبر على حين غفلة، ويقال أن الذين كانوا معه لا يتجاوزون عدد أهل بدر، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل كانوا سبعمائة من أهل الفضل والعلم الذين لهم الثبات في الحرب .

ولما ترآى العسكران تاه خلف اعجابا بكثرة جنده وقوته وقلة جند أبي عبيدة غافلا عن قوله تعالى ﴿**وما النصر الا من عند الله**﴾ وقوله ﴿**وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين**﴾ وقوله ﴿**ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ واذ ذاك رأى أن قتالهم عبث وتلاعب، وان محوهم وابادتهم بالسيف على زعمه مع اقرارهم بامامة الامام أفلح، مما يورث له فخر يذكر، اذ لم يكونوا كفئا له ولجيشه على حسب غروره، واستظهر أن يدعوهم الى خلع الامام ومبايعته هو، والاقرار بامامته طمعا منه في رهبتهم ومبادرتهم الى اجابة طلبه، فيكون ذلك زيادة تعظيم لشأنه واعلاء لقدره، واهانة لهم واماتة لقلوبهم، وجعل لذلك مقدمة كانت السبب في انهزامه فسرح عسكره فيما قرب منه من قرى أبي عبيدة ورعيته تسلب وتقتل، ثم أرسل الى أبي عبيدة رسولين يأمرانه بخلع الامام والدخول في طاعته هو، ولما بلغا أبا عبيدة طلبه قال لهما : وكيف نخلع امامنا بدون حدث يوجب خلعه والبراءة منه، وما الذي سوغ لصاحبكما (خلف) هذا الخروج والعصيان، وقد كان أبوه السمح أعلى منه شأنا وقدرا وكان راضيا على الامام طائعا له الى أن توفي، فتعللا له على لسان خلف ببعد ما بين تيهرت والجبل، وفصل بعض ولايات بني الاغلب بينهما وزعما ان ذلك مما يجوز لهم الاستقلال، فقال لهما ولم لم يفعل ذلك والده، ولم يقله بل كان يجمع الحقوق ويرسلها الى الامام لما كان عاملا له .

ولما طال الكلام بينه وبينهما وأفحمهما بالحجة القاطعة عدلا إلى اظهار القـوة والارهاب، فقالا انا نخاف عليك ان لم تجبه إلى ما دعاك اليه أن تكون سببا في اراقة دماء لا يعلم قدرها الا الله، وذلك أمر عظيم عنده فقال : وأي الأمرين عندكم اعظم، ترك القيام بدين الله واضاعته، أم اراقة الدماء ؟ فقالا : اراقة الدماء أعظم . فقال : لو كان ذلك صحيحا لما اجتمع أهل النهروان للدفاع، ولا اهل النخيلة ولا أبو بلال واصحابه، ولا أبو يحيى طالب الحق وابو حمزة وأصحابهما، ولا ابو الخطاب ومن تبعه، ولا ابو حاتم ومن معه، وما اشبه هؤلاء فان كل فريق منهم قام للدفاع في زمانه عن الدين واحيائه، عالما بأن في ذلك من اراقة الدماء واتلاف الانفس ما تعلمـونه، وقد استشهد بعضهم على تلك النية الحسنة (وانما الاعمال بالنيات)، وبلغ بعضهم القصد فأنار الملة وأظهر الحق وأخمد الباطل ما شاء الله من الـزمن، ومـا نحن الا بضعة منهم وبقية من آثارهم فنحن على نهجهم القويم سائرون لا نبغي به بدلا ولا عنه حولا، ومن أراد غيره فالله يحكم بيننا وبينه بالعدل وهو خير الحاكمين، ثم اعارهما جانبا من اللين . فقال : حيث انكم تعظمون أمر الدماء على الدين فأبلغا خلفا بأن نترك القتال اليوم ونصبح غدا، (وهو يوم الجمعه) صائمين ويأتي لنصعد على الجبل، ومعنا ابو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي، ثم نبتهل الى الله تعالى فنجعل لعنة الله على الظالمين، ونسأله ان يفتح بيننا وبينكم بالحق وهو خير الفاتحين .

فقـام الـرسولان الى خلف، واخبراه بما دار بينهما وبين ابي عبيدة من الكلام، فامتلأ غيظا وأمر في الحال بالتهيء للهجوم عليه بدون انتظار،

واذ سمع ابو عبيدة بذلك استعد له، ولما التقى الجمعان ورتبت الصفوف جاء الى ابي عبيدة رجل من بقايا قوم ابن فندين، وقال له : دع عنك القتال فانك لاطاقة لك اليوم بمقابلة خلف وعساكره، ولا حاجة لك في لقائه، وكـان ابـو عبيدة يحسن التكلم بعـدة لغـات، فحلف له بالـبربـرية والكانمية . . قائلا : لأقاتلنه ولو ألقاه منفردا بسيفي هذا، وضرب بيده على قائم سيفه ثم انسل اليه رجل من جيش خلف، وقال له : اني مشير عليك بسبيل ان سلكتـه ظفـرت بلا شك ، أزحف بجيشك الى ناحية الجبل، فان ظفرت ادركت ما أردت بسهولة، وان انعكس عليك الحال كنت في حصن وملجـأ لا يستـطيعون لك فيه كيدا، فقال ابو عبيدة لما استحسن رأيه (نصيحة نزعها الله من عدو) وهذا الرجل اما ان يكون مائلا في الباطن الى أبي عبيدة واما ان يكون قد سئم من القتال مع خلف على غير طائل، فأراد هلاكه ليستريح والله أعلم .

فأمـر أبو عبيدة الجيش بالانتقال الى المحل الذي أشار اليه الرجل، واسنـدوا ظهورهم الى الجبل، ولعل هذا المكان هو المعروف عندنا اليوم بقصبة المصلى، فانه قريب من الجبل وفيه مصلى ينسب الى أبي عبيدة يزار ويجتمع فيه الناس في وقتنا هذا من قرى متعددة لصلاة العيدين اذا حضر (والـدنا أو بعض أنجاله وهو الذي سن هذا الاجتماع هناك حفظه الله) أو هو المكـان الذي فيه الآن المسجد الجامع المسمى (ام بيدت)، وهذا اللفظ منحوت من عمي عبيدة نحتا بربريا فيما يظهر بعد تصحيف لفظ عمي، ومـوقعـه الآن في وسط بلدتنا جادو مركز الحكومة، والمشهور ان المسجد بنى على مصلاة وانه اغتسل هناك كما سنذكره، ولا يبعد عن شافة

الجبل الا بخطوات، ولولا الشهرة المذكورة لقلنا ان المكانين قريبان جدا من مدينة جادو القديمة، فلا يمكن وصول العدو الى هناك والله أعلم .

ولما رأى خلف ما حصل من أبي عبيدة من الرجوع الى ورائه، ولا علم له بها ابداه بعض أفراد جيشه من النصيحة، ظن أن ذلك من أبي عبيدة جبن وفرار تخلصا من الهزيمة ففرح وهزه الطرب، وقدم الابطال والفرسان من عسكره واقتفى اثرهم، ولما غشيت ابا عبيدة الخيل دعا رجالا من قومه فنصبوا له سترا واحضروا له ماء فاغتسل وتوضأ وصلى ركعتين، ودعا الله سبحانه وتعالى بما حضر له من الدعاء سائلا انتصار جنده، ثم بسط كفيه مواجها بهما السماء (وهي الجهة المطلوب استقبالها عند الدعاء) مع تضرع وخشوع وقال : (اللهم يا من لم أعرض عنه منذ استقبلت أمره لا تفرق هذه العصابة على يدي انك على كل شيء قدير) وذكر الشماخي - رحمه الله - أن أهل مدينة سروس أقبلوا مسلحين لاعانة خلف فقال أبو عبيدة إذ رآهم على ذلك : هيجوا فينا حرارة الخوف، فلا أعدمهم الله ذلك . قال : فبقى فيهم ذلك الى يومنا هذا (١هـ)، وقام أبو عبيدة بين عسكره خطيبا محرضا، ومرغبا فشوق النفوس الى الاندفاع في الحرب، وأزال الرهبة من القلوب .

ثم تدانى الصفان، وانتشبت الحرب ساعة من الزمن، أظهر فيها رجال عسكر أبي عبيدة من الشدة والاقدام، ما ترك اعداءهم في انهزام، وكان معه من الابطال المشهورين العباس بن أيوب، وقد اظهر من شجاعته ما حمى به الميمنة والميسرة حتى قال فيه ابو عبيدة اذ رآه يجول بجواده في أثناء الحرب يمينا وشمالا (اني أرى العباس في عيني كالعقاب معصم لا أكلته النار) ثم خرج من عسكر خلف رجل يعرف بعبيد بن سيدي، ورجلان

معـه لطلب المبـارزة فخـرج اليهم أبو عبيدة وأبو مرداس والعباس ، أما العباس فأسرع الى صاحبه بالقتل ، واما أبو عبيدة فطال أمره مع صاحبه ، وكانا متماثلين ، وأما أبو مرداس فقد لاقى من صاحبه عبيد المذكور مشقة حتى كاد يفترسه ، ولما رأى العباس ذلك عطف على عبيد فضربه على ركبته بالسيف ، فأبـانها ثم حز رأسـه ، وقال : لما رآه طائرا في الهواء من شدة الضربة (الى النار) ، فقال الرأس : (وبئس المصير) فقال العباس : (إنا لله وإنا اليه راجعون) جسد طالما دعوت له بالجنة ستأكله النار، لان الرجل كان ممن شهـر بالنسـك والعبـادة ، سخي اليد محبا لاهل العلم يهاديهم بأكباش الغنم وأحمال الطعام ، وكان العباس يعتقد فيه الصلاح لذلك ، (ولكن الاعمال بخواتمها . وكلكم ميسر لما خلق له) ، ولما رأى أبو مرداس فعل العباس بصاحبه عبيد قال (ضربة فتى لا أكلت معصمه النار) .

وبعد أن هلك من عسكر خلف ما لا يعلم عدده ، ولى الادبار خائبا ، فنادى أبو عبيدة حسب عادته (ونعمت العادة) في عسكره ان لا يتبعوا لهم مدبـرا ، ولا يجهـزوا لهم على جريح ، ولوى عنان جواده غير منغص ولا مفلول الى مكانه ، وذلك عشية الخميس الثالث عشر من شهر رجب سنة ٢٢١ احدى وعشرين مائتين هجرية ، وعاد خلف الى قرية (تمتي) المشؤمة عليه ، وأمر باخراج جميع من كان فيها من نفوسة وغيرهم ، ممن يميل الى ابي عبيدة وأجل لهم ثلاثة أيام ، فارتحلوا تاركين أرزاقهم ومنازلهم ، ومنهم الارامل واليتامى والضعفاء ، ومن لا ذنب له ، ولا دخول له في شيء من امر هذه الفتن ، وأجلى معهم كثيرين من اصحابه الذين ظن فيهم الميل الى أبي عبيدة غلظة وجفاء .

ولما أكثر من ذلك تقهقرت نفوس اصحابه، وعلموا بأن أمره قد أدبر فتفرقوا عنه، وأتوا الى أبي عبيدة تائبين، فقبل منهم من قبل ورد من رد، ممن عظم خطأه، وبقى خلف وحيدا ينتظر وثبة من أبي عبيدة تقضي عليه، وعلى من بقى معه بالهلاك، وأبو عبيدة صارف عنه النظر، سائر فيما كلف به من الامر بسيرة العدل والانصاف، وأرسل الى الامام بوهن شوكة خلف وافتراق حزبه .

ولما بلغ اصحابنا المشارقة انتحال خلف الخروج، وما وقع من الفتن، قاموا بما وجب عليهم من النصيحة في الدين كما هي عادتهم، فأرسل منهم العلامة أبو عيسى الخراساني رسالة مع جماعة الى أهل المغرب يرشدهم فيها الى اتباع الحق ونبذ الباطل، وجمع الكلمة واتباع أهل الاستقامة، واقتفاء آثار الاولين من المسلمين، وبالغ فيها في الثناء على الامام عبد الوهاب والامام افلح وعلى السمح، وفي الانكار على خلف ابنه واتباعه في كلام طويل جازاهم الله عن الاسلام خيرا .

وممن كان مع خلف : منيب ابن حامل العلم أحد ائمة المذهب اسماعيل ابن درار الغدامسي، وأبو يوسف حجاج بن وفتين ـ ذكر الشماخي ـ رحمه الله ـ ان أبا يوسف أتى أهله، فقالت له زوجته وهو لدى الباب : (عندك يا بائع دينه) فوقف في مكانه الى الصبح، واحدى رجليه داخل الباب والاخرى خارجه، وهو يميز بين أبي عبيدة وخلف، ثم ثبت عنده ان الحق مع ابي عبيدة فجاءه تائبا وصار بعد ذلك من أفاضل المشايخ .

ثم ادركت أبا عبيدة منيته، فسار الى رحمة الله الواسعة يبكيه العدل

والعلم، ويندبه المحراب وقيام الليل، وله مسجد مشهور متوسط، وآثاره تدل على انـه كان أكثر اتساعا مما هو عليه الآن، قيل : انه اجتمع فيه سبعون عالما من أكابر علماء قرية جناون، وقد كانت معدن العلم والعلماء، حتى انها لا تحتاج فيها دار الى أخرى في العلم، كما كانت قرية تندميرة، ولأهل القريتين الى الآن شهرة في الذكاء وجودة الفهم، وتمسك بالدين، وقد دفن ـ رحمه الله ـ في المقبرة الكائنة بالجنوب الغربي من القرية المذكورة، الا ان قبره مجهول، تغمده الله برحمته الواسعة، وسيأتي زيادة كلام على هذه القرية ان شاء الله .

ولايـــة العباس بن أيوب على الجبـــل بعد أبـــي عبيـــدة ـ رحمهما الله ـ

ولما توفي أبو عبيدة، كتب المسلمون من نفوسة الجبل، ومن معهم الى الامام بذلك كتابا يعزونه فيه، ويطلبون منه تعيين غيره، ولما بلغه الخبر اشتد اسفه وبلغ منه الكدر مبلغا عظيما، وأرسل في الحال أمر الولاية الى العـلامة العباس، ولما وصله ولم يجد عذرا لدفعه التزم قبوله، وجمع أهل الـرأي ومن عليهم المدار من رجال نفوسة، وتلاه عليهم، فأملوا حسن مستقبلهم وضمنوا لانفسهم الراحة والامن، لما يعهدونه في العباس من الحزم والنشاط، مع ما أوتيه من المهابة وعزة النفس في مواطنها، وكان الامر كذلك وأكثر من ذلك اذ قضى فعدل وحكم فانصف وحارب ففاز، (وكأن خلفا انتعش حاله بعض انتعاش) وانضم اليه من جمعه بعض من تشتت أولا، وذلك فيما بين وفاة ابي عبيدة وتولية العباس، فتحرك كعادته مكدرا

صفـو الامن، وجدد الغارة والنهب وهو من أعلم الناس بها للعباس من الشدة، فناصحه العباس ونهاه، ولما لم ينته عن غيه خرج اليه في عسكر لا يزيد عن عسكـره في الكثـرة، بل كان أقل على ما قيل، الا أن فيه من الفرسان من يعد في مقام العشرات من الابطال، ومنهم العالمان الشهيران بالشجاعة : أبو مرداس التبرستي وأبو الحسن الابدلاني .

ولما تقابل الجمعان بموضع يعرف بفاغيس، واظن انه قريب من تمتي هال بعض أهل النظر من عسكر العباس ما رأه من كثرة جند خلف، فاتى الى ابي مرداس وكلمه في ذلك . فقال له : لا اخاف انهزاما على عسكر فيه ابو الحسن الابدلاني، ثم اتى الى ابي الحسن وكلمه ايضا فقال له : لا اخاف على عسكر فيه ابو مرداس، فتعجب الرجل من اتحاد كلاميهما، ولعمري انها لموافقة غريبة تشهد لهما بما كانا عليه من صدق النية وصفو القلوب وتوارد الخواطر الناشيء ذلك كله عن الحب في ذات الله، ولأبي مرداس كما لابي الحسن فضـائـل عالية، ومناقب فاخرة، تكفل بذكرها المؤرخون، وكان في العلم آية من آيات الله، وفي الزهد نادرة من نوادر الـدهـر صاحب الامـام عبـد الـوهاب، حتى مات وصاحب أيوب بن العباس، ثم أبا عبيدة بعده ثم العباس، هذا وكان معه كبيرا في السن وهو قصير القامة يجر سيفه على الارض اذا مشى امام الجيوش، ومن غرائب الاتفاق، انني كلما ذكرته أو تذكرته خطر ببالي المشير أدهم باشا العثماني قائد الجيوش الشـاهـانيه المنصورة في حرب اليونان سنة ١٣١٥م، وهو بطل مشهور في هذا العصر، وكلما ذكرت هذا ايضا تذكرت ذاك .

ولما التحم القتال واشتد خلف وعساكره، وثبتوا للعباس ثبوت الابطال

ولم تزحزحهم عن أماكنهم الرماح والنبال، أتى أبو مرداس إلى العباس وقال له : قد طال وقوفهم معنا في ميدان الحرب، وما كان للباطل ان يقف امام الحق هذا الزمن كله، ولعلك أضمرت سوء أو صدر منك ذنب عظيم كان عقابه لنا من الله ما تراه، فأظهر التوبة وارجع إلى ربك واستغفره لعل الله يؤيدنا بنصر من عنده ويبدل الحال، فكرر العباس عند ذلك الاستغفار وأظهر التوبة (ولا معصوم من الذنب إلا الانبياء والملائكة) .

ويقال ان أبا مرداس قال عند ذلك : ماذا فعل العباس، وما علمناه منه إلا الخير، ولكن الحرب عدمت رجالها، ثم امتطى ظهر جواده واندفع للميدان بسلاحه، ولم يمض بعد ذلك من الزمن الا قليل حتى انهزم خلف وتخرمت صفوفه، فنادى أبو مرداس في العسكر بعدم اتباعهم، فقال بعض أصحاب الرأي : لا نتركهم حتى نخرجهم من حيزنا، فسكت أبو مرداس واقتفوا أثرهم حتى تجاوزوا (لالت)، كما في السير وهو نهاية حكمهم اذ ذاك، والظاهر ان المراد بلالت هو الوادي الفاصل بين الزنتان من جهة (تغرمين) والرجبان من جهة فساطو المسمى الآن وادي الآخرة لصعوبته وعمقه ويسمى (متلالة) أيضا بالاسم القديم، مع زيادة ميم وتاء في أوله على ما يؤخذ من كتاب السير وان عبر في بعض الاحيان بلالت على لالوت، وهي في طرف الجبل من ناحية الغرب، ولعل هذا الاسم كان يطلق على قريتين شرقية وغربية والله أعلم .

وكأن (مدينة تغرمين) لم تدخل في الطاعة، ولم تحز الشهرة التي كانت لها في دولة بني رستم الا بعد هذا، ثم رجعوا وأقبلوا على العباس يهنئونه بانتصاره فقال لهم : انما يهنأ بهذا أبو مرداس وأبو الحسن اللذان لم يناما

ليلهما يدعوان الله ويتضرعان اليه، وبذلك آتانا الله من فضله ما آتانا، فله الحمد والشكر .

ثم لما وصل المعسكر ترجل عن جواده، وأقبل يعزي المشايخ الحاضرين في اقاربهم الذين كانوا مع خلف وماتوا قائلا : آجركم الله على مصيبتكم في اخوانكم واقاربكم فقالوا له : يا عباس اما أولئك فأقاربنا وأولو أرحام منا وأما انتم فاخواننا حقا .

ثم لم يزل العباس يوالي الوقائع والهجوم على خلف، ويستميل أولي الالباب بعدله واستقامته، ويرهب اهل الفساد بشدته وحزمه، إلى ان اوهن الله شوكة خلف، وتشتتت بقية جموعه، واضمحل امره ومات، وترك ولدا هرب مع من رام محافظته واحياء اثر والده إلى جزيرة جربة، وكان من امره بعد ذلك ما سنذكره عند الكلام على الامام يوسف ان شاء الله، وبقي العباس محمود الخصال ممدوح الحال، يتابع الوقائع والحرب مع من لم يخلد إلى الطاعة من جهات الجبل الشرقية، كجبل شماخ وجبل يفرن وككلة وما حول ذلك حتى اطاعوا كلهم واعترفوا للامام افلح بالامامة .

وكان ابو مرداس رحمه الله كثير التعرض له ومنعه من محاربة تلك الجهات، وكأنه يؤمل منهم الدخول في الطاعة بدون حرب حيث كان المذهب واحدا او علم منهم القوة والكثرة، فأراد استجلابهم بالملاطفة واللين ومن ذلك ما ذكر من ان العباس، خرج ذات مرة (بعد هلاك خلف) بعسكره إلى جهات جبل يفرن، وكان معه ابو مرداس، فخلا به وأمره بالرجوع، فأبى فقال له : ان لم ترجع صحت في العسكر فتفرق عنك، (لأنه يعلم ان كلمته مسموعة) فجمع العباس رجال عسكره، وقام فيهم

خطيبا فقال : (نفد الزاد وضعف الكراع فارجعوا حتى اذا سمنت الدواب وجددنا الزاد رجعنا) فامتثلوا الامر ورجعوا .

وكأن الواقعة كانت في الشتاء ، ثم خرج اليهم مرة ثانية فجاء أبو مرداس واشار عليه بالرجوع ، فامتنع فقال ابو مرداس معاتبا نفسه على ذلك هكذا (ما أكثر جنون مهاصر (يعني نفسه) الذي يطلب رجلا مثله (يعني العباس ويترك ربه) ثم دعا ربه وسأله الغيث ، فأنزل الله عليهم ماء غدقا وتتابع المطر حتى طلب العسكر الرجوع ، وتفرقوا ، فقال ابو مرداس للعباس : ارددهم الآن ان قدرت يا عباس ، وخرج اليهم مرة أخرى فتأخر أبو مرداس وابو زكرياء عن الحضور ، فافتقدهما فقيل له : قد رجعا فخاف ان يكون رجوعهما لحدث او منكر انكراه عليه فأوقف العسكر في مكانه واقتفى أثرهما إلى ان وجدهما عند أم الخطاب ، وهي عجوز عالمة مشهورة بالورع والزهد في بلدة (اغرميان) بناحية تغرمين ومعنى هذا الاسم (قصر النفس في مجلس الذكر) فقال لهما : ولم رجعتما؟ فقالا : انك على الحق لم ننكر عليك شيئا وما رجعنا الا لكراهة لمعان السيوف ، فحمد الله على موافقتهما وقال : اتركا لمعان السيوف لمن يطيقه .

وكانت ام الخطاب لم تعلم برجوعهما من العسكر ، فذبحت لهما شاة ولما سمعت ذلك اخذت اللحم كله ووضعته في خرج على فرس العباس ، وقالت للشيخين هذا هو الذي يستحق اللحم ، وأنتما يكفيكما الجالبان (تعني العدس وما اشبهه مما طبخ مع ذلك اللحم) فرضيا بذلك واستحسناه وكأنها لم تعلم العباس بذلك فركب جواده ولحق بعسكره .

وممن كان معه في هذه الواقعة على ما رواه الشماخي رحمه الله العلامة ابو

نصر التمصمصي أحد فضلاء جبل نفوسة علما وعملا وزهدا دار الجبل أربعين مرة يحذر الناس من فتنة نفات، وقيل من فتنة خلف قال : وكان ضرير البصر، فنـزل إلى القتـال وقال : اللهم اني لا أبصر ما اتقي ولا ما أضرب فلم تقع به ضربة، ولم تخط له ضربة(١هـ)، وهذا من غريب ما يسمع ويدل على ما كان لهم من الاعتناء والله أعلم .

وكان رحمه الله على جانب عظيم من الآداب وحسن الخلق، ولا سيما مع أهل الفضل والعلم، خصوصا العلامة أبا مرداس، فقد ذكر الشماخي ـ رحمه الله ـ نقلا من تاريخ نفوسة الكبير، الذي لا وجود له الآن، أنه هو جماعة معه فيهم ابو مرداس، جاوزوا في طريقهم وهم مشاة بموضع قطعة الماء، فتخطاه العباس وعجز عنه ابو مرداس، لانه قصير القامة وطاعن في السن، فوقف يحاول ذلك، ثم قال للعباس : لم أقدر على الوثوب مثلك، ولا أريد ان أخالف طريقا سلكته، ولو سعدت مع حائط لسلكته لما لك علينـا من حق الـطاعة والانقياد، فرجع العباس اليه وسلك طريقا آخر سهلا، واظهر لهم التوبة مما صدر منه أولا ، من تغافله عما ورد من الامر بمراعاة الضعيف، والسير بسيره، فما ألطف هذه الآداب، وما أبلغ هذا الانقياد الى الحق منهـما، ولا يظن القارىء أن هؤلاء الذين يقاتلهم أبو عبيدة في الاول، والعباس في الآخر، كانوا على مذاهب أخرى، بل كانوا كلهم من الاباضية، وشقوا عصا الطاعة وانتحلوا الخلاف في مسائل طفيفة لا تخرجهم من الانتساب الى المذهب طلبا للاستقلال عن خلافة تيهرت، لما رأوه في أنفسهم من القوة والكثرة، اذ لم يكن الجبل وجهات طرابلس في ذلك الوقت على هذا الحال الموجود الآن من صغر القرى وقلة الناس، بل كان في الجبل وحده وفي ظاهره من قبائل نفوسة ومزاتة ما يتجاوز مائة الف فارس وعشرة آلاف فارس، وكان فيه من الرجال مالا يحصى، وكانت هذه

الفيافي الخالية الآن بجهات طرابلس والجبل، كلها عامرة بالقرى وأهل البوادي، كما تدل على ذلك آثارهم المؤيدة لصحة مافي التواريخ، وبعد أن علم الناس قيمة العدل وعرفوا فائدة الأمن، وذاقوا طعم السلامة والراحة انقطع الثائرون واستراح العباس وصفا الحال للامام، وانتظمت له الأمور فبسط العدل في الرعية، وسار فيهم سيرة مرضية، واستقامت له الاحوال، وساعدته الأقدار، فاقتفى سيرة أبويه، ولم ينقم عليه أحد في شيء من أحكامه، وكان من المهابة والفروسية وغزارة العلم والحلم والكرم والاقدام والورع، بمنزلة يكل عن وصفها اللسان، ويعجز عن حصر صغيرها القلم والبنان، هو السيد والأبطال عبيده، وهو الأسد الضاري والأقران صيده، اذا زأر دخل الرعب القلوب، واذا جال في ميادين الوغي هيأت اللحود وشقت الجيوب، ملأت أخبار بسالته البقاع، وصدعت هيبته الاسماع، وأدهش اقدامه في معامع الخطر عقول العقلاء، وكان حاتما الجواد بعد فيضان بحره الطافح من البخلاء، حدث عنه من باب الكرم ولا حرج، وقل ان شئت هو ممن عن دائرة ممكنات العقل في هذا الحديث خرج، فلله دره من امام واسع العطايا، كريم السجايا، باسط يمينه لادرار الخير وافاضة الصلات قابض شماله على سيف النقمة لنكال الخاطئين وحصاد أعناق العصاة، خاض عباب سياسة الملوك بذكائه المستقيم، واستخلص جواهرها الثمينة بمسبار عقله الكامل الحكيم، وجعلها نبراس سيره في حناديس مهمات الأمور، فكانت سيرته جارية على محور الاستقامة رغما عما يطرأ من حوادث الدهر وتقلبات السنين والشهور، فهو وأيم الحق جامع الخصال الحميدة، ناظم عقد الكمالات بفضائله الفريدة.

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

فمن سرح جواد فكره في صفحات التواريخ والسير، وريض نير عقله في رياض ذكر رجال السلف، ومالهم من النوادر والعبر، رأى لهذا الامام

العظيم من بينهم الذكر الجميل، والأثر الجليل، ما يبهر الألباب، ويؤدي إلى الوله والاستغراب، وقد تكلم المؤرخ ابن الصغير المالكي على سيرته فخذها على القاعدة المتقدمة استدلالا على صحة ما قلناه في حقه وان كان قليلا .

قال : فلما ولى أفلح أخذ بالعزم والحزم ونشأ له من البنين مالم يكن لغيره ممن قبله، وطار له الصيت وأتته نفوسة الجبل، يسألونه أن يقدم عليهم من يتولى أمرهم، ولم تكن الشراة تطعن عليه في شيء من أحكامه، ولا في صدقاته ولا في أعشاره، إلى ان قال : وكان قد عمر في امارته مالم يعمره أحد ممن كان قبله، أقام خمسين عاما أميرا حتى نشأ له البنون وبنو البنين، وشمخ في ملكه وابتنى القصور واتخذ أبوابا من الحديد، وبنى الجفان وأطعم فيها أيام المجاعة الجيعان، وقد تقدم ذكرها قبل هذا، وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة، وأجروا الأنهار فابتنى أبان وحموية القصرين المعروفين بهما، بأملاق، وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم، وغيره مما يطول ذكره ولقد حدثني من أثق به أن أبان وحموية خرجا يوما الى قصريهما متنزهين، ومعهما جماعة من اخوانهما، فذكر عن بعضهم أنه قال : لما اشرفنا على القصرين أحس بنا بعض عبيدهما فأعلموا سكان القصرين بقدومهما قال : فتشوف من كان بالقصرين اليهما قال : فوالله مارأيت شرافة من شرافات القصرين الا وعليها ثوب أحمر أو أصفر على الجدار كالبدور، وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم وكانت العجم قد أبتنت القصور، ونفوسة قد أبتنت العدوة والجند، والقادمون من أفريقية قد أبتنوا المدينة العامرة اليوم، وأمنت الساحات وكثرت الأموال، حتى أطغت أهل الحواضر والبوادي حتى لقد حدثني غير

واحد أنه كان للعجم مقدم يقال له ابن وردة قد ابتنى له سوقا يعرف به فكان صاحب شرطة أفلح اذا تخلل المدينة لافتقادها، لم يجسر أن يدخل سوق ابن وردة ولا يتخلله هيبـة، وكانت نفوسة تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الاموال .

وانكار المنكر في الاسواق، والاحتساب على الفساق (١هـ) بلفظه : يعني أن نفوسة هم الذين ينتخبون له من يصلح لتلك الوظائف، سواء كان منهم أو من غيرهم، وهو يعينه وكانت الأجناد تلي بطانة السلطان وأولاده وحشمه .

دهــاء هــذا الامـــام

ممـــــزوج

وبينــما هو في أرغــد عيش وأصفـاه، وأتم حال وأهنـاه، على نحـو ما حكيناه، اذا أوجس من القبائل المنتشرة حول المدينة، وداخلها خيفة، ورأى من مبادىء الثورة آيات جلية وحركات خفيفة، لما رأه رؤساء القبائل والمقـدمون في أنفسهم من القوة والجاه، ونفوذ الكلمة لدى عشائرهم بما ملكوه في ظل عدل ذلك الامام من منقوش الدرهم، ومدور الدينار وحمر النعم ورؤوس البقـر والشاة وجياد الخيل، ولما اتخذوه من الخدم والعبيد والفرش والستور والاسرة، فأشروا وبطروا وخامرهم الكبر ودخلتهم الانفة من أن تقام عليهم حدود الشرع الشريف، أو أن يتقيدوا بقانون من قوانين الـدين المـطهر الحنيف تصديقا لقوله تعالى وهو أصدق القائلين : **﴿ان الانسان ليطغى أن رأه استغنى﴾ وقوله ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾**

فعندها شمر ـ رحمه الله ـ عن ساق الحزم، وكشف عن عضد العزم، لضم الخرق قبل اتساعه، واطفاء لهب تلك المقاصد الشريرة قبل ارتفاعه، فألقى موجبات التخالف بين كل مقدم واتباعه، وبث الجواسيس بين شعوب تلك القبائل بطرق سياسية، وتدبيرات باطنية، كفته مؤونة القتال، قامت مقام تجنيد الجنود وسفك دماء الابطال، شأن من تقدمه من حكماء الملوك الذين حنكتهم التجارب، وكرعوا في بحار الحكمة واغترفوا من حياض السياسة البالغة من آبائه وأجداده وغيرهم .

وما كان غير بعيد حتى اختلفت الأراء بين تلك القبائل، وتضادت الأهواء وصار بين كل قبيلة وحليفتها من الشقاق، أضعاف ما كان بينهما من الألفة والاتفاق، فنفرت قبائل زناتة من قبائل لواتة ومطماطة، وعظم التشاحن بين الجند والعجم، وفشت البغضاء بين كل رئيس ومقدم، وصاروا كلما أوقدوا نارا للحرب مع الامام أطفأها الله، ورد العاصين بالخيبة وكفى امام المسلمين القتال، فآلت راضخة لسيطرته بدون محال، خاضعة الرقاب باسط الأكف لقبول أوامره ونواهيه بدون جدال، كل يخاف ان يسعى به قرينه إليه أو يستميله فيقربه منه، ويغضب عليه، وعندئذ أمن مكرهم بهذه السياسة، ورد كيدهم في نحورهم بهذا الدهاء والفراسه .

قال : فلما رأى ذلك استلقى على ظهره آمنا ومد يديه ورجليه مطمئنا وعلم انه كفي أمرهم وبقيت تلك الضغائن في القلوب (١هـ).

أحوال الامام أفلح مع الملوك

وكان له مع أغلب الملوك مودة، ولاسيما ملك (صوصو) أو(كوكو) التي تبعد عن تاهرت بمسافة ثلاثة أشهر تقريبا، وكان أكثر المسافرين لتجارة

السودان في ذلك العهد من أهل مدينة (وارجلان)، وهوارة قال الشريف في نزهته : ومدينة كوكو مدينة كبيرة مشهورة الذكر في بلاد السودان، وهي على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال، فيمر بها، ومنه شرب أهلها إلى أن قال : ثم أن ملك كوكو، ملك قائم بذاته خاطب لنفسه، وله حشم كثير ودخل كبير، وقواد وأجناد وزي كامل وحلية حسنة، وهم يركبون الخيل والجمال، ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الامم المحيطة بأرضهم، ولباس عامة أهل كوكو الجلود، يسترون بها عوراتهم، وتجارهم يلبسون القداوير (الجبب) والأكسية، وعلى رؤوسهم الكرازي، وحليهم الذهب، وخواصهم وجلتهم يلبسون الأزر، وهم يداخلون التجار ويجالسونهم، ويبضعونهم بالبضائع على جهة المقارضة، وينبت في أرض كوكو العود، المسمى بعود الحية، ومن خاصيته انه اذا وضع على جحر الحية خرجت اليه مسرعة، ثم ان ماسك هذا العود يأخذ من الحية ما شاء بيده من غير أن يدركه شيء من الجزع، ويجد في نفسه قوة عند أخذها، والصحيح عند أهل المغرب الاقصى، وأهل وارقلان، ان ذلك العود اذا مسكه ماسكه بيده، أو علقه في عنقه، لم تقربه حية البتة، وهذا مشهور، وصفة هذا العود كصفة العاقر، فرحا مفتولا لكنه اسود اللون، ومن مدينة كوكو إلى مدينة غانة شهر ونصف (١هـ)، ثم ذكر أن بين غانة ومدينة (أودغست) في شمالها ١٢ مرحلة، وبين أودغست ومدينة وارقلان ٣١ مرحلة، فتحصل أن مابين تيهرت وكوكو على هذا الطريق يقارب ثلاثة أشهر، والطرق اليها مسلوكة مأمونة بها أبداه أئمة بني رستم من الهمة بمحافظة قوافل التجارة إلى الشرق والغرب والسودان كما سيأتي عن ابن الصغير.

وقـال في صحيفة ١٢٠ : ومن مدينة المسيلة إلى وارقلان ١٢ مرحلة كبارا، وهي (أي وارقلان) مدينة فيها قبائل مياسير، وتجار أغنياء، يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة، وبلاد ونقارة (لعلها هكارة)، فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلدهم باسم بلدهم (أي يطبعون منه سكة دراهم ودنـانير)، وهم وهبية أباضية، ومن وارقلان إلى غانة ٣٠ مرحلة، وهذا الطريق اقرب من الاول إلى كوكو، وذكر أهل وارقلان في التواريخ بشأن التجارة إلى السودان كثير جدا .

وكذا رأيت لهوارة ذكرا كثيرا في هذا الباب، ومن ذلك ما قاله في النزهة أيضا : وان أراد بذلك حالهم بعد انقضاء دولة الرستميين فنقول : إنه نشأ في مدتهم، قال : وهم (يعني هوارة) أملياء تجار مياسير، يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الاحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر، وصنوف من الزجاج والأصداف والاحجار وضروب من الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع، ومامنهم من يسفر عبيده ورجاله الاوله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملا، كلها موقرة ولم يكن في دولة، الملثم «بعد دولة بني رستم» أحد أكثر منهم أموالا، ولا أوسع منهم أحوالا، وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم إلى أن قال : وأما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب (وهو أول المائـة السـادسة) فقد أتى على أكثر أموالهم (قبائل) المصامدة، وغيرت ما كان بأيديهم من نعم الله (اهـ).

وله مع ملوك الاندلس وغيرهم مواصلة وارتباط ومودة يهادونه بالهدايا النفيسة ويهاديهم بمثلها وله عندهم شهرة ومقام رفيع، ينظرونه بعين المهابة

ويرمقونه بأعين الاجلال والاعتبار، بحيث لم يحم حول مملكته طامع من الملوك الاخرى توقيا من وثبته واندهاشا من صولته، الا ما كان من أبي العباس محمد بن الاغلب، لما استولى على غالب شطوط افريقية، فانه دعاه الطمع الى التوغل في المغرب حتى تاخم حدود (تاهرت)، وشرع في بناء مدينة هناك، فسكت الامام ـ رحمه الله ـ ولم ينكر عليه مع علمه بما سينشأ عن عمرانها من المضايقة في الحدود، ونقص التجارة الى أن تم بناؤها وترتيب اسواقها على نسق عجيب وترتيب غريب، فوثب عليها وثوب الأسد بجيوشه وأجلاهم منها، وأبقاها خاوية على عروشها يعمرها العنكبوت والبوم .

قال المؤرخ ابن خلدون المالكي وشيد (يعني أبا العباس محمد بن الأغلب) مدينة بقرب (تيهرت) وسماها العباسية، وذلك سنة ٢٧ سبع وعشرين، وأحرقها أفلح بن عبد الوهاب بن رستم، وكتب إلى صاحب الاندلس يتقرب إليه بذلك فبعث اليه بمائة الف درهم (١هـ).

وقد ذكر الحكاية أبو العباس البلاذري كذلك في تاريخه فتوح البلدان المطبوع ببلاد الافرنج في صحيفة **٢٣٤** الا أنه قال : ان ذلك كان سنة **٢٣١** لا **٢٧** ولم يذكر التقرب، وأنت ترى أيها القارىء مافي كلام ابن خلدون مما يدل على ما كان له من الحقد نحو بني رستم كما قلناه من قبل، ولم نعلم له سببا، والا فكيف يتقرب أفلح إلى صاحب الاندلس وهو يهاديه بالمال كما قال، وهذا على فرض صحة النسخة المنقول منها، والا فربما كان الاصل هكذا (فبعث اليه بمائة الف درهم يتقرب اليه بذلك (فتأمل) والله أعلم .

بعـــض رسائل هذا الامــام ـ رحمــه الله ـ

وله ـ رحمه الله ـ عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة جامعة لنصائح ومواعظ وحكم، دلت على ماله في الفضل والكمال والعدل من طول الباع وفي غزارة العلم وقوة الادراك من الاتساع، ومن كلامه رحمه الله لبعض عماله قوله :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم :

من أفلح بن عبد الوهاب، إلى البشير بن محمد سلام عليك، واني أحمد الله الذي لا اله الا هو، واسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، أما بعد :

ألبسـك الله عافيته فاني أذكرك عظمة الله لا تنساها، وفكر في صغير خلقتك وفي عظيم ما خلقه الله، وما جعله من النكال والعذاب لابن آدم، وما عافى به من فاز برحمته من عظيم خلقه من السموات والارض والجبال والشجر، وأذكرك ما اعده الله لابن آدم من الكرامة التي تكل الالسن عن وصفهـا، فلو لم تكن كرامـة تطلب الا النجـاة من جهنم لكان في ذلك ما ينبغي للعبيد أن ينصفوا من أنفسهم، ويفارقوا جميع اللذات، الا اني أقول لك : ان الدواء في هذا هو الاستغاثة إلى الله في العصمة، فمن أراد به الاحسـان عصمـه، (أي حفظه من الاصرار على المعاصي ووفقه إلى التوبة) وجعله من أوليائه الذين قال لابليس فيهم ﴿**ان عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ فاطلب الله وارغب اليه في العصمة والتوفيق، وان يحول بينك وبين عدوك وأعلم أن لاشيء لمن عقل خير ممن وعظه، ومن موعظة يأخذها، فاقبل واجتهد في القبول إلى أن قال : وأما ما ذكرته من أن أجعل

لك سبيلا وأطلق يدك، وأن الحاضر يرى مالا يراه الغائب، فلعمري انه لكذلك، ولكن ليس في هذا انما هي أسهم جعلها الله وأوقفها، وهي وسخ أموال الناس، وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان ولا أمر ولا نهي، الا على قدر الاجتهاد فاتق الله واجتهد جهدك في توفير الحقوق وتوجيهها الينا، على هذا مضى من كان قبلك الخ ومن كلامه أيضا قوله :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، أما بعد :

عافانا الله وإياك عافية المتقين الذين أنعم الله عليهم بطاعته وهداهم إلى ما اختلفوا فيه من الحق باذنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب، كتبت اليك ومن قبلي في عافية، والله لا شريك له أحببت أن أعلمك ذلك بالكتابة به اليك لتحمد الله على ذلك وتشكره كما هو أهله، وأوصي نفسي واياك بتقوى الله، ولزوم طاعته، والتوقي على دينه، والتوكل عليه وحده، لا شريك له، فانه عز وجل يقول ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالـغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا**﴾ فالزم التقوى نفسك واشعرها قلبك، واصبر على ما أصابك ان ذلك لمن عزم الامور، والتقوى من الله بمكان عظيم، والمتقون هم الفائزون، خلصوا من هموم الدنيا وأشغالها ونجوا من عذاب الآخرة ونكالها، فمهدوا لانفسكم وقدموا لمعادكم واعملوا عمـلا يسركم غدا مكـانه فكأني بكم وقد فارقتم الدنيا ولحقتم بالموتى، وعليكم بالتمسـك بما مضى عليه سلفكم الصـالـح أهل الفقه واليقين والبصـيرة في الـدين نظروا إلى الآخـرة بقلوبهم فهان عليهم فراق الدنيا ومافيها، فلا تغرنكم فأنها فانية زائلة، فكأننا واياكم قد فارقناها فوقفنا بين

يدي الله تعالى، فيجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى عصمنا الله واياكم بالتقوى، ورزقنا العمل بطاعته، فانه ولي ذلك ومنتهى الرغائب لا شريك له، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

شــــعره

وكان رضي الله عنه من الادباء ذا اقتدار على النظم، وحفظه له منه كل ما رق وطاب، فمن شعره الرائق تلك المنظومة المشهورة بين التلامذة الجامعة لحكم ونصائح هي جديرة بالحفظ والاعتناء بل يحق لها أن تكتب بمداد التبر على صفحات اللجين، وأن يجعلها كل من كان ذا اعتناء بالعلم والعمل به من مكنونات فؤاده، ومن درر محفوظاته، حتى يصبح مهذب الاخلاق والخلق، متحليا بمحاسن الآداب العالية والعلوم النافعة، وقد عنى بتشطيرها ذلك الرحالة الشهير الاديب الكامل العلامة المفلق الشيخ علي بن أحمد العماني من علماء أباضية الشرق في أثناء سياحته بالقارة الافريقية في أواسط القرن الثالث عشر من الهجرة، لما زار مشاهد جبل نفوسة ورأى ما عليه أهله اذ ذاك من التهور في المناهي الشرعية مع خراب المساجد وانطماس معالم السير، ومن هناك توجه إلى السودان، وفي طريقه ذلك سرق منه ديوانه الجامع لأشعاره وقصائده، وما حرره من رحلته، فاغتم لذلك غما لا مزيد عليه، وهنالك توفي ـ رحمه الله ـ واليك نص المنظومة الرائقة مع تشطيرها البديع رضي الله عن صاحب الاصل ورحم من حاذاه بالمثل .

﴿بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم﴾

العلم أبقى لاهل العلم آثارا وليلهم بشموس العلم قد نارا
يحيي به ذكرهم طول الزمان وقد يريك اشخاصهم روحا وابكارا
حيٌّ وان مات ذو علم وذو ورع ان كان في منهج الابرار ما مارا
أو أنها غبرت أشخاصهم ومضوا ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة ولا يبالي أخيرا نال أم عارا؟!
حياته عدم في طول مدته كميت قد ثوى في الرمس اعصارا
لله عصبة أهل العلم ان لهم في كل أفق من الآفاق أنوارا
نالوا الاماني به طرا وبان لهم فضل على الناس غيّابا وحضّارا
العلم علم كفى بالعلم مكرمة ومن يرد غير خير العلم ما اختارا
كم جاهل بأمور الدين مختبط والجهل جهل كفى بالجهل ادبارا
العلم عند اسمه أكرم به شرفا للمرء اذ يكتسي بالعلم اطمارا
ما للفتى غير نور العلم من رتب والجهل عند اسمه اعظم به عارا
يشرف العلم للانسان منزلة ويجتني من جناه العذب اثمارا
العلم فخر علا عن كل مرتبة ويرفع العلم للانسان اقدارا
العلم در له فضل ولا أحد محص له كل عقل دونه حارا
فسل خبيرا وجب غور العقول ومن في الناس يدري لذاك الدر مقدارا
للعلم فضل على الاعمال قاطبة كان ذووه لدين الله انصارا
وفضله الجم قد نص الحديث به عن النبي روينا فيه اخبارا
يقول طالب علم بات ليلته برغبة تورد الظمآن تيارا
ومن يبيت في الدجى بالجد مبتذلا في العلم اعظم عند الله اخطارا

من عابد سنة لله مجتهدا ومنفق من كنوز التبر قنطارا
ما نال فضلا كفضل العلم قط ولو صام النهار وأحيا الليل اسهارا
وقال ان مداد الطالبين على دوامهم فيه آصالا واسحارا
ان اثر النضخ منه حين يبدي على ثيابهم وعلى القرطاس اسطارا
مثل دم الشهداء المكرمين لهم في جنة الخلد حور العين ابكارا
فضل ذوي العلم حتما لا يماثله فضل فأكرم بأهل العلم اخيارا
وقال هم يرثون الانبياء كذا مراتب العلم لا يرتاب من مارا
فهم ولاة لرب العرش لا عدموا فيهم روينا أحاديثا واخبارا
أكرم بهم من ذوي الفضل المبين لهم سر كسا ظلمات الأرض انوارا
ما ارتاب في فضلهم أولو العقول وهم ارث النبوءة في ايديهم صارا
الكاشفين معاني كل مشكلة من العلوم وما فيه النهى حارا
النادبين الى دين الاله به والمظهرين خفي الغمض اظهارا
اشدد الى العلم رحلا فوق راحلة وكن الى طلب التعليم سيارا
واعص الكرى واصطبر دهرا على أرق وصل الى العلم في الآفاق اسفارا
واصبر على دلج الاغساق معتسفا واقطع من الارض غيطانا واقفارا
وابذل من الجهد ما يشفي الفؤاد وجب مهامه الأرض احزانا واقطارا
حتى تزور رجالا في رحالهم عان لهم واقتبس من نارهم نارا
واصل زيارتهم طول الزمان تجد فضلا فأكرم بأهل العلم زوارا
والطف بمن أنت منه العلم مقتبس وكن به مشفقا برا ولو جارا
لو كان فظا غليظ القلب منقبضا جدد له كل يوم منك ابرارا
فاللطف مستخرج منه فوائده دون اللآلي ترى لليم تيارا

واجعل بقلبك بر الوالدين له وكن لصولته ان صال صبارا
فصدر ذي العلم ان راجعته حرج راع الرضا منه واحمد حينها فارا
واخفض جناحك ان تهدر شقاشقه فقد بري الله هذا الخلق اطوارا
وارصد خواطر ساعات النشاط له واستمطرن سحابا منه مدرارا
وحاذر الزيغ واحسن في السؤال له اذا أردت لبعض القول تكرارا
واحسن الكشف عن علم تطال به وانصت بحسك اسماعا وأبصارا
ودم عليخ ولا تسأم له طلبا والزم دراسته سرا واجهارا
ولا تكن جامعا للصحف تخزنها تملا التوابيت بالأسفار أوقارا
وأنت عن طلب التعليم في شغل كالعير يحمل بين العير أسفارا
نعم الفضيلة نعم الذخر تورثه فكل ذخر وكنز دونه بارا
والعلم خير كنوز المرء وهو غنى لنفسك اليوم ان أحسنت آثارا
وان هممت بخير الناس تألفهم تلق أفاضلهم مثنى وأوتارا
لقد وجدت اصطحاب الاكرمين وقد ألفت بالعلم أبرارا وأخيارا
فاطلب من العلم ما تقضي الفروض به واردف به عملا في القلب نوارا
وطهر النفس من أوساخ شهوتها واعمل بعلمك مضطرا ومختارا
واطلبه ما عشت في الدنيا ومدتها وكن بعزمك والترغيب مغوارا
واجعله ذخرا ليوم لم يفد ندم لموقف العرض أن لا تورد النارا
واجعله لله لا تجعله مفخرة بين الأنام لذيل الكبر جرارا
وصنه عن كل جبار تفق عملا ولا ترائي بـه بدوا واحضـارا
تعسا لكل مراء غير مقتصد كانت بطينته شوبا وأكدارا
لقد عدا طوره فيها يخوض به وقد تقلد آثاما وأوزارا

يصطاد بالعلم أموال العباد كما ساءت خلائقه واختارت العارا
يلقي الحبالات راجٍ للقنيص كما يصطاد مقتنص بالباز أطيارا
لو كان في فلوات الأرض معترضا ذره ولا تغتنم من ذاك دينارا
ولو ترى الارض من أطرافها ذهبا وللدراهم في الأسواق طرارا
فلا تخادع بها تبديه خالقنا واحـذر وكـن عن قبيـح الفعـل فرارا
واجهر وسر التقى واذرف دموع دم والله يعلم ما تخفيه اضمارا
مولاك يعلم ما تخفي الصدور فلا تفتن بفعلك مهما كنت غدارا
ان حدث عن ربك الباقي الرؤوف فلا يكن لك الحلم من مولاك غرارا
ولا تداهن اذا ما قلت مسألة وكن من العدل والانصاف ممتارا
ولا تداهن بفتياك الانام لقد أضررت بالدين ان داهنت اضرارا
واجعل لنفسك حظا من مذاكرة ولا تكن لأخيك البر هجارا
ومل الى مجلس تجلو الهموم به مع الصديق اذا استوحشت اسمارا
وانشط لعلمك اذ لابد من ملل اذا عرى قلبك التهام وانضارا
وجانب النذل لا تنزل بساحته ولا تكن من جميع الناس فرارا
وعاشر الناس وانظر من تعاشره فان في الناس صداقا ومكارا
صاحب أخا الصدق مع علم تسر به قصدا ولا تكثرن الصحب اكثارا
فرب مكثر صحب لا يزال يرى مذاق ودّ وبـالاسـنـان كشـاراً
ورب صحبة من يهوى الفتى جلبت لنفسه قرناء السوء أشرارا
الخير في الناس معدوم وفاعله أرى الزمان له قد صار غدارا
ما في الزمان بقي خل تسر به الا القليل وذاك القل قد بارا
وكن بربك لا بالناس معتصما فالناس كانوا كلمع الآل غرارا

وثق به واستكن فيما دعاك له كفى بربك رزاقا وغفارا
خير العباد عباد الله ان له طرفا إلى خشية الرحمن نظارا
ترى له عند خوف العبد من ضرر لطفا خفيا يرد العسر أيسارا
سبحانه صمد لا شيء يشبهه فرد قديم مديد الملك قهارا
أنا الفقير اليه أرجو رحمته أقررت لله بالتوحيد اقرارا

(تمت القصيدة مع تشطيرها)

وكفى المطالع دليلا على غزارة علم هذا الامام، أنه تصدر للتدريس والقاء العلوم على اختلاف فنونها قبل أن يبلغ الحلم، وكانت عليه أربع حلق وقيل سبع من طلبة العلوم، وقد بلغ في العلوم كلها حتى الرياضية والتنجيم مبلغا لا يدرك شأوه، حتى أنه كان ذات ليلة مع أخته يتجاذبان أطراف الحديث ويتحاوران في المباحث العلمية والفنون الأدبية، اذ كانت هي أيضا كسائر عائلتهم ممن رضع لبان العلوم، ولها القدم الراسخ في المعارف، فجرهما الكلام إلى علم التنجيم، وبعد أن تحاورا فيه مليا قال لها : لينظر كل منا أول ما سيذبح من الحيوانات في السوق غدا، فحسب هو فقال : أول ما يذبح بقرة صفراء في بطنها عجل أغر، فضبطت هي الحساب وقالت له صدق حسابك في البقرة ولونها والعجل، وأخطأ في الغرة، فان العجل لا غرة له، وذلك البياض الذي استظهرته من حسابك هو في رأس ذنب العجل، وقد التوى حتى صار على جبهته، وفي الصباح أمر أن يعرضوا عليه أول ما يذبح، فاذا هو كما قالت اخته بدون خلاف، ومع ما سردناه من درجته في العلم، كان والده الامام عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ يحرج عليه الدخول في التجارة تورعا وبعدا عن الوقوع في بعض الشبه من حيث البيع والشراء، حتى أنه عزم مرة على التوجه إلى جهة (صوصو)

بقصد التجارة في حياة والده، لأن السبل إلى السودان للتجارة اذ ذاك ممهدة مأمونة، وبعد أن هيأ نفسه وبرز برحله خرج اليه والده، ووقف له عند باب المدينة، وصار يسأله ويناقشه في مسائل الربا والبيع والشراء، حتى غفل في مسألة وأجاب فيها بخلاف الواقع، فقال له : ارجع يا أفلح عما قصدته حتى تستعد لهذا الامر، والا أطعمتنا الحرام من حيث لا ندري، فرجع امتثالا لأمر والده وتورعا، اقتداء بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله : كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في الحرام، ذكر الحكاية الشماخي ـ رحمه الله ـ ولعلها كانت في حال صباه قبل رسوخه في العلم كما يدل عليه سياق الكلام

خبر فرج النفوسي المعروف بنفات الخارج عن الطاعة وخبر العلامة سعد بن أبي يونس معه

وفي أيامه رحمه الله خرج عن دائرة الآداب فرج المعروف بنفات ابن نصر النفوسي، واتخذ الطعن في الأئمة الرستميين ديدنا، وخالف المسلمين في مسائل استحق بها البراءة .

١ ـ منها قوله ان الله هو الدهر الدائم، ولما سئل عن ذلك قال هكذا وجدته في الدفتر، يعني الكتاب المسمى بهذا الاسم .

٢ ـ ومنها انكاره الخطبة في الجمعة، وادعاؤه أنها بدعة وضلال

٣ ـ ومنها، انكاره استعمال الامام العمال والسعاة، لجباية الحقوق الشرعيه ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا .

٤ ـ ومنها قوله : ان ابن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ للأب .

٥ ـ ومنها قوله إن المضطر بالجوع لا يمضي بيع ماله، اذا باعه لأجل ذلك، وعلى من شهد مضرته تنجيته

٦ ـ ومنها قوله: ان الفقد لا يتحقق الا فيمن تجاوز البحر، إلى غير ذلك من المسائل التي انتحل فيها الخلاف، وقد كان ذا فهم عجيب وذكاء غريب، واطلاع وادراك زائدين، أخذ العلوم من منبعها، والتقط غرائب الفنون من معدنها مع زميله العلامة سعد بن أبي يونس النفوسي، وذلك عن الأئمة (بتاهرت)، وسنبين خبره مفصلا على ما ذكره أبو زكرياء وغيره فنقول وبالله التوفيق .

كان نفات هذا من احدى القرى الغربية من جبل نفوسة، وأظنها هي القرية المعروفة الآن بنفاتة العامرة، بقبيلة مالكية المذهب، تعرف بهذا اللقب، ولعلها من سلالته، اذ كان هذا اللقب موجودا فيها من زمن جدنا ذلك الشهير بالعلم الغزير، والكرم الواسع، والعدل في الاحكام بجبل نفوسة في أوائل المائة السادسة، أبي زكرياء رحمه الله تعالى، وهي في قمة جبل صعب المراقي في سمت بلدة (تنزغت) من جهة الشرق الشمالي تلي بلدة (إجريجن) من جهة الشمال، أهلها فقراء جدا وبينها وبين بلدة (تمزين) مسير خمس ساعات تقريبا إلى ناحية الغرب، وهذه لم تزل عامرة بجماعة من أهل المذهب لا تخلو في الغالب من فقهاء، ولأهلها محافظة زائدة على عمارة مسجدهم بالصلاة جماعة، وبمجلس القرآن العظيم ولهم اعتناء خاص بالسؤال عن مسائل الدين، كلما اجتمعوا بمنتسب إلى العلم، وذلك لكثرة المترددين منهم على جبال بني مصعب، لطلب العلم من علامة الزمان نادرة العصر شيخ الاسلام أستاذي الشيخ محمد بن يوسف

المصعبي صاحب الصيت الكبير بمؤلفاته العظيمة .

وكان أبو يونس ، وسيم النفوس منها ، وقد ولاه الامام عاملا على قنطرارة المعروفة عندنا الآن (بثيجي) ذات العمارة الواسعة ، والثمار المتنوعة ، والعيون الجارية في ذلك العهد ، وان لم يبق فيها الآن الا شيء قليل من النخيل ، وعيونها تسيل على وجه الارض ، لارتفاع كثير من منابعها ، ولا ينتفع بها أحد بشيء . فتوجه العلامة سعد بن أبي يونس باشارة من والده الى (تاهرت) ، لتلقي العلوم فيها ، فصحبه نفات هذا ، وأقاما هنالك ما قدره الله من الزمن ، يلازمان فيه مجالس الامام وغيرها ، من نوادي العلم حتى أدركا درجة استحقا بها الذكر .

وكانت تظهر في أثناء تلك المدة من سعد دلائل للصلاح ، وتلوح عليه سيماء العفة والاستقامة أكثر من نفات ، وان حاز نفات قصبة السبق في الذكاء والفهم ، على كثيرين من أترابه ، وبينما هما كذلك ، اذ بلغ الامام وفاة أبي يونس عامله على قنطرارة ، ووالد سعد ، ولما سمع سعد بذلك حن إلى الرجوع إلى وطنه للقيام بأشغاله ، فاستأذن الامام في السير فأذن له ، وطمع نفات في الولاية لما رآه في نفسه من القدرة عليها ، فعزم على السفر مع سعد راجيا أن يعينه الامام حاكما في مكان أبي يونس ، ويرجحه على سعد اذا رآه متوجها معه ، ولكن الامام بعد استشارته أهل الرأي ترجع لديه صلاحية سعد للقيام بهذا الأمر ، لما شاهده منه بعد تكرار التجربة من الصلابة في الدين والشدة والوقوف عند مناهي الشرع الشريف .

فكتب السجل (البيورلدي أو الفرمان) باسم سعد وطواه وختمه وسلمه لهما بدون أن يخبر نفاتا بشيء ، ولابد من أن يكون قد أخبر سعدا وأمرهما

بالمحافظة على ذلك الظرف إلى أن يسلماه لمن وجهه باسمه من جماعة المسلمين بقنطرارة، فاستراب نفات القضية واستفزه الشره وسوء الظن بالامام، فتخلف في طريقهما عن سعد وفتش في الرحال واستخرج الكتاب وفتحه، فاذا هو محرر باسم سعد لا باسمه فامتلأ حقدا وأضمر في نفسه كل شر قدر عليه، وبعد أن وصلا وسلما الظرف لصاحبه واتضح ان الامام عين سعدا حاكما جمع سعد أهل النظر والرأي، وقرأ عليهم أمر الامام تعيينه عاملا عليهم، فاستبشروا به وشهدوا باصابة رأي الامام، موقع الرضاء والقبول منهم فأحسن سعد السيرة، وأقام منار العدل جاريا على سنن والده في التعفف وجمع الكلمة، وكان له مسجد معروف به يقيم فيه الجمعة والعيدين، والأوقات كلها .

هذا ما كان من أمر سعد، وأما نفات فانه ذهب إلى قريته وهي لا تتجاوز في البعد عن قنطرارة مسيرة أربع ساعات أو خمس تقريبا، وشهر هنالك الطعن في الامام قائلا : انه يلبس الطرطور ويخرج إلى الصيد، ويصلي بالأشبر ويزيد في الخلقة (يعني انه عظيم العمامة كبير الوجه طويل اللحية جدا) إلى غير ذلك مما يعده في زعمه طعنا، وجهر بالقول بمسائله المتقدمة التي خالف فيها، فخاف سعد من أن يغر العامة بكلامه، فصار يكرر له النصائح، وكلما اجتمع به وبخه وهدده، وربما الان له القول، اذا خلا به سياسة وتأنيسا له، أملا في رجوعه ومحافظة على الهيئة الجامعة من الشقاق، الا انه لم يجد نفعا، وبلغ من ملاطفة سعد اياه والاحتراس من فتنته، أن اشترى دارا بجنب داره، وشرع في بنائها، ففرح أهل القرية والقرى المجاورة لها بذلك، لما شهر به سعد من الاستقامة في أحكامه

بقنـطارة، وصـار النـاس يأتـونه لزيارته واعانته بلوازم البناية، ولقضاء حوائجهم أفواجا أفواجا، وللعلاقة التي بينه وبين نفات من حيث العشرة، صار نفات هو المقدم في مباشرة الأمور ساعيا بقدر طاقته في الاعانة بما يلزم من نفسه، ومن غيره، وكان مؤديا حق الصحبة والجوار مجتهدا في العمل بيده، اذ كان بناء عظيما، له معرفة بطرق البناء، فاذا رأى سعد الناس قد اجتمعوا قال لنفات، وهو في عمله : متى تترك كفرك وضلالك يا نفات ؟ خوفا من أن يتوهم الناس أنه راض عنه، وأنه في ولايته اذ استعمله في البناء وقدمـه في أشغـاله فيقول نفات منزها نفسه : معاذ الله أن أكفر وأضل يا شيخ، وربما قال له ليس الشتم بعبادة يا شيخ، وإذا خلا المجلس من نفات قال سعد للحاضرين : انما جزاء نفات مني على عمله هذا، وخدمته الخبز واللحم، لا الشتم والتهديد، ومافعلت ذلك الا ليعلم الناس أني غير راض بسيرته، فلا يغترون بأقواله وفتنته .

ولما بلغ الامام خبر نفات، وانتقاده عليه قال : ليأت الينا نفات فيوضح لنا ما أنكره منا، فان كان حقا قبلنا (والرجوع إلى الحق فريضة)، وان كان باطلا (فايه) فلما سمع نفات ذلك، وعلم بطلان حجته قال : ان كلمة (إيه) من السلطان هي القتل عينه، فالى أين أذهب ؟ وبقي على ذلك، والامام لم يأذن فيه بشيء، والعمال لم يتجاسروا على معاملته بسوء انتظارا لاذن الامام فيه بما يراه من الحكم، إلى أن شاع أمره وذاع خبر خلافه وفساد عقيدته، فكتب عمال الامام الذين بلغهم خبره اليه ببيان حاله ومسائله التي خالف فيها .

جـــواب الامـــام أفلح ـ رضي الله عنه ـ إلى المسلمين في شأن نفات

ولما كثر ورود أخبار نفات على الامام من عماله أجابهم، رحمه الله بهذه الرسالة موجها بها إلى عامله على نفزاوة، وهي تراها بعيدة عن جبل نفوسة ـ وطن نفات ـ مستقلة عنه، وعن قنطرارة، الا أن العمال لشدة احتراسهم ومحافظتهم كاتبوا كلهم الامام بشأنه، حتى لا يكونوا مقصرين في النصح، وكأن عامله هذا من المقبولين عنده أكثر من غيره لحسن سيرته، ولمكان أبيه عنده اذ كان وزيرا له .

قال ـ رضي الله عنه ـ : بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم :

من أفلح بن عبد الوهاب إلى ميال بن يوسف، يقرأه على من بحضرته ويوجهه إلى كل من يرى توجيهه إليه، أما بعد : فالحمد لله المحسن إلى أوليائه المنعم عليهم بحسن بلائه، معز أهل طاعته وناصر القائمين بحقه، فليس من اتبع أمره بمخذول، أحمده على ما أنعم به علينا، وأحسن فيه الينا حمدا أبلغ به رضاءه وأستوجب به المزيد إنه قدير، انتهى إليّ الكتاب الذي كتب به اليك، تحية ابن عبدين، فقرأته وفهمت كل ما ذكره لك فيه عن كل خائب جاهل، بما هو عليه متحامل على مالا علم له به، متخبط في أمـوره خبط عشواء، لم يبلغ العلماء فيقتبس منهم، ولم يصحب أهل الورع فتحجزه آثارهم عن الهجوم على مالا علم له به، لكنه نشأ وحيدا، وأقام متوحشا من العلماء، فتقلب في جوانحه الشيطان بنفخاته، فأورثه الكبر، وعظم عليه الوقوف دون مالا يعلم، حتى يعلم، فهجم على مالا

يحل له، فكل شيء خطر على قلبه تكلم به مصيبا كان أو مخطئا .

وما أصابه من شيء على غير علم فاصابته خطأ اذ تكلم بما لا علم له به، وما اصابه من خطأ، فهو مخطىء فيه، فهو يتردد في الخطأ، ان أصاب لم يدر، وان أخطأ لم يدر فهو راكب مشكلات يخبط خبط عشواء، كحاطب ليل لا يدري ما يحطب، ولعله يحتطب ما فيه حتفه، أو حية تأتي على نفسه فنعوذ بالله من الفتنة، ومن السلوك على منهاج ذلك الرجل، لقد كان ومن مضى قبلكم من المسلمين لا يدعون مثل هذا يدخل مجالسهم، ولا يشهد جماعتهم، وكان عندهم مقصيا ومبعدا مدحورا، يهجرونه ولا يجالسونه، حتى يرجع الى سنة المسلمين، وانتم محقوقون باتباع آثار سلفكم والسلوك على منهاجهم، وان تفعلوا بهذا التائه المتخبط ما كان يفعله سلفكم بمن كان قبله لكي ينزجر من أراد الله به خيرا وينتبه غيره ممن يخاف عليه الاقتداء به، واتباعه ولا تظهر سنن أهل البدع ولا تقوم للشيطان دعوة وأنا مبدىء لكم ما ذكره وراد عليه ضلالته)، ثم شرع في الرد عليه، وفي ابطال مسائلة التي انتحـل فيها الخلاف للمسلمين بحجج واضحة، وبراهين قاطعة، وهي رسالة طويلة، فاطلبها في غير هذا .

ثم ان نفاثا لم ينته عن غيه، ولم يتيقظ من ضلاله، ولم تؤثر فيه مراشد العلماء وأهل الفضل، مع توالي النصائح اليه مشافهة وتحريرا من الامام وغيره ممن له اعتناء بشأن الدين، واصلاح الأمة، بل ازداد عنادا ورياء، فكثـرت الكتـابـات في حقـه إلى الامام من عماله وغيرهم، ممن ائتمنهم وخصهم بمكـاتبته واخباره، بأحوال الولاة والعمال والرعية، في الجهات فأجابهم ـ رضي الله عنه ـ بواسطة مكاتبه بهذا الجواب .

الرسالة الثانية للامام أفلح إلى المسلمين
فـــي حـــق نفـــات

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

من أفلح بن عبد الوهاب إلى . . . . . (   )

اما بعد ؛ ألبسنا الله وإياك عافيته، وكفانا واياك مهمات الامور برحمته، كتبت اليك، وأنا ومن قبلي من خاصتي والرعية عامة، على أحسن حال جرت به عادة الله، وتواترت به نعماؤه، فله الحمد كثيرا والشكر دائما، أتاني كتـابك بالذي أحب علمه من سلامتك وحسن حالك، وتواتر نعم الله عليك واحسانه اليك، والى من قبلك من الرعية وأهل الطاعة، فسرني بذلك وحمدت الله كثيرا عليه، وسألته تمام النعمة علينا وعليكم برحمته انه مجيب، وذكرتم أمر نفات، وأكثرتم فيه الكتب ووصفتم عنه أشياء لا يشك أحد منكم في أنها بدعة وخلاف لما مضى عليه سلفكم، فان يك ذلك كما وصفت فما ينبغي لاحد منكم أن يخالجه الشك في أن ذلك ضلال، لأن الهدى في أيديكم والحق ما شرعه لكم سلفكم الصالح، والائمة المرضيون رضي الله عنهم، فمن أتى من بعدهم بما يخالف شريعتهم، ويأخذ في غير طريقهم، فهو ذو بدعة وكل بدعة ضلال، وكل ضلال كفر، وكل كفر في النار، وأنتم على يقين من سنة أسلافكم، ولا يتبع الهدى الا في موافقتهم، ولا يخاف العاقل الهلاك الا في خلافهم، وقد قلتم في كتابكم : هو غلام حدث غر لا تجربة له في الامور فنخاف ان جشمناه السفر والشخوص، أن تحمله اللجاجة مع اعجاب الرأي والتيه بالنفس على التمادي فيما يهلك

به نفسه، فما وجه ما سألتم من ذلك، وهل أنتم على شك من دينكم أو ريبة في أمركم، السنة في أيديكم وأسلافكم الماضون كانوا على مثل حالكم، بل كانت لهم عمال في حال كتمانهم وكبار يقومون بكل أمر من الحقوق وغيرها في حال الكتمان، وليس أحد منهم يقول ما حكيتموه عن هذا الغلام .

فلما حدث منه ما ذكرتموه كان أمره واضحا، وهو أنه أخذ بخلاف مامضى عليه سلفه وأحدث مقالة لم يقلها عنهم غيره، وأنتم على يقين من أمركم، فما أحوجكم إلى مجيئه واشخاصه، وان كنتم تريدون أن تعلموا ما نحن عليه فنحن على ما مضى عليه سلفنا، ومقرون لما حكيتموه عنه ان قاله، فقوموا عليه، فان رجع عن مقالته، ونزع عن بدعته فمقبول منه رجوعه، ومرحبا بالتائب حيث كان، وممن كان، وأين كان، وان أبى الا التمادي، فانتم تعلمون السيرة فيمن ابتدع في دين الله، وشق عصا الاسلام، وقال بخلاف الحق، فانه محقوق بأن يهجر ويقصى ويبعد، ونفات مثل واحد من الناس لا أخصه بشيء دون غيره، والسيرة فيه وفي غيره واحدة، والسنة قائمة، وحكم الله لا يزول ولا يتبدل، فانا نشهد الله على من كان من أهل هذه الدعوة، وعمالنا وقوادنا وأهل العلم من أصحابنا، ومن ألتف اليهم من رعيتنا أن لا يسمع أحدا يبتدع في دين الله أو يسلك طريقة غير طريقة أصحابنا الماضين من أسلافنا، الا ويكون قد غير ذلك وأطفأه واستتاب من أظهره، فان لم يتب خلعه، فهذه مني عزيمة واجبة وأمر لازم وفرض محرم، أن يتعدى، وأن يقال بخلافه، فمن قرىء عليه كتابي هذا فليسمع وليطع وليتنبه إلى ما أمرت به، فان من انتهى اليه

كتابي هذا في حرج ان قصر عما أمرت به، ومن عاب أحدا من عمالنا بخصلة من الخصال أو أنكر عليه شيئا فليرفع ذلك الينا، فنكون نحن الذين يغيرونه ان كان مما يغير، وليس للرعية الوثوب على السلطان حتى ترفع ذلك الينا، لان الوثوب على السلطان والاقتفاء للخصال التي نحن أولى بالنظر فيها، خطأ من الرعية، وضرب من ضروب السائبة، لان هذا وضربه مما لا يعلم باطنه، الا بالبحث، وقد يظن الظان في الأمر فيراه خطأ، وهو عدل من حيث لا يعلم، ولم يظلم من دعاكم إلى نفسه، وكلفكم بأن ترفعوا أموركم اليه، لان في ذلك شفقة منا عليكم ان تهلكوا من حيث لا تعلمون، والله ولي عصمتنا وتوفيقنا وإياكم، وهو المستعان لا شريك له .

وقد كتبت اليك جواب مسائلك فعليك بتقوى الله، والعمل بطاعته وحسن النظر لنفسك، فانها ان سلمت لك فقد نجوت وفزت فوزا عظيما، ولا تدع الكتابة إليّ بحالك وسلامتك، فانك تسرني بذلك والسلام (اهـ).

ولما بلغ نفاثا خبر هذه المكاتبات في حقه، وأمر الامام عماله بتحقيق ما شهر عنه واثباته، ثم اظهار البراءة منه ونفيه وابعاده، ان لم يرجع بعد استتابته، ضاقت به الارض، وتوقع الهلاك، فكتب إلى الامام كتابا (لم نعثر عليه) يستفهم فيه عن موجب الأمر بالبراءة منه، ويشتمل على كلام حمل الامام رحمه الله على مكاتبته برسالة لا بسملة فيها، ولا سلام اشارة منه ـ رضي الله عنه ـ إلى البراءة منه وعدم الرضاء عنه .

الرســـالة الثالثــة للامـــام أفـــلح
ـ رحمه الله ـ أرسلها إلى نفـــات

من أفلح بن عبد الوهاب إلى نفات بن نصر ، أما بعد :

فالحمد لله المنعم علينا، والمحسن الينا، الذي بنعمته تتم الصالحات، ولا يهتدي مهتد الا بعونه وتوفيقه، فله المنة علينا ولا منة لنا عليه، وهو المحسن الينـا اذ هدانـا لدينه، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين وأئمتنـا المهتـدين الذين في اتباعهم نرجو الهدى، وفي مخالفتهم نخشى الهلكة، ولن يهتدي من خالف العدل ولن ينجو من ابتدع غير الحق، لان تلك البدعة ضلالة وكل ضلالة كفر وكل كفر في النار .

وقد كتبت اليك غير كتاب، أنصح لك فيه وأدعوك إلى رشدك، وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك الا ما أكره، ولا أرضاه لدين ولا دنيا، حتى حررت كتابا منشورا إلى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمـين وابتـدع غير طريقتهم، وسـار بغـير سيرتهم، وبنفيه وهجـره واقصائه، فكتبت إلي كتابا كأنك تسخط ذلك، أترى اني أؤازر من ابتدع في ديننا (كلا) ما كنت بالذي يفعل ذلك، ولا أؤازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى .

ثم قلت : انا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك، فان كنت كما كتب به الينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة، ومقصي من جماعتنا، لاننا ما كتبنا كتابنا ذلك الا على ان كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا، وزعم أن عمالنا أساقفة وانهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم، فهو محقوق بالبراءة ومقصى من جماعة

المسلمين، فان تكن أنت منهم، فأنت الذي أبحت لنا البراءة منك، وأحللت بنفسك ما لابد لنا أن نفعله بك وبغيرك، وان لم تكن كذلك فاظهر الانتفاء من ذلك، وكذب عن نفسك ما قيل عنك، لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها .

وأما قولك (تب مما كتبت به) فهو منك عبث اذ لم أشاهدك ولم أشاهد موافقتك حتى يجب لك عليّ أصل ولاية، ولم يكن لك عندي تقدمة في الموافقة، وانما رفع الينا عنك ما رفعه أهل الثقة عندنا، فأمرنا عمالنا أن يسيروا في كل من ابتدع بسيرة المسلمين وكتبنا اليهم بذلك، فجعلت تكتب الينا فيما ليس لك به كتاب، فعلام تتجاهل في الأمور، فان كانت غايتك انما هي ان نكتب اليك وتجيب، وتكتب الينا ونجيب، فهذه غاية قصيرة والسكوت عنك أهنأ واولى بنا، ونحن بأمنينا به أحق من مجاوبة أهل التكلف، ومن ليس له غاية الا أن يقال فيه كتب فلان، وقال فلان وفلان يفعل ويفعل فلان، وإن كانت غايتك التصحيح فانف عن نفسك ما رقي عليك، وكن من جماعتنا وموافقي اسلافنا، فاذا تبينت منك الموافقة والانتفاء مما رقي عليك، كان ذلك هو الذي نحبه منك ومن غيرك، وليس لك عندي غير هذا، وان يكن حقا ما رقي عليك وما قيل فيك من مخالفة اصحابنا، فأنت وما رضيت به لنفسك، واني غير كاتب اليك كتابا بعد هذا، الا ان انتهى الينا منك ما نحبه فننزلك من انفسنا بحيث تحب ، والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (١هـ) .

هــروب نفــات إلى الشرق
واستنساخه ديوان الامام جابر بن زيد ـ رحمه الله ـ
مــن مكتبــة الخليفة ببغــــداد

فلما قرأ نفات هذا الكتاب، وفهم اشارات الامام فيه، وأدرك منتهى ما ترمي اليه آخر عبارة منه، وهي قوله : (واني غير كاتب اليك كتابا بعد هذا)، علم أن دور الكتابة واللين قد انتهى، وانسد بابه ولم يبق الا دور الشـدة والعنف، الـذي فهمـه قبل ذلك من قول الامام (إيه)، فانتهز الفـرصة وجمع ما عنده من المال نقدا تحته، وكان غنيا متريا وهرب طالبا للنجـاة بنفسه إلى أن تجاوز حد نفوذ الامام، وهو (أرض سرت)، وظل سائـرا نحو الشرق حتى أتى مدينة بغداد، وهي اذ ذاك مقر خلافة بني العباس بالمشرق، وأقام فيها ما شاء الله ان يقيمه، مترددا على صديق له بغدادي في السوق يتأنس اليه، ويمضي جل أوقات فراغه عنده، إلى أن طرأت على السلطان مسألة علمية أشكل عليه الأمر فيها، وعجز علماؤه عن حلها، فأمر أن ينادي في الاسواق بأن كل من أجاب عنها بجواب مقنع له ما يسـأله من السلطان، وبينما نفات عند صاحبه اذ سمع ذلك النداء، فقال لصاحبه : اني سأذهب إلى السلطان وأسأله بيان مسألته لأجيبه عنها، فقال له : الزم نفسك فان الحال ليس بسهل وكأني بك وقد عجزت عن اداء ما تحملت به، فأمر بقطع رأسك، وليس هذا بميدان يجول فيه كل أحد، فأصر نفات على كلامه، ولما مر المنادي أمام الدكان قال له صاحبه ان هذا المغـربي ذكر أنه يقدر على جواب السلطان، فلم يك الا كلمح

البصر حتى اختطفه الشرطي، وذهب به إلى أن مثل بين يدي السلطان فقربه اليه وأدناه وآنسه، وسأله عن أحواله ونسبه ومسقط رأسه فأجابه عن كل ذلك بأوجز بيان، ثم رأى أن يمهد لنفسه عذرا حتى يكون مطمئنا آمنا من الهلاك ان هفا هفوة في كلامه عالما بأن آفة الانسان اللسان، فقال له : اعلم اني رجل بربري اللغة والطبع، مغربي المشرب، لم أتخلق بالآداب الشرقية حتى أقوم بما يجب عليّ من حسن القول امام مقامك العالي، فأطلب الاذن في التكلم بما يخطر ببالي مع العفو عما يصدر مني من الخطأ المغاير لسنن الأدب، وبعد أن تلفظ له بالاذن كما طلب، سأله عن مسألته فأجابه في الحال بجواب كاف شاف اقنعه كل اقناع، ولاعجاب الخلفة به، صار يكرر له السؤال عن معضلات المسائل، وهو يجيب .

وكان المجلس حافلا بالعلماء والفقهاء والأدباء والأمراء، وأولي الوجاهة من أكابر بغداد اذ كانت للمسألة شهرة عظيمة، ولها من قبل ذلك في الدوائر والمجالس ذكر شائع، وطفق أولئك العلماء يسألونه سؤالا بعد سؤال، وهو يجيبهم إلى أن أعياهم الأمر، وملوا الجلوس، ولحق الخليفة من العجب ما أبهر عقله وحير فكره، فنظر اليه وهو على هيأته المغربية فيما يظهر من قرائن الاحوال، وقال معرضا به : (نعم العسل في ظرف سوء) ففطن لها نفات وقال في الحال معرضا بديوان جابر المتقدم ذكره وهو موجود بخزانة (مكتبة) الخليفة : (نعم الرجل في قبر سوء) ففطن الخليفة أيضا لمراده واشتد به الحنق، وكاد يأمر بالفتك به، لولا ما صدر منه من الاذن في التكلم والعفو عن الخطأ، ثم قال له : اسأل حاجتك لنوافيك بها جزاء لعملك هذا، فقال له : ان حاجتي هي صدور أمرك بالاذن لي في نسخ ديوان جابر بن زيد الموجود في مكتبتك، فما توانى السلطان في اذنه بذلك، وقام نفات فرحا بما ناله من الاقبال والفوز، وكان الحاضرون من وزراء

السلطان وخـواصه فأدركهم من الجزع ما كدر راحتهم اذ رأوا السلطان مسايرا لنفات في أمر الديوان، فقالوا له بعد خروج نفات : كيف يصح لك يا أمير المؤمنين أن تأذن في نسخ الديوان ؟ وهو معدود من مهمات خزانتك وغرائبها، حيث أنه لا يوجد في غيرها قط، وهذا مما لا نرضاه منك، فتنبه اذ ذاك وندم وقال : اني قد وعدته، ولا يمكن لي الرجوع في كلامي فانظروا لي وجها مناسبا لا يحط بشرفي، وأمنعه به من ذلك فقال له أحد الوزراء : اذا رجع اليك فاعلمه بأنك موف له بالوعد، الا أن مدة النسخ لا يمكن أن تتجاوز يوما وليلة، فانه اذا سمع منك ذلك ترك الطلب، لأن هذا القدر من الزمن لا يغنيه شيئا، فاستصوب السلطان هذا الرأي، وأرسل في الحال إلى نفات يعلمه بذلك، ففطن نفات لهذه المكيدة وأدرك أن المسألة دبرت على أثـر خروجـه من عنـد السلطان، فرضي بالشرط، وذهب فاشـتري ما يكفيه بالتقـريب مدادا وأقلاما وورقا، وصنع أحواضا مجصصة بالجير مصففة على هيئة يتمكن بها من الكتابة كل ناسخ .

ثم أمر مناديه فنادي في المدينة بأن كل من يحضر إلى المحل الفلاني في يوم كذا ويكتب طول يومه فله دينار، وللذي يملي عليه نصف دينار، وغير خفي ما كان في ذلك العصر العامر بالأدب والعلم من الكتاب والقراء، فاجتمع له خلق لا يحصى وشرعوا في الكتابة إلى الليل وقبل انتهاء وقت هؤلاء نادى المنادي أيضا بأن من يكتب ليلته هذه فله ديناران، ولمن يملي عليه دينار، فبقي من الأولين من بقي، وخلف من ذهب غيره، واستمروا في الكتابة، وما طلعت الشمس حتى تم له نسخ تسعة أجزاء، وبقي له جزء واحـد منعـه السلطان من اتمامه لانتهاء الوقت المحدد المأذون به، فأستأذن عليه ودخل فطلب منه أن يتصفحه مرة واحدة، ويرده فسلمه له، وبعـد أن أتمه سردا قال له قد حفظته وان أردت أن أقرأه عليك لتعلم صدقي فعلت، فتعجب الخليفـة من ذلـك وأمره بقراءته فقرأه إلى آخره

بحيث لم يترك منه شيئا قط .

ثم ان الخليفة جمع وزراءه، وقال لهم قد أعيانا أمر هذا الرجل، وما قدرنا له على حيلة، وها هو قد أتم الكتاب، وأراد السفر، لابد لنا من رأي نتوصل به الى سلبه منه، فأشار كل برأيه، ثم قال هو : اني سأساله عند خروجه الى سفره عن اسئلة، فان عجز عنها سلبته منه بوسيلة انه ليس له بأهل، أو قتلته، وان اجاب فاسألوه انتم واحدا بعد واحد، حتى يعجز فنفعـل به ما ذكرناه، فاتفقوا على ذلك وافترقوا، ولما بلغهم ان نفاتا برز برحلة للسفـر حضروا ومعهـم الخليفـة بصـورة انهم يودعـونـه، وابتدأوه بالاسئلة المتتابعة زمنا طويلة، حتى تنبه الى أنهم ما فعلوا ذلك الا لقصد ارجاع الديوان منه .

ولما رجعوا ولم يقدروا له على شيء أجمعوا على أن يرسلوا وراءه من ينتزعه منه، فتحذر هو وحاد عن الطريق المعروف فلم يدركوا له أثرا، وتوجه إلى مكة ثم منها إلى طرابلس، ولما بلغها سأل عن الاحوال فوجدها قد تغيرت، ووجد دولة الامام في قوة عظيمة ونفوذ كامل، واذ ذاك علم انه لا مطمع له في شيء مما كان يقصده من الخروج عن الطاعة، واستغفال العامة، ورأى ان السكـون أسلم وأصلح له، إلا ان الشيطان غره وضـاعف حسده، وسولت له نفسه ان يعدم ذلك الديوان حتى لا ينتفع به أحد بعده، ولعله خاف ان يطلبـه منه الامام لينسخوا منه نسخة للمكتبة المشهورة بخزانة نفوسة الجامعة اذ ذاك للآلاف المؤلفة من الكتب بمدينة (سروس) في جبل نفوسة، أو لمكتبة تيهرت، فحفر له في الارض ودفنه وأخلد إلى السكون إلى أن مات .

وقد ذكر هذه الحكاية أبو زكرياء ـ رحمه الله ـ وغيره، ولا غرابة فيما ذكروه من حفظ نفات، فان ما يحكى عن حفظ الشيخ السيوطي وغيره لا يبعد عن هذا، وانما الغرابة في نسخ الديوان في تلك المدة القصيرة مع قولهم انه

كان وقر عشرة جمال، وانظر على هذا كيف تأتي لجابر رحمه الله تأليفه ونسخه مع اشتغاله بأمور المسلمين، إلا ان يقال ان الخط في ذلك الوقت غليظ جدا، ولا سبك فيه كما نشاهده في الكتب العتيقة، وان المكتوب فيه جلد لا كاغد، ولو كتب الآن لكان في أقل من ذلك بكثير، وقد تعرض صاحب كشف الظنون لذكر هذا الديوان، ولم يقل فيه شيئا والله أعلم .

والذي ذكره بعض أصحابنا فيما رأيته، ان نفاثا تاب ورجع عن مسائله التي خالف فيها، وهو كلام قريب، اذ لم يرو أحد أنه ذكر الامام بسوء، أو تكلف لاثارة فتنة أو سعى في فساد. بعد رجوعه من المشرق، بل كان الامام بعد ذلك نافذ الامر، ظاهر السيطرة في نفوسة وغيرها، والله أعلم بالحقائق .

امتحان الشراة من المسلمين للامام أفلح ـ رحمه الله ـ بتولية العلامة محكم القضاء

(الشراة) في اصطلاحهم تقريبا، لفظ يطلق ويراد به جماعة تتركب من أربعين رجلا فما فوق ذلك، اشتروا آخرتهم بدنياهم، بمعنى انهم تخلوا عن الدنيا وعاهدوا الله على انكار المنكر، والامر بالمعروف، بدون مبالاة ولا خوف من الموت، ولو أدى بهم ذلك الى القتال، فهم دائما يمتحنون الائمة والعمال بما يستدلون به على سرائرهم، وخفايا مقاصدهم واعمالهم ويحمدون سيرتهم أو يذمونها، وعلى ذلك يكون مدار أقوال الناس فيهم، ولذلك تجعل الائمة والحكام مراشدهم نصب أعينهم لعلم الجميع باخلاصهم العمل لله، في اصلاح الامة واقامة الدين .

وقد امتحنوا هذا الامام ايضا بما جعله في أرفع درجات الرضاء والقبول، عند الخاصة والعامة، من المسلمين، وقد ذكر ذلك ابن الصغير المالكي في تاريخه مفصلا، فخذه أيها القارىء منه بعبارته .

قال : وكان أول ما امتحنته به الشراة، أن قاضيا من قضاة أبيه مات في أيامه، فاجتمعوا اليه وسألوه أن يولي القضاء من استحق ذلك عنده، فقال لهم : اجمعوا جمعكم وقدموا خيركم، ثم اعلموني به أجبره لكم، وأعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم، فقلبوا أمرهم فلم يرتضوا أحدا منهم، وأجمع رأيهم على محكم الهواري الساكن بجبل أوراس (صاحب التفسير المشهور)، فأتوا إلى أفلح ابن عبد الوهاب، وقالوا له : قد تدافعنا هذا فيما بيننـا، فلم نرض أحدا منا، وقد رضينا جميعا بمحكم الهواري الساكن بجبل اوراس لخاصتنا وعامتنا، ودينا ودياننا، فقال افلح : ويحكم دعوتم إلى رجـل هو كما وصفتم في ورعـه ودينـه، ولكنه هو رجل نشأ في بادية لا يعرف لذي القدر قدره، ولا لذي الشرف شرفه، وان كان ليس منكم أحد يحب أن يظلم، ولا يظلم، ولكن تحبون ان يجري فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لاعراضكم، ولا امتهان لأنفسكم، قالوا : فانا لا نرضى لقضائنا أحدا غيره، فقال الذي حدثني أخبرني أبي أن أشد الناس بولاية محكم على أفلح أخوه أبو العباس قال أفلح : أما اذا أبيتم غيره بعد نصحي لكم، فابعثوا رسلكم اليه على بركة الله، قال : فخرجت الرسل بكتاب من أفلح، وكتاب من الشراة في داخل كل كتاب منهما بعد اثبات اسم الله العظيم .

أما بعد : فانه قد نزل بالمسلمين أمر لا غنى بهم عن حضورك، وهم منتظرون لقدومك، ولا يسعك التخلف فيما بينك وبين الله عن اللحوق بهم، والاجتماع معهم، ليجمع رأيك ورأيهم على ما فيه صلاح المسلمين، فلما ورد كتاب القوم ورسلهم على محكم عمد إلى دابة له وركبها، وأخذ

كسـاءه وعصـاه، ثم توجـه نحـو القوم، حتى أتى البلد وقصد المسجد الجـامع، فنزله وابتدر اليه أصحابه، فأحاطوا به، وقالوا : ان فلانا ابن فلان القـاضي توفي، وقـد أجمـع رأي المسلمـين، ورأي الامام عليك، (واعلم) انك متى تخلفت عما دعوناك اليه كنت المسئول عن كل دم يراق بغير حله، وفرج يوطأ بغير وجهه، فاتق الله ولا تخالف الامام والمسلمين، فيما دعوك اليه، وانك ان خالفت أجبرناك، وان أطعتنا شكرناك، فقال لهم : أن الحق مر أمر من شرب الدواء، الا كرها، وأنتم مترفهون ابناء نعم، وغيري احب اليكم مني نصحتكم، فاقبلوا نصيحتي، وذكروا كلاما يطول، ثم قال : اما اذا أبيتم الا هذا فارجعوا إلى امامكم، فاعلموه بما أعلمتكم، وشاوروه في أموركم، قالوا : لقد فعلنا، قال : على بركة الله، فأنزلوه في الدار المعروفة بدار القضاء، واشتروا له خادمة صفراء تخدمه، وأجـروا عليه من بيت المـال قوتـه، وسار فيهم السيرة التي أملوها منه، ورجوها عنده، فبينما هو على ذلك من أمره، اذ تنازع أبو العباس أخو أفلح المشير له والمـرغب فيه، وصهر لأفلح في أرض، فارتفعا إلى أفلح، أبو العباس أخوه، والآخر صهره، فقال لهما أفلح : كلا كما يعز عليّ، ولكن ارتفعا إلى محكم .

وكان أبو العباس يحب ذلك لتقديمه لمحكم، وايثاره اياه، وكان الآخر يكره ذلك ويحب ان لو كان امرهما عند أفلح، فأغتنم أبو العباس كلام أفلح، وبادر الى بغلة له شهباء هملاجة فركبها، وكان صاحبه على رمكة بطيئة المشي، فأتى ابو العباس محكما فوجده خاليا في سقيفة داره، ولم ير مع أبي العبـاس أحـدا فأجلسه محكم الى جنبه، وأقبل عليه يحدثه وخصمه

متخلف على دابته، فبينما هما كذلك اذ أقبل خصمه حتى نزل على باب دار محكم فلما رأى أبو العباس خصمه قد نزل نادى باسم جاريه محكم، فخرجت اليه فاستسقاها ماء ليري ابو العباس خصمه دالته على القاضي ليردعه بذلك، فلما صار القدح الى الجارية قال الخصم : في نفسه الى من احاكم، خصمي جالس الى جنب القاضي ويستقي الماء من داره، وأنا ملقي على باب الدار، لا يلتفت إليّ ولا ينظر نحوي، قال : ثم حانت منه التفاتة فاذا بالرجل جالس، فقال له : ما بالك يا هذا وما قصتك ؟ ، فقال له : جئت خصما لأبي العباس فوجدته جالسا إلى جنبك، فجلست في موضعي هذا، قال : فغضب محكم على أبي العباس، فقال يا أبا العباس : تأتي مع خصمك فتجلس إلى جنبي دونه، وتستقي الماء من داري وبيد جاريتي، (يا غلام) خذ بيد أبي العباس فاقعده مقعد خصمه، ولا يبرح، وخذ بيد خصمه فاقعده إلى جنبي، ومر الجارية فلتسقه ماء، ففعل الغلام ما أمره به، فخرج أبو العباس مغاضبا قد شق جيبه حتى دخل على أخيه (الامام) أفلح، فلما رآه قال له مالك : وما عراك ؟ قال له : نزل بي من هذا الهواري . . الجافي مالم ينزل بأحد، فقال : وما ذاك ؟ فقص عليه القصة من أولها إلى آخرها، فلما فرغ من كلامه قال له : يا أبا العباس قد كنت أعلمتك بهذا من قبل، والصواب ما فعل، والحق أولى ان يؤثر ولو فعل غير هذا لكان مداهنا، فاتصل ذلك من كلامه بوجوه الأباضية فأعجبهم وسروا به (١هـ) بالحرف الواحد، ومما امتحنه به وفد نفوسة، أنهم نزلوا عنده أضيافا ولما حضر الطعام وقف على رؤوسهم بالقنديل، وهم يأكلون، فمد له واحد منهم لقمة مما بين أيديهم باتفاق مع

رفقائه، ولما كانت احدى يديه - رحمه الله - مشغولة بالقنديل ولم يكن من الأدب قبوله اللقمة بيد واحدة، وضع القنديل فوق ركبته حتى لا يختفي عنهم نوره، وتلقى اللقمة بيديه، ولم يتكبر فشكروه على ذلك رحمهم الله أجمعين .

ولم يزل - رضي الله عنه - يوالي الارشاد ويتابع كتب النصائح إلى عماله في الجهات، والى الجموع في البلاد تارة باللين والسياسة استمالة للنفوس الشاردة وتأمينا للقلوب الوجلة، وتارة بعبارات الشدة وجمل الارهاب والفاظ التهديد قهرا لذوي المقاصد السيئة، وقطعا لآمال أولي الألباب الفاسدة والنيات الخبيثة، عادة كل ملك حكيم مدير جامع للاضداد من الشدة واللين، والغضب والرضاء، والجود والبخل وغير ذلك، ليصرف كلا حيث يجب، والا كان عاجزا عن ضبط ملكه وقهر أعدائه، فليتتبع من رام معرفة قدر علو همم الكمل من الرجال، غصون رسالة هذا الامام القائم بالعدل الشاهر للحق التي اتحف بها عامة رعيته وخاصتهم، نصيحة لله وهدية، وتليت عليهم بواسطة عماله في المجالس، فكان لها في النفوس وقع عظيم، وفي صفحات الصدور تأثير جسيم، لما اشتملت عليه من النصح والترغيب والترهيب، وهاكها بمعانيها الفائقة والفاظها الرائقة .

النصيحة العامة من الامام أفلح رحمه الله إلى كل من كان تحت لوائه من المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

من أفلح بن عبد الوهاب، إلى من بلغه كتابنا هذا من المسلمين، أما بعد، فالحمد لله الذي هدانا للاسلام، وأكرمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأبقانا بعد تناسخ الأمم، حتى أخرجنا في الأمة المكرمة التي جعلها أمة وسطا شاهدة لنبيها بالتبليغ، ومصدقة لجميع الانبياء، وشاهدة على جميع الامم بالبلاغ، من الانبياء عليهم السلام، اليهم منا من الله، ورحمة أرسل الينا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى، ووعده بالنصر على الاعداء، وضمن له الفلج والغلبة ووعده بالعصمة، وقال له عز وجل : ﴿**يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس**﴾ فأدى عليه الصلاة والسلام ما أمره الله به، ونصح لأمته، ودعا إلى سبيل ربه، وجاهد عدوه، وغلظ على الكفار، ولان للمؤمنين، فكان لهم كما وصفه الله عز وجل ﴿**رءوفا رحيما**﴾ حتى أنقضت مدته وفنيت أيامه، واختار له ربه ما عنده، فقبضه محمود السعي مشكور العمل، صلى الله عليه وسلم، فلم تبق خصلة من خصال الخير الدالة على الرشد الداعية إلى النجاة، الا ودعا اليها وسنها أو فرضها، أو أوجبها، ولم تبق خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة الا وزجر عنها، وأمر باجتنابها رحمة من الله لعباده، فله الحمد على ذلك كثيرا، ثم أمر تعالى بالجهاد في سبيله، والقيام بحقه والاخذ بأمره، والانتهاء عما نهى عنه،

وفرض الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، واغاثة الملهوف والقيام مع المظلوم، والقمع للظالمين، لكي لا تقوم للشيطان دعوة، ولا تثبت لأهل حزبه قدم، ولا ينفذ لهم حكم، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عماد الدين واعزازه، وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة لله تعالى، فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم، والقيام له بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه، وتقربوا إلى الله بالقيام بطاعته، وطلب مرضاته لتنالوا بذلك ما وعد به من جزيل الثواب، وكرم المآب .

وعليكم بتقوى الله واتباع آثار سلفكم فقد سنوا لكم الهدى، وأوضحوا لكم طريق الحق، وحملوكم على المنهاج، ففي اتباعهم النجاة وفي خلافهم تخشى الهلكة فاتبعوا ولا تبتدعوا، واجتهدوا في ادراك ما أدركوه، واياكم والبدع فان البدع هلكة وسوء طريقة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلاله كفر، وكل كفر في النار، فمن ترك آثار سلفكم الصالحين واتبع غير سبيلهم، فقد أحل بنفسه الهلكة ووجب عليكم القيام عليه، والبراءة منه، وخلعه مما هو عليه، حتى لا يجد عندكم هوادة ولا ادهانا، وحتى لا تقوم لظالم حجة، ولا تطاع له مقالة، فانكم متى لم يجد ظالم فيكم ولا عندكم مقاما، عززتم وعز دينكم، وكان لكم ذلك عند الله فوزا عظيما .

(واعلموا) أن الله قد أوجب عليكم أن تقوموا لله بالعدل في عباده وبلاده، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، فليس لاحد منكم عذر ولا حجة يحتج بها على الله، فقد أوضح لكم المنهاج، وأنار لكم طريقة الحق، وجعل لكل زمان رجالا تسند اليهم الأمور، ويأمرون فيطاع أمرهم، ويدعون فيجاب نداؤهم، وأنتم رجال زمانكم والكبراء من أهل موضعكم، فأعرضوا أعمالكم على اعمال من تقدم قبلكم من سلفكم، وأهل الزمان الأول من أوائلكم، فان كانت اعمالكم موافقة لاعمالهم، فالله على ذلك محمود، عليكم الثبوت والازدياد من كل خير، وان كانت أعمالكم قد

قصرت عن اعمالهم، وحطمكم الذنوب عن بلوغ درجاتهم، فاحسنوا محاسبة انفسكم وانتبهوا من نومة الغفلة، وخذوا لانفسكم من أنفسكم وانتم سالمون من قبل ان تؤخذوا ويؤخذ منكم بالكظم، وتصيروا إلى حالة لا يستغيث فيها مستغيث، ولا تقبل من نفس فدية، فاتقوا الله حق تقاته، وتواصوا بالبر والتقوى، ومروا بالمعروف المفترض عليكم، وانهوا عن المنكر الذي قد نهيتم عنه ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين**﴾ فانكم لن تسارعوا اليها بالأماني والتوكل، وانما تسارعون اليها بالعمل الصالح والمسارعة إلى مرضاة ربكم، ولن تنالوا ذلك، الا بعون من الله وتوفيقه .

ثم أحذركم أهل البدع الذين لم يعرفوا حقا فيتبعوه، وان يلقوا أهل العلم فيقتبسوا منهم الدين، عاشوا مع أهل الجهل فخلا بهم الشيطان، ونفخ في قلوبهم الكبر، وأورثهم العجب، فاستحيوا أن يقولوا فيما لا يعلمون لا نعلم، فأفتوا برأيهم أقواما جهلة لا يعرفون ما يقال لهم، قلدوهم دينهم وألزموا أنفسهم الرأي، فاتبعوهم على بدعتهم فضلوا وأضلوا كثيرا، وضلوا عن سواء السبيل، فويلهم ماذا سوغت لهم أنفسهم، وما الذي ظنوه وأملوه اذ تركوا آثار من مضى من السلف الصالح، هل يخافون الهلكة في اتباع آثارهم أو يرجون النجاة في خلاف سبيلهم ؟ كلا ولكنهم اتبعوا أهوائهم بغير حق، فألزمتهم فتنة الجهل، وانتفخت صدورهم من نفخة الكبر، لم يحاسبوا أنفسهم فينكشف لهم خطأهم، فاحذروا معشر المسلمين من كانت هذه صفته، ومن حل بهذه المنزلة ورضيها لنفسه، واعلموا أن من كان كهذا فقد صار من حزب الشيطان وأوليائه، لان الشيطان لم يضل ولم يهلك الا من باب الكبر، أمره الله أن يسجد لآدم صلى الله عليه وسلم فتكبر عليه وقال : ﴿**أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ فويله ماذا عليه من آدم اذ خلقه الله من طين لو

سجد له كما أمره الله تعظيما لله لا لآدم، وطاعة لله لا لآدم، وان كان آدم من طين فهو انما يطيع الله لا آدم، لكنه تكبر فهلك، وعاند فكفر، وغوى فضل، وأصر فأهلك نفسه، ولم يضر ذلك آدم .

فهكذا هؤلاء المبتدعون الراغبون عن آثار سلفكم، واتباع منهاجكم، والسلوك على طريقتكم، لم يضروا الا أنفسهم، ولم يحطبوا الا على ظهورهم، ولم ينقصوا الا حظهم، ولم يذهبوا الا نصيبهم، فأما أنتم فعلى بصيرتكم ان تجنبتم طريقة المبتدعين، وخالفتم سنة الظالمين، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم**﴾ واحسانه اليكم وارغبوا اليه في التوفيق والعصمة، واحذروا ما حذركم منه من اليم عقابه، وارغبوا فيما رغبكم فيه من جزيل ثوابه، واذكروا ما نهاكم عنه، وما وصفه لكم عن كل المبتدعين قبلكم، ومن أضل من الناس فيما مضى، قال عز من قائل : ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾ لعمري ما تفرقوا واختلفوا الا ببدعة ابتدعوها، وضلالة أحدثوها وفتنة رماهم الشيطان بها، فنفخ في قلوبهم الكبر، وأورثهم العجب، فحملهم على ترك المنهاج الذي مضى عليه صالح سلفهم، وزين لهم بدعتهم وصيرهم بعد الهدى ضلالا، وبعد الايمان كفار، فقال عز وجل لهم وفيهم : ﴿**أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ فسماهم كفارا بعد الايمان بما أحدثوه وابتدعوه، اذ تركوا ما شرع لهم من الدين وقال عز من قائل : ﴿**وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون**﴾ فمدحهم اذ ثبتوا على دينه، واتبعوا امره وسلكوا على منهاج اوائلهم، فعليكم معشر المسلمين باتباع الآثار، والعمل بما عمل به اسلافكم المتقدمون قبلكم، فقد سنوا لكم الهدى، ففي اتباعهم كل رشد، وفي مخالفتهم كل غي، والرشد خير من الغي والهدى

خير من الضلالة، والجنة خير من النار، ولن يستوي عند الله من عمل بطاعته، وامره، ومن عمل بمعاصيه وركب سخطه، ألم تسمعوه يقول عز وجل : ﴿**أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون**﴾ (هذا) وقد بالغت اليكم في النصيحة وشرحت لكم الموعظة، ورضيت لكم بما رضيت به لنفسي، ونهيتكم عما انهى عنه نفسي، نصيحة لله واجتهادا في طلب رضائه، والله اسأل أن يوفقنا وإياكم لطاعته، والقيام بحقه برحمته انه قدير والسلام عليكم ورحمة الله (اهـ) .

فتأمل ايها القارىء حفظك الله في هذه المواعظ البالغة، والحكم النافعة التي ما صادفت قلبا قاسيا الا ولان، ولا طبعا جامدا الا وهان، فهي لعمري الحق أكسير الهداية والتوفيق، ونبراس النهج الحقيق، منجية الغريق، ودليل الحائر إلى أقوم طريق، وهدية الصديق إلى الصديق، هكذا والله شأن أئمة الاسلام، وهكذا خلفاء الله على الأنام، وما سواهم ممن أطنبوا فيهم الكلام، وسبكوا في وصفهم النثر والنظام، الا أوهام في أوهام وسراب كأضغاث أحلام .

عمـــال هذا الامــــام ـ رضي الله عنه ـ

ومن ولاته وعماله المشهورين، العلامة أبو عبيدة واليه على جبل نفوسة، والعلامة ميال ابن وزيره يوسف، عامله على نفزاوة وما يليها، والعلامة سعد بن أبي يونس، عامله على مدينة تيجي، والعلامة العباس بن أيوب واليه على جبل نفوسة، بعد أبي عبيدة، والظاهر أن هذا بقي الى آخر دولته أو توفي قبله بقليل، اذ لم نعثر قط على مكاتبة تدل على شيء من ذلك، ولم نقف على من ولي الجبل بعد العباس، وقبل ابنه أفلح، الا ما ذكروه من

ولاية العلامة ابي ذر ابان ـ رحمه الله ـ ولكن مدته كانت قصيرة، فاما أن تكـون في آخـر دولة هذا الامام، واما ان تكون في صدر امامة أبي بكر أو محمد ، ولكونها في مدة هذا أقرب على ما هو المتبادر نتكلم عليها ها هنا فنقول .

ولايـة العلامـة أبـي ذرأبـان ـ رحمـه الله ـ على جبـل نفوسـة

ولما توفي العباس بن أيوب ـ رحمه الله ـ بعد أن أطاع الجبل كله، وما يليه وانقطعت الفتن، كتب المسلمون إلى الامام في ذلك، فولى عليهم العلامة الزاهد أبا ذر أبان بن وسيم النفوسي من بلدة (ويغو) المذكورة سابقا وكان عفيف النفس، لا تعلق له بالدنيا، ولما كلف بهذا الأمر استثقل حمله، ولم يجد مسلكا للتخلص منه، فتوجه إلى الله تعالى وسأله أن يقصر مدته، وأن لا تتجاوز سبعة أيام فإن مضت فلا تتجاوز سبعة أشهر فان مضت فلا تتجـاوز سبعـة أعـوام، هكـذا ذكـر الشماخي ـ رحمه الله ـ وقال : كان مستجاب الدعاء فلم تصل مدته سبعة أشهر، ولم يذكر هو ولا غيره سبب انفصاله، ولعله توفي، والا فمثله لا يعزل ولا يقبل منه التسليم ان سلم، لما كان عليه من التقوى والعلم، والمشهور عنه كما في السير انه أخذ العلم بعد أن كبر، والحامل له على طلبه هو أنه أصابه مرض لازم به الفراش، وكان معه في بيته أخوه أبو عبد الله مريضا أيضا، فاذا جاء الناس لزيارة أبي عبـد الله مروا على أبـان مرورا ثم يقعدون بجنب أخيه يتحدثون معه، ويؤنسونه بالكلام، فاذا قال له أحد وهو مارٌّ عليه كيف حالك يا أبان ؟

قال : ان عاش أبان جعل للدنيا جزاءها ان شاء الله، وذلك لما يراه من تعظيم الناس لأخيه واستهانتهم به لجهله، ولما شفي من مرضه اجتهد في طلب العلم عند العلامة أبي خليل الدركلي، حتى صار علامة زمانه، فقال له شيخه أبو خليل : افت يا أبان للناس بالرخص، فان لكل زمان نذيرا، وأنت نذير زمانك، وكان يقول : أدركت الناس الذين كانت أحاديثهم ذكر الله، وزيارتهم في الله، ومعانقتهم بالمودة والصحبة والمحبة، وبقيت حتى صحبت ناسا أحاديثهم الدنيا وزيارتهم الحوائج ومعانقتهم التناطح، وله رحمه الله ذكر كثير في كتاب السير، واقوال مشهورة في كتب المذهب، والله أعلم .

وفـاة هذا الامـام وعـدد مدتـه وأولاده
رحـم الله الجميـع

وفي آخر دولته - رحمه الله - استأذنه ابنه أبو اليقظان محمد في الحج، فأذن له وذهب، وبينما هو يسعى في الحرم الشريف، اذ أحاطت به رسل بني العباس وأخذ محفوظا تحت المراقبة إلى بغداد، وأودع في السجن مع أخي الخليفة العباسي، وستأتي القصة مشروحة ان شاء الله عند الكلام عليه، وكـل آت قريب، فبلغ الخبر إلى الامام فاغتم، واغتم المسلمون لذلك، وتحققوا أن ما صنعته نفوسة قبل ذلك كما سبق مع جده الامام عبد الـوهـاب من منعه من الحج خوف الغدر به، هو صواب محض، وأخذ بجـانب من الحـذر والاستعداد المأمور بهما شرعا، وبقي الامام مكسور الخاطر كئيبا لا يطيب له مقام، ولا يهنأ له منام لما أصاب قرة عينه ونخبة

بنيه، وان كانت شهامته فارسية تأبى الا اظهار التجلد والاصطبار كما قيل :

وتجلدي للشامتين أريهم أني لاريب الدهر لا اتضعضع

إلى أن وافته منيته والناس عنه راضون، وبحسن سيرته يتحدثون، وقد قال ابن الصغير في ذلك هكذا : (وان افلح بن عبد الوهاب لما فقد ولده أبا اليقظان هذا، وعلم أنه قد رفع الى بغداد اشتد حزنه عليه، وطال غمه به، فلم يزل مهموما محزونا الى ان وافته منيته وابنه محبوس ببغداد(١هـ)، وذلك سنة مائتين وأربعين من الهجرة (٢٤٠هـ) ، وعلى رأي المراكشي في ولايته كما تقدم تكون وفاته سنة ثمان وثلاثين ومائتين (٢٣٨هـ)، وكانت مدته في الخلافة خمسين سنة على قول ابن الصغير، وقال ابو زكرياء ـ رحمه الله ـ مكث في امامته ستين سنة واليا محسنا واماما حسن السجية رؤوفا بالرعية لا يخاف في الله لومة لائم (١هـ)، وعلى رأيه هذا تكون وفاته سنة مائتين وخمسين (٢٥٠هـ)، وبهذا يتضح ان ما قاله المراكشي من ان وفاته كانت سنة خمس ومائتين هجرية(٢٠٥هـ)، ليس بسديد لما يلزم عليه من كون مدته ١٧ سنة فقط، وهو باطل لمخالفته لكلام ابن الصغير مخالفة فاحشة وهو أقرب منه عهدا بهؤلاء الائمة، وأكثر اطلاعا على أخبارهم، وأصبح رواية اذ كان من سكان (تيهرت) معاصرا للامام محمد كما سيأتي في كلامه والله أعلم .

وقد ترك من البنين ذرية صالحة، رضعوا من لبان علومه الصفو الزلال، والتقطوا من بحور آدابه ومعارفه السحر الحلال، منهم العلامة يعقوب الآتي خبره، فكانوا كما ذكره ابن الصغير المالكي في حقهم حيث قال :

وكان لأفلح أولاد قد بلغوا من السن والتجارب والممارسة، ما يستحق به كل واحد منهم الامامة، إلا أن الناس لا يرشحون من جميعهم الا رجلين، احدهما يكنى بأبي بكر، والآخر يكنى بأبي اليقظان، وبهاتين الكنيتين يعرفان، وكان ابنه ابو اليقظان حسن الحال عند الجميع منسوبا الى الورع (١هـ)، وقد مر من علمه ما هو كاف .

الفصل السابع
خلافة الامام أبي بكر بن أفلح
رحمهما الله

وبعد وفاة الامام أفلح ـ رحمه الله ـ اجتمع حسب العادة أهل الحل والعقد من نفوسة وغيرهم ممن انتخبوه من العلماء والوجهاء، وعقدوا الامامة لابنه أبي بكر اذ كان هو المترشح لها بعد أبي اليقظان لو كان موجودا، ولما تم أمر البيعة واعلن للعامة أنكر بعض الناس ذلك، ورأوا أنه غير أهل لها، وعابوا نفوسة باستقلالهم بهذا الامر واختصاصهم به ثم سكتوا، وقد تكلم ابن الصغير المالكي عليه وعلى سيرته بما لم يأت به غيره، فخذ ما قاله على ما مر من القاعدة فيما نقلناه من كلامه .

قال : فلما مات أفلح بن عبد الوهاب قدم الناس ابا بكر ابنه، وأخبرني غير واحد قال : كان عبد العزيز بن الاوز ينادي بأعلى صوته الله سائلكم معاشر نفوسة، اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر، ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه اليهم ليختاروا من هو اتقى وأرضى، فلا يلتفتون الى كلامه، ولا يشتغلون بمقالته، فلما ولي أبو بكر لم يكن فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه، ولكن كان سمحا جوادا لين العريكة

يسامح أهل المروءات ويشايعهم على مروءاتهم، ويحب الأدب والأشعار، وأخبار الماضين، وكان بالبلد رجل يعرف بمحمد بن عرفة، وكان وسيما قسيما جميلا جوادا سمحا، وكان قد وفد على ملك السودان، (ملك صوصو) بهدية من قبل أفلح بن عبد الوهاب فعجب ملك السودان مما رآه من هيبته وجماله، وفروسيته اذا ركب الخيل بين يديه وقال له كلمة بالسودانية ليست تعبر بالبربرية، لأن مخرج كلامها انما هو فيما بين القاف والكاف أو القاف والجيم. الا ان معناها أنت حسن الوجه حسن الهيئة والافعال (اهـ).

مصاهرة الامام ابي بكر لابن عرفة
وما نشأ عنها من الفتن
«ممـــزوج»

وكانت لابن عرفة أخت أو بنت، لها من الجمال الباهر وحسن الخلقة، ما هو مشهور في تلك الاقطار في ذلك الزمان، ولأبي بكر أخت كذلك، فتزوج كل منهما أخت الآخر، فنال ابن عرفة عند ابي بكر المنزلة العليا من الاقبال والجاه، حتى صار الرأي في مهمات الامور كلها بيده فعلقته خواطر العامة لنيل مطالبها وقضاء مآربها من أبي بكر، فكان ابن عرفة اذا ركب من داره يتبعه في ذهابه وايابه من ذوي الحاجات والدعاوي ما لا يحصى من الناس حتى عاد كأنه الامام ولا ذكر لأبي بكر، فضاقت لذلك صدور أهل الحل والعقد من الرستميين وغيرهم من أرباب الاصلاح، ورأوا أن ذلك مما يؤدي الى الاستهانة بأمر الامام والى تضيع حقوق العباد وان مثل ذلك

لم يعهد في سيرة السلف، وربما خيف باستمرار ذلك الحال من حدوث حوادث يصعب حل مشكلاتها فتغيرت القلوب، وتبدلت الأفكار من العامة، وساءت الظنون بأبي بكر الا انه لم ينشأ عن ذلك ما يكدر راحته أو يوجب الاختلاف والتفرق بل بقيت الكلمة مجتمعة والدعوة واحدة، والرأي متفق والعمارة زائدة والتجارة رائجة، وان وقع بعض مشاحنة وتنافر بكثرة الاموال والاتباع بين القبائل ولا سيما بين هوارة فانها تحاسدت حتى انقسمت فانحاز قسم منها يعرف ببني أوس إلى من والاه من القبائل الاخرى وانحاز القسم الاخر ويعرف بترهنة كذلك الى غيرها وبقي الحال ساكنا لا حرب ولا نزاع ولا خروج عن طاعة الامام .

رجوع أبي اليقظان من بغداد وتحسن أحوال الامام بأعماله العالية

«ممزوج»

وفي هذا الاثناء عاد ابو اليقظان من بغداد فوجد الحال على ما وصفناه، ولم ينكر على أخيه شيئا ولم يدع امارة ولم ينتحل خروجا طلبا للسلامة وحقنا للدماء، بل لم يقنع بذلك حتى أدى مع أخيه واجب الطاعة والانقياد وشمر عن عضد الجد في اعانته واصلاح شؤون امامته على نسق ما رآه من الاجراءات الشرقية وشرح له كل ما شاهده، وما سمعه من سياسة ملوك الشرق بني العباس وغيرهم، واعمالهم الملكية فارتاح أبو بكر لذلك وكان ميالا الى الراحة والرفاهية ولذات المطعم والملبس وحب الرياضة، فأقبل

على أخيه أبي اليقظان وصرف اليه النظر في الامور، وسلم له المقاليد، لما ظهر له فيه من الكفاءة والاقتدار والنصح والامانة، وكان شهيرا بالورع والصدق، فقبل منه ذلك بطيب نفس وانشراح صدر، وجد في التحسينات النافعة والانشاءات الخيرية، وضبط الأمور على اتقن وجه وأسلم نظام .

«قــــــال»

وكان أبو اليقظان يركب إلى أعلى مسجد في المدينة، فيجلس فيه فمن تكلم إليه من الناس بين العمال والقضاة وأصحاب الشرطة نظر في ذلك نظرا شافيا، وأجرى الحق على من رضي، وسخط وعظم قدره وصغر، ولم تأخذه في الله لومة لائم، فحمد له الشراة ذلك وحمد له أخوه فعله، فاذا كان آخر النهار أتى باب دار أخيه أبي بكر، فان وجده جالسا دخل عليه وأعلمه بما حدث في يومه من خبر وحكم، وان ألفاه مشتغلا قال لمن علم انه يصل اليه الى حرمه أقرىء الامير السلام، وقل له أصبحت مدينتك اليوم هادئة، واذا كان الليل ركب وطاف في المدينة حتى يرتب الحرس، ويحكم امر الدروب ويأمرهم ان حدث حادث أن يوافوا داره، فاذا أحكم جميع ذلك انصرف الى داره، فاذا كان بالغداة غدا الى باب أخيه فان وجده جالسا أعلمه بما كان في المدينة من حدث ان كان حدث أو هدوء ان كان هدوء، فلم يزل كذلك، وعلى ذلك حتى خلب قلوب الناس، واشرأبت اليه ومالت نحوه، وفي كل ذلك محمد بن عرفة في دوي وصيت عال، لا ينظر ابا اليقظان في حزبه، ولا في طائفته ولا بالناحية التي هو بها، ولا ينظر بهيبـة له واجـلال وحـذر، وكـان محمد بن عرفة اذا أتى باب ابي بكر لم يحجب، كان ابو بكر في مجلسه أو في حرمه، وكان أبو اليقظان وجميع اخوة

ابي بكر واعمامه لا يدخلون على أبي بكر الا بالاستئذان اذا كان في مجلسه، والا انصرفوا، وكان محمد بن عرفة على غير ذلك (١هـ).

فتوقع أولو البصيرة منه الميل عن مركز الاستقامة والحيادة عن منهج الانقياد والمروق عن الطاعة، ورأوا ان بقاءه على ذلك من دواعي الفتنة ومؤسسات الخراب، ولكنهم لم يتوصلوا الى عرض حقيقة حاله على أنظار أبي بكر لشدة حجابه، وولوعه به، ولا زالوا يترقبون فرصة الوصول اليه لتنبيهه الى ان جمع رجال دولته وخواصه ذات مرة للمذاكرة معهم في بعض شئون مهمة.

مذاكرة رجال الامامة مع الامام في شأن ابن عرفة وتنبه الامام لذلك

(ممزوج) ولما اجتمعوا عنده، وخلا لهم المجلس ممن لم يدخل في الدعوة اذ كانت رسمية، وانتهت المذاكرة عما اجتمعوا لأجله، فتحوا مع الامام باب البحث عن أحوال ابن عرفة، وما هو عليه من العظمة وازدحام الناس عند بابه واتباعهم اياه رائحا وغاديا، وما يتوقعونه من سوء عاقبة ذلك، فاذا الامام يجهل ذلك كله، ولا يعلم بشيء مما حكوه عنه، فعاتبوه على التغافل عن مثل ذلك وعن عدم الاعتناء به والاحتياط، لدفع كل ما بحدوثه ربما تزعزع اركان الامامة ويختل نظام الهيئة الحاكمة، وعرضوا عليه ما ظهر لهم من الرأي في ذلك، الا انهم لم يشيروا عليه في ذلك الوقت بالقتل، واظهروا له ما لديهم من الرضاء بالأحوال الراهنة الجارية بحسن مساعي أبي اليقظان الذي صرف عنايته الكاملة وابدا غيرته الخالصة، في موجبات الاصلاح وتسديد الامور.

قال : فلما سمع ابو بكر ما سمع شق صدره، وأراد أن يعلم ذلك ففتح طاقا في أعلى قصره، يقابل الناحية التي يأتي منها محمد بن عرفة، فلما كان بالغداة جلس في الطاق، فبينما هو كذلك اذ تحرك محمد بن عرفة من قصره فبادر الناس اليه من كل جانب ومكان، وذلك كله بعين أبي بكر، وأقبل وبين يديه أمم وخلفه أمم، وعن يمينه أمم وعن شماله أمم، حتى أتى الباب فنزل أبو بكر من طاقه الى مجلسه، وقد هاله ما رآه، ودخل محمد فخلا معه مليا ثم انصرف، وصعد أبو بكر الى الطاق فاذا بالامم التي أقبلت قد انصرفت، وبقي بابه خاليا فتحقق عنده ما قال القائل ، ثم أرسل الى من ذكر له من أمر محمد بن عرفة ما ذكر فقال له : قد رأيت ما وصفت فما الرأي ؟ فقال له : ان هممت به وأظهرت ذلك امتنع منك وغلب عليك ملكك، لأن مطيعيه أكثر من مطيعيك، ولكن ألطف في أمره (١هـ).

خبر قتل ابن عرفة «ممزوج»

ثم بعد أخذ ورد في الكلام اشار عليه ذلك المستشار، (وبئست الاشارة) بطريقة رأى أنها مناسبة، والله يعلم ما أراد بها، نصح الامام ام غشه، فقال له : لا سبيل الى الاتقاء من سوئه، وكسر شوكته الا بقتله واخفاء جثته، بحيث لا يبقى له أثر ولا يوجد له خبر، ويعد مفقودا لئلا ينشأ عن ذلك التعصب للأخذ بثأره من ذويه وأقاربه، وتذاكرا في الطريق الموصل الى ذلك على النعت المذكور مليا ثم أمره بكتمان السر لاتمام الغرض، وافترقا وقد صعب عليه الحال صعوبة لا مزيد عليها، لما كان

بينهما من الألفة وشدة العلاقة بالمصاهرة وصار يقدم رجلا ويؤخر أخرى، الى ان جزم بامضاء ذلك الرأي، وكان له متنزة يعرف بجنان الامير، طالما خلا فيه مع ابن عرفة لترويح النفس، ورياضة البدن والتنزة في الايام المناسبة، لما فيه من الأشجار الملتفة، والازهار المتنوعة والعيون السائلة والأنهار الجارية، وأنواع الطيور، فأرسل اليه واحدا من خدمه يدعوه الى الحضور اليه للذهاب الى المتنزة، كالعادة ويعلمه بأن لا يبيح بذلك لأحد، وأن لا يستصحب معه من الخدم والاتباع أحدا، وأنه سيفعل مثل ذلك، وأن يكون مجيئه ليلا، حتى لا يتعلق به في طريقه أحد من الاصدقاء والخواص، الذين لا يمكنه منعهم من الحضور، فبادر ابن عرفة عندما أخبره الخادم بالخبر ملبيا ممتثلا كل ذلك، وهو غافل عما قدر له في علم الله تعالى من الهلاك في ذلك اليوم، ذاهل من قبل عما دونه الحكماء المتقدمون، ورسمه الادباء والسياسيون في شأن مصاحبة الملوك والسلاطين تحذيرا من بطشهم وتنبيها الى تقلبات أحوالهم، فوجد الامام في انتظاره متهيئا للخروج فركبا وخرجا ومعهما خادم للامام له علم بحقيقة الحال، وكان قد اتفق معه على الفتك به اذا بلغوا المتنزة، وساروا الى أن وصلوه، وأقاما يومهما ذلك فيه على بساط المؤانسة ولسان حالهما يردد عبارات الوداع، الى ان دخل وقت المغرب فأسبغا الوضوء، وقاما الى الصلاة وبينما هما في اثنائها اذ هجم الخادم على ابن عرفة بحربة فصادفت ما بين كتفيه فخر الى الأرض ميتا من ساعته، وكان على قرب المتنزة جبل فيه شق غائر في الأرض يعرف (بالشقة الحمراء) فأمره بالقائه فيه فزمله في ثيابه وحمله الى أن ألقاه هناك، وأخفى فرسه ورجعا يكتنفهما ستر الليل ففقد ابن عرفة أهله، لما بلغهم رجوع

الامام، ولم يكن معه، وباتوا في أشأم ليلة، واتصل الخبر ببطانته وشاع خبر فقده، فخرج الناس في اليوم الثاني يتجسسون خبره ويقتفون أثره الى أن أتوا الى المتنزة، وكان من قدر الله ان تغافل الخادم عن دمه فبقى في المكان ليكون دليلا على مصرعه، وداعيا الى رغبة الناس والحرص في الوقوف على جثته .

ومهما تكن عند امرىء من خليفة وان خالها تخفى على الناس تعلم

فتفرقوا حين وقفوا على الدم في الأودية والجبال للاطلاع على المكامن، والاماكن الغائرة الخفية، ثم دلهم بعض أهل الخبرة بالأرض على الشق المذكور فقصدوه وأنزلوا اليه رجلا فوجده .

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

فأخرجوه وحملوه الى النهر الذي قتل فيه وغسلوه وطيبوه، وبعثوا الى بيته، فأرسلوا اليهم فرسه وسيفه وكسوته المخصوصة فألبسوها اياه، وقلدوه السيف وأركبوه الفرس، وركب خلفه رجل ليمسكه حتى يكون على هيأته التي يكون عليها اذا ركب في حياته، وقصدوا به المدينة وامامه مناد ينادي بأعلى صوته قائلا : (ألا وان القتيل المظلوم يأمركم بطلب ثاره ودمه) فهرع لرؤيته الرجال والنساء والصبيان، ولحق الناس في ذلك اليوم من الرعب والجزع ما لم يلحقهم قبله، لما كان له في اعينهم وقلوبهم من المهابة بما قدمه لدى أكثرهم من الأيادي البيضاء، وقضاء المآرب، وقد قيل من قبل، جبلت النفس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها، وقيل أيضا (الناس عبيد الدرهم والدينار) وقال الشاعر :

رأيت النـــاس قد ذهبـــوا الى من له ذهب
ومن لم يكن له ذهب فالنـاس عنـه قد ذهبـوا
رأيت النـــاس منفـضـة الى من له فضـة
ومن لم تكن له فضـة فالنـاس عنـه منفضـة

ولعمري ان هذه القصة لأشبه شيء بقصة جعفر البرمكي مع هارون الرشيد .

قيـــام أهل المدينـة للأخـذ بثـأر
ابن عرفة وحربهـم مع الامـام
«ممـــزوج»

ثم عجلوا جهازه ودفنه ، وهاجت النفوس وكثرت الاقوال في سبب قتله وقـاتله ، واشتـد الحنق في الصـدور وعظم الخطب ، وكان في المدينة من الوجهاء وذوي الكلمة رجل يعرف بمحمود بن الويليلي يرى أن قتله ظلم ، وان القيام لأخذ ثأره واجب ، وكان له على ابي بكر من الانكار ، ما كان ، فانتهـز الفـرصـة اذ وجد للقصد سبيلا ، فأرسل رسله الى مجتمع الناس يتعرف أحوالهم ، ويتحقق ما هم عليه من الرأي ، فأخبروه بأن الشقاق في النـاس قد بلغ منتهـاه ، وان الثورة لم تتوقف الا على محرك ورأس يعلن بذلك ، فاسرع الصعود الى موضع بأعلى المدينة يعرف بالكنيسة ، وقرع الـطبـل للاجتـماع ، فبادر الناس اليه من كل الاطراف لتعودهم بضرب الـطبـل للاجتـماع في المهمات ، وهو قصعة كبيرة من الخشب أو النحاس مغطاة بجلد بعير بعد خدمته خدمة مخصوصة ، حتى يكون كالرق ، ومتى

يبس وضرب بعقال من وبر أوما أشبهه، صار له صوت يسمع من بعيد على مسافة أربع ساعات وأكثر، وأقل، هذا ان كان على النعت الموجود الآن، عند رؤساء القبائل من البوادي والقرى الكبيرة، من جبل نفوسة وغيره، ولهم في ضربه طرق معروفة عندهم، يستدلون بها على المقصد من ضربه، فبمجرد سماع الواحد منهم صوته يعلم أن المراد خير أو شر، كما يعلم النفر العسكري في الحرب الامر والنهي من رئيسه بالموسيقى، والبوق وما أشبه ذلك .

قال : فأمرهم بأخذ السلاح والزحف الى أبي بكر وحربه، واتصل الخبر بذلك بأبي بكر فبادر اليه خاصته من الرستميين والسمحيين وغيرهم، فتهيأ لملاقاتهم وزحف الناس من اعلى المدينة من ناحية المشرق، وزحف حزب ابي بكر وشيعته وخاصته من المغرب، ولبس كل واحد من الفريقين الدروع، والبيض والرايات، حتى اجتمع الناس جملة، الا اليسير بموضع بمسجد ابي . . . . فلم تزل ايد تتطاير وأرجل كذلك، وهامات تقلع، وافرغ على الفريقين الصبر (١هـ).

(ممزوج) فاغتنم العجم فرصة الوثوب، لما كمن في قلوبهم قديما من الغل، وقالوا ما لنا وللسكون والدعة، وقد وقع بين الجند والعرب ومواليهم وبين السلطان ما نراه من الاضطهاد والحروب، وماذا يصدنا مع هذا الاشتغال ببعضهم عن الهجوم على طرف من أطراف المدينة فننهبه ونخربه، ونقتل كل من عارضنا فيه، ثم نميل الى الكل فنهلكهم عن آخرهم، ويصفو لنا البلد ونستقل بالسلطان، فقصدوا الناحية المعروفة بموقف الدواب، وكان أهلها في استعداد وحذر مما اضمره العجم،

فناهزوهم القتال وحمى الوطيس، وقامت الحرب على ساق وقدم في سائر انحاء المدينة بين العجم وبين مقابلهم، وبين الجند والعرب، وبين ابي بكر، واستمرت الحال الى أن سقط واحد من وجوه العجم فتقدم من رام ايقاف تيار الحرب اليه، فخز رأسه وبرز به الى الميدان مناديا (يا معشر الجند والعـــرب تقـتلون أنفسكم والعجم قد دخلوا عليكم ساحتكم يقتلون رجـالكم ويستحيون نساءكم ويستحلون أموالكم) ثم ألقى الرأس بين الصفين، فلما نظروه وعرفوه ألقوا السلاح، وتعانقوا وعادوا يدا واحدة في الحـال، مالـوا نحو العجم فأبلوهم البلاء الشديد، حتى ولوا منهزمين، وانحاز ابو بكر الى داره آخذا طريق الانفراد لا أمر ولا نهي، ولا حكم وقد تشاءم الناس منه .

تجنـــب نفوســـة وأبي اليقظـــان
لهذه الفتنـــــة
«ممـــــزوج»

وفي كل ذلـك أبو اليقظان معتزل في المحل المعروف بعدوة نفوسة لا يظهر ميلا الى أحد، وان اتهمه الجند والعرب بالميل الى غيرهما، وكذا نفوسة لم يدخلوا في امر هذه الفتنة بقول ولا فعل، كأبي اليقظان، وبقيت الحرب متحركة بين العجم وبين الجند والعرب خاصة، يتبادلان النصر والهزيمة، فتارة لهؤلاء وآونة لاولئك، الا ان الجند متى تغلبوا على جهة وخرج أهلها من ديارهم ابقوها على حالها، ولا يغيرون منها شيئا الى ان تغلبوا ذات مرة على جهـة بجـوار درب النفـوسيين فيها بعض نفوسة، وكان مع الجند

والعرب خلف الخادم، مولى الاغلب، وهو ذو مال عظيم لا يضن به في اعانتهم، كلما احتاجوا، فصار متبع الرأي مسموع الكلمة عندهم، فقال لهم : ما أراكم صنعتم شيئا اذا أبقيتم الديار بدون احراق فاضرموها حينئذ نار والعياذ بالله .

حـــرب نفوســـة وأبي اليقظـــان

مـــع أهـــل المديـــنة

«ممـــــزوج»

فأخذت الغيرة نفوسة، وغضبت لذلك، وقالت هذا جزاؤنا منهم اذ لم نتعرض لحريهم، فلم يقنعهم الا احراق ديارنا واستحياء حريمنا، وكأني بهم ولسان حالهم ينشد قول الشاعر :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

فعنـدئـذ قامت قيامـة نفوسة، وتعصبت للمدافعة عن حرمها وحماية مجاوريها وضمت العجم اليها، ودعت ابا اليقظان في مكانه الى الموافقة على ذلـك، فأجـاب واتحـدت الكلمـة، وتقـوت العصبـة بانضمام العجم والـرستميين وابي اليقـظان الى نفـوسـة، وتجـددت الحـروب وتـوالت المصادمات، وكانت وقائع يشيب لشدة هولها الرضيع، كانت الدوائر فيها لنفوسة والعجم على الجند والعرب .

قـــــال

ثم كانت بينهم وقائع كلها للعجم، ونفوسة على العرب (منها) وقعة تعرف بقنطرة الدقنس، (ومنها) وقعة تعرف بقنطرة سليس، وفرغ في هاتين

الـوقعتـين وجـوه العـرب وصناديدها ثم كانت (وقعة) تعرف بيوم (الرد المعوج)، وانما سمي الرد المعوج فيما ذكر أن (نفوسة) أخذ بعضها على بعض العهد، وقال بعضهم لبعض : كيف يجوز لنا الفرار من الزحف ؟ قالوا : فما وجه الرأي ؟ قالوا ان نضم أرجل بعضنا الى بعض بالحبال، ونثبت للحرب، فكلما دارت الى ناحية درنا معها بوجهونا، ولا نبرح من امكنتنا حتى تقطع السيوف في هاماتنا، فكان في ذلك اليوم قتال لم يتقدم قبله قتال مثله، فكلما دارت الحرب على ذلك الرد دار اليها ودار معها، حتى افترق القتال وهو على حاله (اهـ).

فلله نفوسة من رجال وأبطال، ولم يخل الله الأرض حتى الآن من رجال منهم ملئوا يقينا وايمانا، فهم مثال الشجاعة والاقدام، لو ضمتهم المحافل وأظلتهم ظلال الرايات الحميدية وسط تلك المعامع الادهمية وأشباهها، لكـان لهم الفخـر المقدم والصيت الاسمى، ولكان حاديهم يترنم بدون خجل، ولا وجل وهو يسوقهم الى تلك الميادين ببيت الشاعر القائل :

واني وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

ولما قصروا عن درجة أولئك ان لم يجاوزوها بأضعاف، وبالامتحان يكرم المرء أو يهان (ومن يشابه اباه فما ظلم) .

(ممزوج) ثم مع استمرار الحرب، وتتابع الوقائع عكس القضاء المبرم الأمر وعاد النصر حليف الجند، والعرب والتقهقر والضعف، زميل نفوسة والعجم ﴿**سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا، وتلك الايام نداولها بين الناس، وما النصر الا من عند الله**﴾ حتى اجلوهم من الامصار واضرموا في ديارهم النار، وذهب كل ملتجىء الى حيث ينجو من

القتل، ثم انحازت نفوسة والرستميون والعجم مع أبي اليقظان الى المحل المعروف بعدوة نفوسة، وبنوا فيه حصنا منيعا مشيدا يأوون اليه ابان تضايقهم من عدوهم، فخلا للجند والعرب الجو، وخلصت لهم المدينة، وواسع البسائط، وكثرت اتباعهم، وعظم جيشهم، وكان فيهم من عظماء التجار والاغنياء عدد، منهم ابو محمد الصيرفي وابن الواسطى، وأمثالهما ممن حركتهم الغيرة القومية والحمية الجاهلية، فجادوا بما لديهم من الأموال، وأمروا ببناء حصن يقابل حصن نفوسة ويضاهيه في المنعة على بعد رمية سهم منه، فشرعوا فيه على ضفة نهر يعرف بالنهر الصغير، وهو الحائل بين الحصنين، فوالت عليهم نفوسة والعجم الهجوم لصدهم عن البناء، فاشتغلوا بالعمل ليلا، وربما جعلوا في النهار سترا عن العملة يرد عنهم سهام نفوسة، واجتهدوا فيه الى ان تم على النحو المطلوب من القوة والمنعة، ونزلوه واشتد اذ ذاك باسهم، وتقوت شوكتهم وناصبوهم الحرب، فجرت بينهم مفاخرات وملاطمات، وعادت الحرب رياء وسمعة، ونبغت في الفريقين ابطال وفرسان وتمارت الاغنياء والتجار في صرف الدينار والدرهم على شراء السلاح وآلات الحرب للمستحقين .

قـــال

اخبرني بعض المشائخ قال : عبت نفوسة والعجم ومن لف لفهم بين يدي حصنهم، وعلى حصنهم فبرز رجل من العجم يقال له ابن وردة وبيده سيف ودرقة، وكان قلما يلقى قرنا الا قتله فنادى هل من مبارز فهابه الناس (١هـ) .

ثم مع استمرار الحرب والزمن دوار، والقادر الخالق مختار، يفعل في

ملكه ما يشاء ويختار، أخذ دور نفوسة والعجم في الانحطاط وجموعهم في القلة واحوالهم مع عدوهم في التقهقر، الى ان بارحوا حصنهم عنوة يحنون اليه وييئنون من فراقه، واتخذ كل وجهة متفرقين في الجهات طلبا للنجاة .

واذا الديار تنكرت عن حالها * فدع الديار وأسرع التحويلا
ليس المقام عليك فرضا لازما * في بلدة تدع العزيز ذليلا

قـــــال

قالوا : ان العجم ونفوسة والرستميين لما نزل بهم ما نزل، تفرقوا في أقاصي البلاد فنزلت العجم بموضع يقال له (تابغيلت)، وهي على مرحلتين من (مدينة تاهرت)، واما الرستمية ومن لف لفها، فلحقوا بأبي اليقظان بالموضع الذي يقال له (اسكيدال)، وهو بقبلة تاهرت على مسيرة اليوم، أو أزيد قليلا في مجمع الاباضية، وأما نفوسة فنزلت بقلعة مانعة يقال لها اليوم (قلعة نفوسة) (اهـ).

خـــروج الامـام واســتيلاء ابن مسالة على المدينـــة

(ممزوج) هذا، وحال أبي بكر في المدينة لا يزال في ضعف وادبار، لا يقمع ظالما ولا يجير مظلوما ولا يقيم حدا ولا يغير منكرا ولا يحمي ملتجأ، الى أن ضاق به الحال وقلت انصاره، وتوقع الهلاك، فخرج بمن معه نجيا الى حيث لا يصاب ولا يدرك (هكذا ها هنا وقال ابو زكرياء سلم لأخيه محمد، وقال المراكشي اخرجوه ثم ردوه الى أن مات)، والظاهر أن مدته كانت قصيرة جدا لم تبلغ سنتين والله أعلم .

فاستولى على المدينة محمد بن مسالة، وهو أمير مستقل عن تيهرت

أباضي المذهب يدير شئونها ويدبر أحوالها على حسب ما يراه مساعدا، لاغراض العامة والكثير، وأخذت الهدنة في الناس مأخذا صار به كل مستقلا بجهة اخذا حذره، مما يطرأ عليه من مقابلة، غير متشبث بها يثير شرر الحرب، فهدأت الحركات، ووضعت الحرب أوزارها، وكاد يقع في الخواطر ميل الى حب الانفة والاجتماع، مللا وسآمة من وطأة الشقاق، وبينما هم كذلك اذا تحركت بين هوارة ولواتة بعض تلك الضغائن الكامنة في الصدور، منذ عهد قديم، فشبت بينهما نار الحرب وعلا لهبها، فأعان أهل المدينة هوارة حتى أجلوا منها لواتة، رغما عما قاسته في اثناء تلك الحروب الشنيعة من الاهوال وما تكبدته من المشاق ولاقته من الخسائر في الاموال والرجال، فنزلت حصنها المعروف بحصن لواتة، على قرب من الموضع المعروف (بتاسلونت)، الذي منه تنبع عيون نهر مينة الجاري من قبلة تاهرات، الذي نصبوا عليه المطاحن، وخاطبت ابا اليقظان على النزول بجوارها، والدفاع عنها فأجابها الى ذلك وتحول اليها .

خلافة الامام ابي اليقظان محمد بن أفلح ـ رحمهما الله ـ

ولما بلغ أهل المدينة انتقال ابي اليقظان الى حصن لواتة، خرج وجوهها وأهل الرأي منها الى لواتة، واتفقوا معهم على تقديمه، ثم أتوه وبايعوه بالخلافة، وذلك سنة احدى وأربعين ومائتين من الهجرة تقريبا (٢٤١هـ) .

قال ابن الصغير : وكان معه بعض الأموال التي أتى بها من بغداد، والمدينة بها رجال، هواؤ هم وقلوبهم عند أبي اليقظان، فخرجوا إليه فصارت الدعوة والامامة كلها لأبي اليقظان، واتته الأباضية من كل الاقطار، وبقى بالمدينة أمم ممن هم لا يوالون أبا اليقظان، ولا يرأون من رأيه، ويوالون

محمد بن مسالة على عماية لا على الديانة، فتجردت الحرب وعادت جذعة، وحمل ابو اليقظان الناس على الخيل، ودعى له بالامارة والامامة، والغي ذكر أبي بكر ومحمد بن مسالة (١هـ).

(ممزوج) وما سمعت القبائل الأخرى حتى أتت لتقديم البيعة من كل الأقطار فقبلها، وقام خطيبا فرغب الناس في الاعتصام بحبل الله لحقن الدماء، وحفظ الأموال التي طالما ذرتها رياح الظلم والاستبداد، وسفكتها سيوف الطاغين، ووالى الهجوم والوثوب على المدينة فاستمر الحصار على من تحصن فيها، وعصى من اتباع ابن مسالة (سبع سنين)، حتى ضعفت الاقوياء وأولو الثروة الذين كان عليهم مدار رحى الحرب، وفنيت تلك الاموال ودكت تلك الأبطال، وعمت المصائب، وكثرت الاهوال، وكره الناس الحرب والفتنة، وملوا من الحصر، وشكا بعضهم لبعض ما حل بهم من الفناء والفقر، الا ان النفوس الميالة بطبعها إلى الشر تأبى الخضوع، وتأنف من العدل، وتمج طلب الصلح والرجوع الى الطاعة، غواية وعنادا ﴿ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي﴾ .

طلب الامام للاعانــة الحربيــة من جبــل نفوســة

(ممـزوج) ولما رأى أبو اليقظان استمرار الحال مع طول الزمن رأى أن (يتأسى) بجده الامام عبد الوهاب، ويحذو حذوه في الاستمداد من نفوسة الجبل، فاستنجد بهم فامدوه ملبين دعوته ممتثلين أمره بجيش عرمرم جامع لكل بطل همام، وأسد ضرغام، وما هم بقليلين عندهم في ذلك الوقت .

قال : ولما وصلوه جددوا له البيعة، وعقدوها له، وانه لما نزلت (يعني نفـوسة الجبل) بأبي اليقظان اجتمع الى أبي اليقظان جمع عظيم، فرحل

بجميع جموعه من نفوسة وغيرهم حتى نزل بالقرب من مدينة (تيهرت)، فلما نزل منزله قالت نفوسة : لا نقاتل حتى نرسل الى اخواننا وننذرهم، فان فاءوا ورجعوا إلى الطاعة كانت أيدينا وأيديهم واحدة، وإن أبوا من ذلك نزلنا معهم على حكم الله، قال : افعلوا ففعلوا، فأرسلوا رسلهم وخوفوا الناس سوء العواقب، ووجدوهم قد ملوا الحرب، فقالوا لرسلهم قد تقدمت فيما بيننا دماء وأموال لا منا ولا منهم، ونخشى أن يؤخذ الباقي من الغابر، فان كان عقد وصلح على أن لا يتبع احد بدم، ولا مال، فسمعا وطاعة، قال : فاعلمت نفوسة ابا اليقظان بما قالت لرسلهم، فقال : معاذ الله ان نأخذ أحدا بما سلف، ولا أخذ الا بمستقبل، فاعطوهم على هذا ما أحبوا من العهود والمواثيق قال : ثم خرجت طائفة من عسكر ابي اليقظان حتى اجتمعت مع طائفة من أهل المدينة، فعقدوا ذلك فيما بينهم فقالت (نفوسة) : نحن انما جئنا لاصلاح بيضتنا وتأليف امرنا وقوام ديننا، ولم نأت لطلب علو في الأرض ولا فساد، فرحل ابو اليقظان بعساكره حتى أتى الظاهر المشرف على المدينة المعروفة (بقلعة نفوسة)، فضرب بها سرادقه التي قدم بها من بغداد قالوا : ولم ير سرادق مضروبا قبله، وانما كانت مضارب وقباب .

ثم أن أهل المدينة عمدوا الى داره التي هدموها، وكانت مزبلة من المزابل وكدية من الكدى، فكنسوها في يومهم ذلك، فابتنوها في أسرع الأيام، فلما فرغت نزلها أبو اليقظان، ورفع مضاربه ونزل الناس المدينة (١هـ).

فنادى مناديه في الناس بالأمان، وولى وظيفة القضاء بعد استشارة أولي

الرأي العلامة الزاهد الورع التقي ابا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ وستأتي له حكاية معه، وعلى بيت المال رجلا من نفوسة، وقدم على منبر مسجده من ارتضاه من صلحاء الائمة العاملين .

قال : ثم امر قوما من نفوسة يمشون في الأسواق، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، قالوا : فان رأوا قصابا نفخ في شاه عاقبوه، وان رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها، وامروا صاحبها بالتخفيف عنها، وان رأوا قذرا في الطريق امروا من حول الموضع ان يكنسه، ولا يمنعون احدا من صلاته في مساجدهم، ولا يكشفونه عن حاله، ولو رأوه رافعا يديه في صلاته خلا المسجد الجامع (المسجد الذي يصلي فيه الامام نفسه) فانهم اذا رأوا فيه رافعا يديه منعوه وزجروه(١هـ)، ولعلهم يفعلون ذلك بدون اذن من الامام، ولم يبلغه الخبر والله أعلم .

وثابر رضي الله عنه على اصلاح ما انثلم في أثناء تلك الحروب، حتى عادت الناس الى خطة سيرها القديم في سبيل العمارة والتجارة والبنيان، واشتغلوا بطلب العلوم، وقضاء ما فاتهم في فترة تلك السنين القاسية التعيسة من العبادة، نادمين على ما اجترموه فيها من السيئات، وما اضاعوه من الاموال، وما سفكوه من الدماء عبثا وطغيانا، وكاتب الامام بعد اصلاحه الشئون الداخلية رؤساء سائر اتباع الامامة في كل الجهات، فأتت طائعة خاضعة، وقدمت البيعة برضاء، فرتب الولاة والعمال والحكام والقضاة، وأصحاب الشرطة في الولايات كلها، وأسرع السير في التقدم في الاصلاح دينا ودنيا، حتى اجمع الناس قاطبة على حبه وولايته والرضاء بأحكامه، وبلغ في الفضل والعدل والورع والزهد مع حسن السيرة مبلغا

عظيما، استحق به تشبيه ولايته بولاية جده الامام عبد الرحمن ـ رضي الله عنه ـ اذ كان كمثله في الاتفاق على ولايته، واشتغل رحمه الله بتجديد ما اندرس من الدين بكمال جد واجتهاد، يباشر القاء الدروس وتعليم العلوم للطالبين بنفسه، طلبا للأجر وقياما بالواجب، وترغيبا للغير، فشدت اليه الرحال من كل الاقطار، فقلد الواردين عليه من جواهر فنونه وغرائب علومه، العقود الثمينة، وكانت له اليد الطولى والقدح المعلى في سائر الفنون، حتى صاروا قادة ومصابيح يهتدي بهم في الآفاق في دجى المشكلات، ويلجأ اليهم في المعضلات، وامتلأت عموم ولاياته بالعلم والعلماء والزهاد، وأصحاب الكرامات، خصوصا جبل نفوسة كما هو مبسوط في كتب السير كلها، ومع ذلك لا يفتر عن الاشتغال أوقات خلوته واستراحته من التعليم، ومصالح دولته بالتأليف والتحرير، ومكاتبة العمال والولاة، وجموع الرعية بالنصائح المرشدة، والحكم النفيسة، والرد على المخالفين من سائر الفرق والمذاهب، حتى انه ألف في الاستطاعة وحدها أربعين كتابا، ومما يوجد من رسائله هذه النصحية العامة .

رسـالة الامـام الى جميـع رعيتـه
ارشـادا ونصحـا

ولما أحس من الناس بعض فتور وتقاعد عن الواجب، اقتدى بأبيه وأجداده الكرام أهل النصح لله والارشاد الى دينه، فحرر نصيحة عامة تليت بواسطة العمال في جميع الجهات، ايقاظا للنفوس الغافلة وتنشيطا للهمم الخامدة، فخذها أيها القارىء، وهي قليل من كثير، مما كتبه ـ رحمه الله ـ في هذا الباب، لتستدل بها على بعض ما كان لهذا الامام العظيم من

الاعتناء بمصالح الملة والامة، وواجب النصيحة في الدين لاخوانه المسلمين، فجزاه الله عن الاسلام وأهله خيرا قال :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(من محمد بن أفلح) الى جميع من بلغه كتابنا من المسلمين، سلام عليكم واني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله الصلاة على نبي الرحمة وهادي الامة، صلى الله عليه وعلى آله وسلم (أما بعد) : فان أفضل ما يتواصى به العباد ويتحاضوا عليه، تقوى الله تعالى، ولزوم طاعته والزجر عن معصيته، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب، والعمل الصالح (وعليكم معاشر المسلمين بالتهيؤ للقدوم على الله، والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الابصار، وتتغير فيه الألوان، ويشيب فيه الولدان، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

(واعلموا) رحمكم الله أن أهل العلم بالله القائمين بهذه الدعوة، قد انقرضوا وقلت الخلوف منهم، فرحم الله أمرءً مسلما احتسب بنفسه وأرصدها لله في طلب العلم، والنقض على من حاد الله وعدل عن منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضاد المحقين من عباده، حتى تكون كلمة رسول الله هى العليا، والباطل زهوقا، وعليكم معاشر المسلمين باتباع الماضي من اسلافكم، والمتقدمين من ائمتكم الصالحين، من أهل دعوتكم، فاقتفوا آثارهم واهتدوا بهداهم، واحذروا الزيغ عن طريقهم، والميل عن منهاجهم، وخالفوا أهل البدع المضلة والاهواء المزلة، ممن أراد

ان يبـدل دينكم ويلبسكم شيعـا ويلبس عليكم امـركم ممن اتبـع هواه واستحـوذ عليه الشيطان ونبـذ ما جاء به القـرآن، فألبس على الضعفاء امرهم، وزين بدعته في قلوبهم فخدع من لا بصيرة له ولا علم بما مضى عليه الائمـة الراشدون ـ رحمة الله عليهم ـ والسلف الصالحون من أهل دعوتكم فأضل كثيرا وضل عن سواء السبيل، وقد ذكرنا لكم ما فيه الكفاية ان شاء الله، وبه نستعين وعليه نتوكل، وما توفيقنا الا بالله (اهـ).

وقد تكلم على بعض سيرته المؤرخ ابن الصغير المالكي، وأجاد في ذلك فخذه على القاعدة المتقدمة ايضا.

قال: وكان ابو اليقظان عاش من السنين مائة أو نحوها، وكان عمره في امارته نحوا من أربعين سنة، ولحقت أنا بعض امارته وايامه، ورأيته وحضرت مجلسـه وقد جلس للناس خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي منه ورأيته يوما ثانيا في مصلى الجنائز، وقد رميت له وسادة من أديم (جلد)، فجلس عليها ينتظر فراغ دفن رجل مات من وجوه الناس، وكان ربع القامة أبيض الرأس واللحية، وكان اذ جلس للناس امرهم بالجلوس، لم ينطق احد بين يديه الا ان تكون ظلامة ترفع اليه، وكان زاهدا سكينا ورعا ناسكا (ما أحسنها من شهادة)، وكان اذ جلس في المسجد الجامع جلس على وسادة من أديم مستقبلا الباب البحري، وله سارية تعرف به، يجلس اليها، ولم يكن غيره يجلس إليها، وكان يقابله نصب عينيه رجل من نفـوسة، يعرف بعيسى بن فناس، وكان عندهم من الورع بمكان ويلي عيسى رجل من هوارة يقال له ابن العقير، لسانهم في الفقه، ولم يكن في ورع عيسى، وكان عن يمينه وعن يساره وبين يديه وجوه الناس، وكان

أخص الناس به رجل من العرب يسمى بمحمود بن بكر، وكان مدرتهم الذي يذب عن بيضتهم، ويدافع عن دينهم، ويرد على الفرق مقالاتهم، ويؤلف الكتب على مخاليفهم رجل يقال له عبد الله بن اللمطي(١هـ)، (وانا لنتأسف كثيرا جدا لفقد مثل هذه التآليف، فلو وجدت مع ما جمع من المناظرات الواقعة من المعتزلة للعلامة مهدي وغيره، لكانت حجة بالغة والامر لله .

اجتماع الأباضية والمعتزلة للمناظرة

قال : أخبرني أحمد بن بشر عنه قال لي : اجتمعت الأباضية والمعتزلة بنهر مينة لموعد جعلوه فيما بينهم للمناظرة، وكان كثير من هوارة ممن حضر المجلس يتسمى بعبد الله بكسر الدال، وكذا اسم هذا الرجل، ولما اجتمع القوم وضمهم المكان، نادى رجل من المعتزلة يا عبد الله بكسر الدال، فاجابه رجل ثان فقال : لست أريد، قال عبد الله وقد علمت أنه إياي يريد فكرهت أن أجيبه خوفا من سؤاله، فقال عبد الله بن اللمطي أريد، فقلت : لبيك، فقال لي : هل تستطيع الانتقال من مكان لست فيه إلى مكان أنت فيه ؟ فقلت : لا، فقال لي : هل تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه الى مكان لست فيه ؟ فقلت : اذا شئت فعلت ، فقال : خرجت منها يا عبد الله .

حكــاية العلامــة أبي عبيــد الأعرج
مع الامام وأخبــاره ـ رحمهما الله ـ

(قال) وكان منهم رجل يعرف بأبي عبيد الأعرج مقرون له بالفضل، مسلمون له في الورع، اذا اختلفوا في أمر من الفقه أو من الكلام صدروا عن رأيه، وقد رأيت أنا هذا الرجل، وجلست إليه، فما رأيت في سود الرأس أخشع منه، وكان قليل الدخول على أبي اليقظان، ولم يكن يجمعه وإياه سوى المسجد الجامع، فحدثني أحمد بن بشر قال : ضرب أبو اليقظان سرادقه لحدث أراده، وبرز بنفسه الى سرادقه قال : وعلم الناس ذلك فخرج إليه الفقهاء والقراء، وضربوا أخبيتهم حول سرادقه، خلا أبا عبيدة قال فبينا الناس ذات يوم جلوس ، اذ أقبل أبو عبيدة راكبا على دابة، فقال الناس : هذا أبو عبيدة قد أقبل متفقدا للأمير مسلما عليه قال : فاعلموا بقدومه أبا اليقظان، فلما دخل عليه أدناه الى نفسه، فقال : ما جاء بأبي عبيدة إلينا متفقدا أم مسلما أم ماذا ؟ فقال : أصلح الله الأمير ما جئت متفقدا ولا مسلما غير أن لي جارة خرج ولدها البارحة في طلب معاش له ولها، فأخذه المحروق صاحب حرسك وحبسه فأتتني الغداة باكية شاكية تسألني أن أسألك في اطلاق ولدها، فأمر بأن يطلق كل من حبس تلك الليلة، ممن لا حد عليه ولا حق للناس ، اجلالا لأبي عبيدة، ثم سلم وانصرف، فعجب الناس من صدقه وتركه التصنع واظهاره على لسانه ما أسر في قلبه .

وكان أبو عبيدة هذا عالما بالفقه والكلام والوثائق واللغة، وكان مع ديانته حسن الادب والمرءوة، أتيته يوما اسمع كتاب اصلاح اللغة، الذي ألفه

عبد الله بن مسلم بن قتيبة على أبي عبيد، فلما افتتحت قراءته وقلت لعل ناظرا في كتابنا هذا ينفر من عنوانه، ويستنفر من ترجمته ويربأ بأبي عبيد عن الذلة فقال لي : ويربأ بأبي عبيد بهمز الوصل وضم الألف، وانما ذكرت هذا الحرف لأدل على براعته في اللغة، فلما قرأت من الكتاب مثل ورقة أو أزيد، أتاه قوم فقالوا : يا أبا عبيدة؛ شهادة يأجرك الله عليها فأخذ نعله وعصاه ثم قام مع القوم، فلما كان اليوم الثاني أتيته فلما قرأت ما قرأت بالأمس، أتاه قوم فقالوا : يا أبا عبيدة شهادة يأجرك الله عليها، ففعل مثل ما فعل بالامس، فقمت معه، وقلت : أصلحك الله ان لي بالرهادنة دكانا أبيع فيه وأشتري أتركه وآتي اليك فيأتيك الناس، فتشتغل عني، لا أنا في دكاني ولا أنا في مقابلة كتابي، فسكت، فلما كان بالغداة أتيته كما كنت آتيه فلما قرأت بعض جزء أتاه أناس فسألوه كما سألوه قبل هذا ، فقال : ان هذا اليوم لهذا الفتى فان آثركم على نفسه وأذن لي سرت معكم، فلما رأيت ذلك قلت : يا سيدي ولا كل هذا سر اذا شئت أو أقم، وانما ذكرت هذا لأدل على مرءوته وحسن أدبه، وكان المغرب كله مفتونا بهذا الرجل، حتى ان من كان من الأباضية ونفوسة يبعثون بزكاتهم إليه يفرقها حيث شاء .

شـــدة تعلــق نفوســة بهــذا الامــام

«قـــال»

قال : كانت نفوسة الجبل مفتونة بأبي اليقظان، وكان أكثرهم لا يحج إلا باستئذانه، وكانت المرأة تبعث بأبنها أو ابنتها يأخذ لها الأذن منه، وكان اذا ضرب سرادقه وأتته وفودهم لا ينامون الليل حول فساطيطه، شأنهم التهليل والتكبير، من أول الليل حتى إلى الفجر، فاذا صلوا الفجر معه

ضربوا بأنفسهم الى الأرض فناموا(١هـ)، (جازى الله عنا ابن الصغير خيرا على شهادته بالحق ولو علمنا قبره لشهرناه وزرناه وتصدقنا عليه) .

ولاية أفلح بن العباس على جبل نفوسة

قال : وان أبا اليقظان لما استقام له ملكه، وأتته وفود نفوسة ليقدم عليهم أمير من أنفسهم، فأنزلهم في دار الضيافة، فقال : اكتبوا اسماءكم كلكم وارفعوها إليّ، وأمر الكاتب ان يكتب السجل (الفرمان)، ويبقي بياضا لموضع المقدم، فلما رفع الكاتب الكتاب اليه، كتب بخط يده اسم المقدم وطواه وطبعه، ولم يعلم أحد من الناس من قدم، ثم جمع القوم وقال لهم هاكم السجل ولا تفتحوه الا بجبل نفوسة اذا بلغتم منازلكم، وقد تقدم أن والده أفلح صنع هكذا مع سعد ونفات، فأخذ القوم السجل وقد اغتموا اذا لم يعلموا من المقدم عليهم، ثم دخلوا على حمود بن بكر، وكان من الخاصة بأبي اليقظان، فسألوه فقال لهم : لا أعلم بما فيه، ثم دخلوا على عيسى بن فناس فأجابهم بمثل ما أجابهم به حمود، ثم لم يزالوا يدخلون عليّ واحدا بعد واحد من الأباضية، ويسألونهم فيخبروهم بأن لا علم لهم، فلم يزالوا كذلك إلى أن مروا بعبد العزيز بن الأوز .

وكان له فقه بارع ورحلة نحو المشرق، ولكنه سفيه اللسان، خفيف العقل ينزهون مجالسهم عن حضوره، ولا يستغنون عنه في معضلات مسائلهم، فما شعر أن دخلوا عليه، فقال ما بالكم وما جاء بكم ؟ فقالوا : فرحنا بشيء واغتممنا منه، قال : وما ذلك ؟ قالوا : فرحنا بتقديم الامام لنا واغتممنا اذ لم نعلم من قدم علينا قال : أو لم تعلموا من قدم عليكم ؟ قالوا : لا ، قال : قدم عليكم أفلح بن العباس قالوا : ومن أعلمك

بذلك ؟ قال : أبو اليقظان، قال : فخرجوا من عنده فأتوا حمود بن بكر وعيسى بن فناس فقالوا لهما : مكانكما من الامام مكانكما، ومكاننا منكما مكاننا، فكتمتما المقدم علينا حتى اخبرنا به من هو دونكما، فقالا : والله ما علمنا الا كعلمكم فمن اخبركم ؟ قالوا عبد العزيز بن الأوز، قالا ومن أخبر عبد العزيز ؟ قالوا : أبو اليقظان قال : فخرجا يجران ارديتهما حتى دخلا على أبي اليقظان فقالا : أنت أعلمت عبد العزيز أن المقدم في سجلك على نفوسة أفلح بن العباس ؟ فقال : لا، فقالا : فقد ذكرت نفوسة أنك أعلمته بذلك دوننا ودون غيرنا ؟ قال : أو قال ذلك المجنون ؟ قالا : نعم فنادى يا بشير خذ معك أعوانا أكفياء وجئني بعبد العزيز شر مجيء، ثم قال : ادخلا على نفوسة واجلسا حتى يأتي المجنون، قال : فما شعرنا ان جيء به قال : من أعلمك يا مجنون أني قدمت على نفوسة أفلح بن العباس ؟ فقال : أنت أعلمتني ، قال : في اليقظة أم في النوم ؟ قال : لا ولكن في اليقظة ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : رأيتك اذا سمي لك رجل منهم انقبض ما بين عينيك واذا سمي لك أفلح انبسط ما بين عينيك، فعلمت أنك اياه تريد، فقال : خليا عن المجنون، فقد كشف سرنا فلم تزل أيام أبي اليقظان لا ينقم عليه شيئا احد مما ولي من أفعاله، ما خلا أولاده فانهم ربما خرجوا عن الواجب من أفعالهم (١هـ).

حكاية القاضي مع الامام
وتركه القضاء

كان أحد أولاد الامام على ما رواه ابن الصغير، غير محمود السيرة،

(والكمال لله وحده)، وكان العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ قاضي الامام حازيما في الامر، جريئا على تنفيذ أحكامه غيورا على الحقوق، وقد صدر من أبن الامام المذكور ما يوجب عليه الحد الشرعي، ولم يصل القاضي الى اثبات الفعل عليه، لعدم البينة بعد أن استعمل كل حيلة في الوقوف على حقيقة الأمر، فقدم استعفاءه وترك القضاء، لما عجز عن الاثبات مع تحققه عنده، وقد ذكر ابن الصغير تفصيل الحكاية فخذها من كلامه باختصار قليل .

(وقـــــال)

قال : فلم يزل قاضيهم محمـد بن عبـد الله يأمر بأمر أبي اليقظان، وينتهي الى نهيه، لا تأخذه في الله لومة لائم، الى أن حدث حادث فأصبح بالغداة فرمى اليه خاتمه وقمطره، وقال له : ول على قضائك من تريد، فقال له : ما بالك وما عراك ؟ فقال : ما نقمت عليك شيئا ولكن نقمت على ابنك، فغضب أبو اليقظان مما استقبله به، ولم يرد عليه شيئا، وكان للقاضي حاسدون ومبغضون، فلما انصرف من عند الامام قال لمن حوله ، اذا كان بالغـداة أمضوا الى محمد واسألوه علام نقم عليّ، وعلى من نقم لنـزجره عما كان منه قال : فقدموا إليه فاعلموه، فقال لهم : دعوني من هذا، والله ما وليت له قضاء ابدا فانصرفوا عنه .

وقد وافق ذلك سرورهم لحسدهم إياه وبغيهم عليه، وأتوا أبا اليقظان وقالوا : اصلح الله الأمير الرجل به حمق وجفاء، ولك في المسلمين من هو انفع للمسلمين منه، فلم يزالوا به حتى صرفوه عنه، وولوا القضاء رجلا يقـال له شعيب بن مدمـان فقلت يومـا لسليمان مولى محمد بن عبد الله

القاضي : ما السبب الذي كره به محمد بن عبد الله القضاء حتى ألقى الخاتم والقمطر، وحتى شافه أبا اليقظان بما شافهه به ؟ فقال : نعم أخبرك والله يا بني بينا نحن ذات ليلة جلوس بعد العشاء الأخيرة، وكان كثيرا ما يؤثرني بحوائجه على غيري، فبينما نحن كذلك اذ دق علينا الباب دقا عنيفا، فقال لي يا سليمان قم فاني خشيت أن يكون حادثا من قبل السلطان، ففتحت الباب، فاذا بجارية منبهرة ومعها صقلبي معه سراج، قال فقلت : ما بالك أيتها المرأة ؟ فقالت : القاضي أريد، فرجعت اليه فأعلمته، فقال لي : ادخلها قال : فأدخلتها، فلما مثلت بين يديه قال لها ما بالك أيتها المرأة، وما جاء بك هذه الساعة ؟ فقالت : نعم دخلت الساعة خدام من قبل زكرياء بن الامير، وأخذوا ابنتي من بين يدي فقلت لابني : قم فاتبعهم، فقال : أخاف أن يقتلوني أو يدسوا عليّ عاملا من عمالهم فيقتلني قال : فسقط كالمغشي عليه، ثم أفاق فقال لي يا سليمان قم، ثم قام فقال لي خذ السراج ولا يشعر بك أحد، وتقلد سيفا واعطني عصاي قال : ففعلت، ثم قال اخرجي أيتها المرأة فخرجنا ثم قال لها الى اين تظنين يقصد بابنتك ؟ فقالت : الى دار (الركات)، قال فسار وسرت معه والجارية معنا، حتى أتينا قرب دار الرجل، فقال لي يا سليمان غيب السراج لئلا يشعر، قال فسترته، وقال لي : دق الباب دقا لطيفا، فاذا فتح الباب فاظهر السراج، قال : فلما رأى صاحب الدار وأهل الدار القاضي ارتاعوا ارتياعا شديدا، وقالوا ما بال القاضي أعزه الله وما جاء به ؟ فقال لي : يا سليمان اصعد الى أعلى الدار واحذر ان ينزل احد من جوانب الدار، قال : ففعلت، قال : ثم أقبل يتخلل بيوت الدار بيتا بيتا وموضعا موضعا فلا

يرى شيئا، قال : ثم صعد الى أعلى الدار والمرأه معه، فلم يجد شيئا قال : ثم عطف على صاحب الدار فقال : هل رأيت زكرياء بن الامير أو كان معك اليوم، فقال : نعم كان اليوم عندي .

فلما كان الليل أوتي بفرس فركبه فقال هل تعرف له موضعا ؟ قال : لا والله أصلح الله القاضي قال : فخرجنا ثم قال للمرأة هل تعرفين له موضعا ؟ قالت : لا والله أصلح الله القاضي قال فسقط في يده، ثم لم يصب الا ان وصلها الى دارها، ثم انصرفنا الى دارنا، فما نام تلك الليلة، حتى طلع الفجر، فغدا بخاتمه وقمطره فألقاه الى صاحبه(١هـ)، ومن تأمل في هذه الحكاية وحكاية ابن عرفة، تحقق ما للمقربين من السلاطين من قوة التأثير على افكارهم بقلب الحقائق، واظهارها لهم في صورة تجبرهم على قبول اشاراتهم، وان كانت خطأ أو فيها خراب ملكهم، وهم لا يشعرون، فان بالتأمل فيما أشار به مستشار الامام ابي بكر من قتل ابن عرفة، يتضح لنا انه لم يقصد النصيحة بلا ريب، والا فكيف يتأتى لابن عرفة الخروج عن الطاعة، وهو صهر من جهتين، ولم يكن في كلام ابن الصغير ما يدل على انه يتكلف للخروج، بل قال : ان الامام أدرك بعد فوات الامر، ان المشير بالقتل لم يقصد النصيحة، بل له غرض خصوصي .

وهكذا الحال في مسألة حمل هذا الامام على قبول استعفاء القاضي، هذا ولم نقف في كل ما تصفحناه من التواريخ، وفيما لدينا من تاريخ ابن الصغير على قول سوء، أو ظلم أو خروج عن العدل ينسب الى ائمة بني رستم، أو الى عمالهم أو أقاربهم، الا هذه الحكاية، وهي لا تعد شيئا في جانب ما سمعته وستسمعه أيها القارىء من سيرتهم المستقيمة في مدة لا

تبعد عن مائة وخمسين سنة ، ولو وجد لهم غيرها لذكروه .

ورع هـــذا الامـــام

قال : ومما يذكر عنه من ورعه وتعففه ، ان رجلا يكنى بأبي سابق ، كان خادما لأبي اليقظان في جميع اسبابه ، وكان يتولى علف فرسه قال لي أحمد بن بشير قال لي ابو سابق : خرج ابو اليقظان يوما الى منزله الذي كان اختصه (بتسلونت) يتفقد سائمته وعبيدة ، وأبطأ في انصرافه الى أن دخل الليل قال ابو سابق فخططت عن الفرس وربطته على مدرة ، وخرجت لآتي له بعلفه من عند حريف له فألفيته وقد اغلق حانوته ، فملت الى بيت المال ففتحته وأخـذت منـه علف الفرس وأغلقت عليه ، ثم رجعت الى موضعي من القصر ، واذا بأبي اليقظان قد افتقدني مرة بعد أخرى ، فلما رأيته صعد إليه خادم فأخبره بمجييء فقال له : اصعده الي وكان يستريح إليّ ويسألني عن أخبار الناس فقال : وما حبسك وما أبطأ بك فأعلمته خبر الحريف وغيبته ، وفتحي لبيت المال وأخذي العلف منه وتعليقي اياه الفرس فقال : آه يا أبا سابق ، والله لا نام محمد ولا أكل ولا شرب ، حتى تمضي وترد في بيت المال ما أخـذت منه ، قال : فمضيت والله في ليلتي تلك حتى أتيت حريفي وأخرجته من داره ، وأخذت منه علف الفرس ، ثم مضيت وانتزعت المخلاة عن الفرس فكلت ما بقي واتممت ما أخرجت من بيت المال ورددته فيه ، وعلقت ما بقي على الفرس ، ومضيت اليه فاصبته جالسا ينتظرني فقال : ماوراءك يا أبا سابق ؟ فأعلمتـه بما صنعت فقال لي : أحسنت أما الآن فاجلس . فمات ابو اليقظان فكل شيء وجد له من العين في تركته سبعة عشر دينـارا ، وكـانت لابي اليقـظان في امارته وقائع صارت تاريخا لموالد

الناس (١هـ) بلفظه، هذا حاله وقد حكمها من تاهرت بالمغرب الى أرض سرت بالمشرق، فهكذا والله العدل، وهكذا الزهد والورع، وهكذا كانت الخلفاء الراشدون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أهل الانصاف والفضل، فهو ورب البيت لجدير بأن ينشد في حقه البيتان اللذان رواهما ابن عباس رضي الله عنهما عن ابي بكر رضي الله عنه ونصهما :

اذا أردت شريف الناس كلهم فانظر الى ملك في زي مسكين
ذاك الذي حسنت في الناس سيرته وكان يصلح للدنيا وللدين

ولاية أبي منصور الياس النفوسي
ـ رحمه الله ـ على جبل نفوسة واخباره

تقدم عن ابن الصغير : أن الامام ـ رحمه الله ـ عقد الولاية لأفلح بن العباس على جبل نفوسة، وكأنه لم تمتد ايامه فانفصل عنها، ولم نعلم بسبب انفصاله وكيفيته، اذ لم يتعرض لذلك أحد، وعلى كل حال فهو أما بعزل أو استعفاء، فولى الامام رحمه الله بعده على الجبل العلامة الباسل أبا منصور النفوسي التندميرتي، من احدى قرى جبل نفوسة المشهورة بالعلم، ذكر الشماخي ـ رحمه الله ـ عند الكلام عليه، انه كان في أول حاله من أهل الجملة، ثم قال نقلا من تاريخ نفوسة الكبير هكذا، فنزل مرة الى (مدينة) تيجي فالتقى بأبي مرداس مهاصر (الزاهد المشهور) حافي الرجل، قد أدماها الشجر والحجر في سنة قحط وشدة، فأعطاه نعليه، قال أبو مرداس (داعيا له) نزع الله منك يا فتى ما لا يرضى، ورد فيك ما يرضى، قال أبو منصور : فحسست حين دعا بها غشيني، فوقع في نفسه التعلق بالمراتب العالية من العلم والعمل، بركة الشيخ، وقد تقدم، وكان بعد أن تولى

أمور المسلمين، اذا خرج لقتال العدو يركب بغلة، ولا يتقي نبلا ولا ضربة على نفسه ولا على مركوبه، ولا تقع به، ولم يهزم له جيش، ولم تنكس له راية (اهـ) قال ابو زكرياء، ولا يبالي في الله لومة لائم (اهـ).

وكان القاضي الكبير على الجبل في زمانه ذلك، العلامة العادل عمروس ابن فتح النفوسي رحمه الله الذي قال فيه ابو العباس في الطبقات، بحر العلم الزاخر، بل حاز المفاخر، وحاز قصب السبق، وان كان في السن متأخرا، كان ضابطا حافظا محتاطا محافظا، لم يكن تشغله المجاهدة في الله عن دراسة العلم، ولم يلهه التبحر في العلم عما تعين عليه من مصادرة تلك الهموم، لازم الدرس والاجتهاد، ثم رابط على الجهاد، له مصنفات في الفروع والعقائد.

وكان عزم على أن يفرز مسائل الفروع، فيبين ما استخرج من الكتاب، وما استنبط من السنة، وما كان من الاجماع فيرد كلا الى اصله، قال العلامة أبو العباس : وصرف الى ذلك وجه للعناية، حتى يكون تأليفه طرازا لما صنف في علوم الشريعة، فعاجلته المنية ـ رحمه الله ـ، وذكر في السيرة أن أبا منصور خرج الى قوم بلغه انهم غصبوا عيرا لاخرين، ولما وصلهم ادعى كلا من الفريقين أن العيرة له، فاشتبه عليه الامر، اذ كان الخلاف بينهم شديدا، ولا شاهد عليهم غير الله، فارسل الى عمروس بالمسارعة اليه، ولما أتاه قبض على المتاع، وصار يسأل كلا من الفريقين على حدة، عما اشتمل عليه من الاصناف، وعما في الأجربة من الزاد وغيره، حتى اتضح لديه أصحاب العير، وعرف المتعدين لعجزهم عن بيان ما خفي عنهم من المتاع، اذ لم يطلعوا عليه، فقال لأبي منصور : هؤلاء (يعني غير الغاصبين)

أصحاب الرفقة، وهؤلاء (يعني الغاصبين) أضيافك كنى بذلك عن حبسهم وتأديبهم، فأجرى أبو منصور الأمر على حسب ما حكم به عمروس، ويذكر عنه أنه توجه الى مكة لاداء فريضة الحج، فدخل هو ومن معه على العلامة محمد بن محبوب، عالم أباضية الشرق في عصره، وهو في مجلسه، فسلموا فرد عليهم السلام، وأدنى مجالسهم تعظيما، واكرمهم، ثم فتحوا باب المباحثة في العلوم، فسأله عمروس عن مسألة من مكنونات العلم، فتعجب أبن محبوب وقال : ان كان أبو حفص (يعني عمروسا) في شيء من هذا البلد، فهذا السؤال منه، فأخبره الحاضرون بالحقيقة، فزاد في تعظيمه ورفع مقامه، وصار عمروس يسأله في مسائل الدماء، حتى قال له هذا من مكنون العلم، فلا يعلن به امام كل أحد .

وكان عمروس أوصى الذين معه، وقال لهم : احفظوا لي السؤال، وعليّ حفظ الجواب، ولما قضوا مناسكهم وعادوا إلى الجبل، جمعهم وقال : هاتوا ما تكلفتم بحفظه فقالوا : لم يبق في علمنا الا قولك : احفظوا السؤال احفظ لكم الجواب، وعندئذ صار يسرد الاسئلة والاجوبة، حتى أتى عليها، ولم ينس منها شيئا، وهو الذي نقل مدونة أبي غانم بشر الخراساني، ولولاه لما كان لها أثر، وذلك ان ابا غانم، وفد على الامام عبد الوهاب بتيهرت .

ولما مر بجبل نفوسة ترك مدونته عند عمروس، فألهمه الله نسخها فاجتهد في ذلك، وكانت اخته عالمة جليلة فلازما مكانا واحدا، فهو يكتب وهي تملي عليه، وكلما ادركتهما الشمس تزحزحا الى الظل، حتى كمل نسخها، وكانت في اثنى عشر جزءا، ولما عاد ابو غانم من تيهرت، وجد

نقطة حبر في بعض صحائفها، فتنبه الى ما صنعه عمروس، وكأنه لم يستأذنه ولم يخبره، فقال له : قد سرقتها يا عمروس فقال عمروس : سماني سارق العلم، ولما وقع ما وقع من حرق كتب أهل المذهب بتيهرت وغيرها حتى فقدت بقيت هذه النسخة ينتفعون بها، قال الشماخي : ولولاها لبقي أهل المذهب من غير ديوان بالمغرب يعتمدون عليه، وذلك ببركة عمروس وحسن نيته(١هـ)، وقد طلب منه بعض أهل الكلام من علماء أصحابنا بفزان، ان يؤلف كتابا في الاصول فكتبَ الكتاب المعروف بالعمروسي، وكتب اليه رسالة فلما رآهما الفزاني، وهو صاحب الكتابين المعروفين بأصول الكلام، قال : النفوسي أقوى مني، هكذا ذكر في السير، وفيه انه مكث في المغرب يتعلم العلم عشرين سنة، ولما رجع الى الجبل قال له أخوه : انظر إلى الأجراف التي في فدادينك، كأنه يلومه على طول غيبته في طلب العلم، فقال له : لو رأيت أجرافا تثلم دينك لهان عليك امري .

وفيه انه اشتكى اليه عبد من مولاه فقال له : اصطلح مع مولاك، وكان ابـو مهاصر حاضرا، وهو شديد الامر والنهي في دين الله، فغضب من جوابه وقال له : اعطه حقه من مولاه، والا نزعك الله من ذلك المكان، ورد فيه غيرك، فنفذت فيه دعوة الشيخ، فنزع من القضاء بعد ذلك، في زمن قريب بدون حدث، ثم طلبوا منه الرجوع فأبى، ولما سمع بوفاة أبي مهاصر اشتد أسفه، وعظم فزعه حتى انه كان يلبس نعليه، فلبس واحدة وأخذ الاخرى في يده ذهولا وجزعا، وذهب مسرعا لحضور الجنازة، فما أدركهم الا وقد دفنوه، فرمى بنفسه الى الأرض وتخبط في التراب متحسرا، فتوهم جهال (افاطمان) بلدة أبي مهاصر، وهي الآن خراب آثارها تدل على

كبرها، أنه فعل ذلك تشفيا، وقالوا : قد استراح منه، لأنه كان كثيرا ما يعترض عليه في بعض المسائل، فيقبل منه تارة ويرد عليه أخرى، بدون أن تنشأ بينهما عداوة أو شيء في الخواطر، ومما حكاه الشماخي عنهما نقلا من سير نفوسة، أن بعضا سأل عمروسا عن الحكم فيمن أخذ خرجا من مال ابن طولون في المحاربة الآتية، وتاب ولم يعلم له صاحبا فقال له يسأل عن صاحبه فان اعياه طلبه تصدق به، لأن مال الباغين من الموحدين لا يحل بخلاف دمهم، وكان ابو مهاصر حاضرا، ولا يحب الترخيص فغضب، وقام قائلا لا أقعد في مجلس يفتى فيه بمثل هذا فقال له عمروس : ان شئت ان تقعد فاقعد، فان من شأن المسلمين ان لا ييأسوا من رحمة الله وكأن ابا مهاصر يرى وجوب البحث عن صاحب الخرج، حتى يرد اليه أو لورثته ان مات، ولا يصح التصدق به الا بعد تحقق ان لا وارث له والله أعلم .

محاربة أبي منصور ـ رحمه الله ـ مع أبي العباس ابن طولون صاحب مصر

كان أبو العباس هذا عاصيا لوالده، وثائرا عليه، فحدثته نفسه في أثناء غيبة والده عن مصر، بالذهاب الى جهات القيروان، وانتزاعها من بني الاغلب والاستقلال بها عن أبيه، وقد ذكر أغلب المؤرخين منا ومن غيرنا حكايته، وأقوالهم كلها متقاربة، الا أن بعضهم ينسب طلب الاعانة من نفوسة والاستغاثة بهم إلى أهل طرابلس، وبعضهم ينسب ذلك الى أهل حصن (لبدة)، وعلى كل الاقوال فالسبب في قهره وتشتيت جموعه وانقاذ

طرابلس، وبني الاغلب من ظلمه واستبداده، هو أبو منصور وعساكر نفوسة، وهي واقعة خلدت لنفوسة وأبي منصور في بطون التواريخ ذكرا جليلا، وكانت شاهد عدل اعترف بها كل المؤرخين ببسالة (نفوسة)، وشجاعتهم وبتعففهم وتنزههم عن المال الحرام، اعترافا لا يمحوه مرور الزمان وتوالي الاعصار، قال المؤرخ المراكشي المالكي في بيانه .

وفيها أي في سنة ٢٦٧ هـ كانت (فتنة ولد ابن طولون)، وذلك ان العباس بن أحمد بن طولون ولد صاحب مصر، قدم في هذه السنة في ثمانمائة فارس وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه، على خمسة آلاف جمل الى مدينة برقة في ربيع الآخر، يريد افريقية والتغلب عليها، واخراج بني الاغلب عنها .

وحمل مع نفسه من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهبا، فأعطى أصحابه الارزاق بها، وقيل ان مبلغ ما حمل من المال ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار، معه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب مكبلا، لانه أظهر الامتناع من الخروج معه، وكان اشار عليه بأن يؤخر التقدم الى طرابلس حتى يصانع البربر، فقال أخشى أن تقدم العساكر من الشام قبل احكام هذا الامر يعني عساكر ابيه، لأنه كان ثائرا على أبيه، ويكون ايضا في ذلك فسحة لابراهيم بن أحمد، فيتمهل في الاستعداد ولكني أمضي على فوري هذا فنأتي لبدة وطرابلس فجأة، ثم آخذ في استمالة البربر بعد ذلك بالعطاء والافضال، وأبعد من مصر، فلا يقوم لأحمد بن طولون يعني أباه أمل في مطالبتي لبعدي عنه .

وخرج يريد لبدة فاتصل خبره بابراهيم بن أحمد، فأخرج اليه أحمد بن

قهـرب في ألف وستـمائـة فارس خيلا مجردة، لا رجل فيها باعداد السير والسرى بالليل، حتى دخـل طرابلس قبـل وصول العباس بن أحمد بن طولـون الى لبـدة، ثم حشـد ابن قهـرب من امكنـه من جند طرابلس وبربرها، ثم بادر الى لبدة ودخلها، واقبل العباس بن طولون وقد صنع له ببرقة خمسة آلاف بند فحمل له على كل جمل رجلا ببنده، وزحف بثمانمائة فارس وخمسة آلاف رجل، فالتقى به أحمد بن قهرب على خمسة عشر ميلا من لبدة، وقد تأخرت الجمال بالرجال أصحاب البنود، فلم يكن بينهم الا مناوشة يسيرة حتى انهزم أحمد بن قهرب وهو يظن ان من ناوشه القتال من أصحـاب ابن طولون كانوا مقدمة للجيش، ووصل أحمد بن قهرب الى طرابلس منهـزمـا، وركب العباس بن طولون أثره حتى نزل طرابلس، ونصب عليها المجانيق وناصبهم الحرب، وأقام محاصرا لهم ثلاثة وأربعين يومـا، فتعـدى بعض سودانـه على بعض حرم البوادي، وهم اتباع بني رستم، كما مر، وهتكـوا الحجب فاستغـاث أهل طرابلس بأبي منصور، صاحب نفوسة، فقام محتسبا وناصرا جيرانه من المسلمين، وزحف في أثني عشر ألفا من رجال نفوسة الى العباس بن أحمد بن طولون فناشبوه الحرب، فقال العباس لأبي عبد الله الكاتب : ما الرأي ؟ فقال له : .... ببرقة خليفته، وألح أهل نفوسة في محاربة ابن طولون فانهزم، وخرج الى برقة بعد انتهاب أهل طرابلس لجميع عسكره، ولم يلتبس النفوسيون منه بشيء بل تورعوا عنه، وكان ابراهيم بن أحمد قد حشد الاجناد وضرب حلي نسائه دنانير ودراهم، اذ لم يبق ابو الغرانيق مالا، ثم خرج بنفسه يريد طرابلس فلقيه خبر هزيمة ابن طولون، فبحث ابن الاغلب عن الاموال واخذها ممن

وجدت عنده، فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرا بها امكنه خوفا من ان تؤخذ منه (١هـ)، وقال ابن سعيد المالكي في تاريخه الدر المكنون هكذا .

وخرج (العباس بن طولون) بأكثر تلك الاموال العظيمة، والنعم والذخائر معه الى ان انتهى الى حصن يعرف بلبدة ففتحه أهله له، وخرج اليه عامل ابن الاغلب، فاطلق العباس لاصحابه نهب الحصن، فقتلوا الرجال وفضحوا النساء وذاع الخبر، واستغاثت طائفة من أهل هذا الحصن الى الياس بن منصور النفوسي رئيس الاباضية، فدخله منهم غضب شديد وحمية غليظة، وكان العباس قد كتب الى النفوسي ان اقبل بسمعك وطاعتك، والا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وابحت رحمك، وهذا متغول ذو منعة، وله أهل كثير عددهم ولم يود الى ابن الاغلب طاعة قط .

جــواب أبي منصور إلى ابن طولون

فقال الياس ابو منصور النفوسي (تحقيرا له) : قل لهذا الغلام أما انك اقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح افعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك، وأنا على اثر رسالتي اليك(١هـ)، وقد كان ابراهيم بن الاغلب انفذ الى محمد بن قهرب عامل طرابلس بخادم، يعرف ببلاغ في جمع من أهل القيروان كثير، فكان القتال بينهم مناوشة، وانصرفوا على غير مناجزة، وصبح الياس أبو منصور النفوسي في اثنى عشر ألف مقاتل مستنصرين، والخادم من خلفه، فأطبق الجيشان عليه، فقتل أكثر من كان معه، واستبيحت أمواله وذخائره، وما كان حمله معه من مصر

من السلاح والخيل، وأفلت بحشاشة نفسه، وكان معه ايمن الاسود مقيدا، فخلصه تقييده من القتل، لانهم علموا انه حرب له، ورجع العباس على برقة (اهـ).

فلله در أبي منصور، ما أشد كلامه وما اعظم خطابه، فمن تأمل في جوابه هذا حق التأمل، اتضح له ما كان له ـ رحمه الله ـ من الشهامة وعلو الهمة، والاقدام وشدة الحرص، على محافظة بلاده، والقيام بحقوق جيرانه ورعاياه، فلمثله تسلم مقاليد الولايات البعيدة كالجبل، ولقد أصاب الامام في انتخابه وتعيينه رحم الله الجميع .

حكاية سجن هذا الامام ببغداد في حياة والده

قد تقدم منا وعد بذكر قصة سجنه، فهاكها موضحة مأخوذة من كلام ابن الصغير على القاعدة المتقدمة، ولا يخفى مما مر على سمعك ان لدولة الرستميين في ذلك العهد، بين سائر دول الاسلام ذكرا ذائعا وشنشنة شائعة، تؤذن بالرعب وتقضي نظرا لميل العموم إلى العدل بامكان اتساع دائرة ملكها بين طبقات الأمم، إلى أمد بعيد غير معلوم الحد والنهاية، وبذلك أخذ الخليفة العباسي في الشرق المتاخم بالحدود من جهة مصر لأرض سرت، وجبل نفوسة التابعين لهذه الدولة شدة الاحتياط والحذر، ناظرا إلى المغرب بعين الخشية وقلب المخافة، ولاسيما ابان الحج الشريف لكثرة الوافدين منه .

(ممزوج) وقد استأذن هذا الامام رحمه الله والده رضي الله عنه في آخر ايام دولته في الحج، فأذن له وتوجه مع الركب بصحبة رجل من نفوسة

اتخذه مؤنسا وخادما، إلى أن وصل مكة المكرمة، وقد اتصل خبر مجيئه ببني العباس في بغداد فاشتد خوفهم ورعبهم .

قال : فلما طاف وسعى، اكتنفته رسل بني العباس اذ قد سعي به عندهم، وقيل لهم : ان مقدم الشراة قد قدم من المغرب من عند أبيه يرتاد البلاد، ويرسل رسله في كل الآفاق إلى من كان على رأيهم ومذاهبهم، ليأخذوا على أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب، فحمل أبو اليقظان من مكة وحمل معه رجل من نفوسة كان يخدمه، حتى ورد بهما مدينة السلام (في بغداد)، وكان العامل اذ ذاك لأبي جعفر المتوكل أو غيره ممن كان في عصره، فأمر بحبسه قال الذي حدثني : حدثني أبي عن أبي اليقظان انه قال : وافق حبسي حبس أخي الخليفة، كان قد نقم عليه ما نقم، فأمر بنا جميعا فحبسنا في موضع واحد، قال : وكان يجري عليّ في كل يوم مائة وعشرين درهما، كما يجري على أخيه (١هـ)، وذلك عبارة عن عشرة آلاف وثمانمائة قرش في الشهر، ومائة ألف وتسعة وعشرين ألفا وستمائة قرش في السنة بعملة عصرنا تقريبا، وهكذا جرت سنة الملوك وعادتهم مهما أسروا في حرب أو قبضوا في حين غفلة أو خيانة على واحد من أسرة ملوك غيرهم، اظهارا للقوة وتوقيرا لمقام الملك وعن الملوك لا تسأل .

خبر أبي اليقظان مع أخي السلطان المسجون معه

(ممزوج) فبقى مع أخي السلطان على أحسن حال وآنس، قد رسخ في خاطر كل مودة الآخر، فلا يطيب لأحدهما طعام ولا شراب الا بحضور الثاني، وصارا شريكين في الفرح والحزن، والرضاء والسخط، وكان أخو

الخليفة كثير التعلق بأبي اليقظان، لما رآه فيه من حسن الأدب والتضلع في العلوم، والورع الكامل، وكثيرالأعجاب به من حيث اتقان الطهارة ومراقبة أوقات الصلوات، والقيام بالليل والناس نيام، فتآلفا وامتزجت مودتها، وعقدا أخوة الصفا وجعلا الصبر ديدنا، والتسليم للقضاء المبرم من عند المدبر الحكيم القادر عمادا، لا يغفلان عن النظر في قوله تعالى : ﴿**انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ وقوله : ﴿**واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور**﴾ وكأني بهما ولسان حالهما يردد قول الشاعر :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وقد رأى أخو الخليفة من أبي اليقظان في تلك المدة من أنواع البر والاكرام، والجود والثبات والتجلد ما أدهشه، وأدى به إلى الاستغراب وذكره بمحاسن الصفات، ورأى ابو اليقظان منه مثل ذلك، وفي كل ذلك رفيقه النفوسي مسرح في المدينة تحت النظر والمراقبة، يتردد عليه في السجن لقضاء مآربه وتدبير شئونه، بما يحتاجه من الخارج، وبينما هما في تلك الحال بين الشدة والرخاء والخوف والرجاء، لا ييأسان من رحمة الله ولا يسأمان من قدر الله، اذ اختل نظام داخلية الخليفة، وقامت قيامة الرعية وأصبح مقتولا .

عقد الخلافة لرفيق أبي اليقظان
وأخباره معه بعد ذلك

(ممزوج) وبعد أخذ ورد وقيل وقال، تمخضت الخلافة لرفيق أبي اليقظان أخي الخليفة، فنودي باسمه، وما شعر حتى دخلت الصقالبة والأجناد عليه في السجن، واختطفته من بين يدي أبي اليقظان إلى دار الخلافة،

وقدمت له البيعة وما تم له الأمر وثبت على الكرسي، حتى امر باخراج أبي اليقظان من السجن، ودعا أحد وزرائه وكلفه بحفظه واكرامه إلى ان يتفرغ لطلبه، فبادر الوزير ممتثلا للامر، ودخل على أبي اليقظان وأخبره بالقصة، وحمله إلى محله وقام بواجب حقوقه برا واكراما، فطاب نفسا وانشرح صدرا وأمل الخلاص من ربقة التغرب، واستقرب اللحوق بالوطن العزيز مسقط الرأس، ومقر الاهل ومنبع العدل .

كم منزل في الارض يألفه الفتى وحنينه أبـدا لاول منـزل

ثم ان الخليفة أراد إظهار مالديه من القوة، وكثرة الجنود لأبي اليقظان لكي يعلم ذلـك ويخبر والده ورجال دولته، اذا رجع اليهم فييأسوا من الطمع فيه ان خطر ببالهم .

(قـــال)

قال : الذي حدثني، حدثني أبي عن ابي اليقظان انه قال : فبينما انا عنده (أي عند الوزير) ذات يوم اذ انصرف من قصر الخليفه، فوقف في صحن داره على فرسه، وخرجنا اليه، ووقفت معه، فبينما نحن كذلك، اذ أقبـل عشرة اناس فنزلوا عن دوابهم، وبادروا نحوه يقبلون يديه ورجليه فقال لهم : أتدرون فيما ذا أرسلت اليكم ؟ فقالوا : اصلح الله الامير مالنا في ذلـك من علم، فقـال : اذا كانت الغداة فاحضروا إلى عشرة آلاف فارس فقالوا نعم اصلح الله حال الوزير، قال : فعجبت من قوله ومن قولهم، وقلت يهزأ بهم أم يهزأون به أم اراد أن يظهر لي شيئا أتحدث به في المغرب لا اصل له ؟ قال : فنظر إليّ والى انكساري، فشعر بي قال : فقال لي مالك يا مغربي لعلك استعظمت، ما سمعت ؟! فقلت : اصلح الله

الوزير، وكيف لا استعظمه، ولو كان ما سألتهم اياه دارهم في اكمامهم لما استطاعوا احضارها اليك بالغداة، وكيف بعشرة آلاف فارس فقال : يا مغربي ترى هؤلاء العشرة ؟ قلت : نعم، قال : تحت يد كل واحد منهم عشرة، كم معك ؟ قلت : مائة، قال : وتحت يد كل واحد من المائة عشرة كم هذا معك ؟ قلت : ألف قال : وتحت كل واحد من الألف عشرة كم هذا ؟ قلت : عشرة آلاف، قال : انما تخرج هذه العشرة، فيدعو كل واحد منهم من كان تحت يده فيجتمع ذلك كله في اقل من لحظة العين، ولولا سعة هذه الارزاق وآخذوها يا مغربي لما صببنا هذه الاموال الا في الدجلة والفرات قال : فأعجبني قوله وقلت يمكن ما قاله (١هـ).

طلب الخليفة من ابـــي اليقظان الاقـــامة ببغداد قال

قال : (أبو اليقظان) فبينما انا كذلك عنده اذ أمر الخليفة باحضاري قال : فلما مثلت بين يديه أمرني بالجلوس فجلست قال : فذكر ماكنا عليه (من الحال في السجن تأنيسا له) قال : فكان يرى مني اجتهادا في الصلاة وغيرها فقال : اني أحب أن أوليك من المشرق أي بلد أردته فقلت له : الخيار لي في المشرق دون المغرب، أم في المشرق والمغرب فقال لي : بل الخيار اليك في المشرق والمغرب، الا أني أختار لك المشرق لكثرة خيره، وأرغب لك عن المغرب لكثرة شره فقلت له : اذ رددت الخيار إليّ فأنا أختار ما شئت قال ذلك اليك فقلت : اجمع بيني وبين والدي، فقال لي : ما تريد بالمغرب من خير، ولكن اذا أردت ذلك فالأمر اليك، ثم عطف

عليّ فقال لي جرايتك في الحبس، انظر إلى من توصي بها لئلا يعفو اسمك من عندنا، فقلت إلى فلان ابن فلان الخياط، رجل بقرب الحبس قال : وكنت أقبلت على النفوسي المرفوع معي، وقلت له اقم تقبض كل يوم عشرين ومائة درهم فذلك خير لك من المغرب، فأبى عليّ فقلت له : فإذا أبيت فإلى من ترى أن تصرفها ؟ فقال لي : إلى فلان بن فلان الخياط، فاني كنت أجلس عنده واستريح اليه وأشاوره في أمرك قال : فلما ذكرت اسم الخياط للخليفة قال لي : بم استحق ذلك منك ؟ قال فأعلمته بما قال النفوسي، قال فأمر به فأجريت عليه، (وأصبح بعد ان كان فقيرا من الاغنياء المعروفين عند السلطان وخير الصدقة ما اورثت غني)، قال : فكان النفوسي بعد ذلك بتيهرت اذا كربه امر، ونزل به ضيق، يقول لأبي اليقظان : لم اقبل منك، لو قبلت منك لكان العشرون والمائة درهم في كل يوم أعود عليّ مما أنا فيه، قال : ثم أمر الخليفة الوزير بالنظر في أمري وأمر جهازي وأمر لي بسرادق فضرب لي، ثم أمر لي بنفقة وكسوة، وكتب لي كتبا الى عماله في الامصار بالحفظ والرعاية والبر والاكرام، فأقمت حتى قضيت حوائجي، ثم خرجت (اهـ) بلفظه .

غريبــــــة

ومما يحكى عنه أنه بعد أن تحرك من بغداد مقبلا نحو المغرب حسب منجمو الخليفة العباسي حسابهم، فرأوا أنه لابد من أن يتولى الملك بالمغرب فضاق صدر الخليفة ورجاله لذلك، وقالوا قد أطلعناه على أمرنا وكشفنا له أحوال بلادنا وتركناه، وذلك هو عين ما كنا نخافه، ولا نأمن أن يهاجمنا يوما ما اذا تقلد الملك، وهموا بالارسال في أثره ليردوه، وكان هو ـ رحمه الله ـ ممن لا يسابق في علمي التنجيم والرمل، فصادف الحال أن حسب لهم

وقت حسابهم له، فرأى أنهم يبحثون عن موقعه ليقتفوا أثره، فأمر باحضار قصعة كبيرة مملوءة ماء، ودخل في وسطها، وبينما هم في تحرير حسابهم اذ ظهر لهم أنه في الماء، فقالوا قد دخل البحر ونجا، فتركوا تتبعه ومر هو في طريقه إلى أن وصل، والله أعلم .

ولاتــه وعــدد اولاده ومدتــه

لم نعلم له ـ رضي الله ـ عنه من الولاة والعمال، غير أفلح بن العباس والي جبل نفوسة، وأبي منصور، ولم نر لوزرائه ذكرا، وقد أهمل التاريخ المتأخر ذلك كله لقلة المواد، فله عذر وفيما قدمناه عن علومه من الكلام ما يغني عن الاعادة هنا .

(ممزوج) وله ـ رضي الله عنه ـ من الاولاد الذكور عدد منه : يقظان الذي كني هو باسمه، وقد خرج إلى الحج في حياته ويوسف، وهو المكنى بأبي حاتم وأبو خالد وعبد الوهاب، ووهب وزكرياء وغيرهم، ممن له ذكر، وكان من بينهم أبو حاتم شابا، حسن المجاملة طلق المحيا باسط الكف جميل الهيئة كثير المرءوة واسع الاحسان والبر بأترابه، يطعم ويكسو ويجود، وكانت أمه غزال مالكة لأمر أبي اليقظان وحشمه، فوقعت محبته في النفوس ورشحته العامة للامامة بعد أبيه، حتى أنه في بعض الاعياد تخلف والده عن الحضور إلى المصلى مع الناس، فخطر ببالهم ما خطر، وكان أبو حاتم موجودا فحملوه على الاعناق، ونادوا بطاعته ولما اتصل الخبر بالامام والده قال لأمه : احذري يا غزال فقد أصبح ابنك اليوم سلطانا، أو ما في معناه من الكلام، ولازال بعد ذلك يقلده مهم الأمور، ويقدمه في حل مشكلات الامارة، تدريبا له واعلاء لقدره، وتعظيما لشأنه في انظار الرعية، واظهارا

لما لديه من الاقتدار على الاعمال الشاقة إلى أن ارسله في جيش من وجوه زناتة لمحافظة قوافل اقبلت من المشرق، فيها من الاموال ذهبا وبضائع مالا يحصى، خوفا من اعتداء سفهاء زناتة عليها، اذ كانوا مخيمين بطريقها، فأدركت الامام أبا اليقظان منيته وانقضى اجله عن عمر يناهز مائة سنة قضى منه اربعين سنة في خدمة الملة واعلاء كلمة الدين، واقامة شعائر الاسلام ومحافظة المسلمين، وما قاله المراكشي من أن مدته ٢٧ سنة عار عن الصحة جدا، ولا معنى له، فجهز ودفن والناس عنه راضون وولداه غائبان، يقظان بالحج وأبو حاتم بعسكره في محافظة قوافل تجار الشرق، فلحق الناس من الكدر والأسف والنحيب مالا يوصف، فرحمه الله رحمة واسعة، وذلك سنة احدى وثمانين بعد المائتين ٢٨١هـ باتفاق المؤرخين حتى المراكشي الذي خالف في عدد مدته .

الفصل الخامس

خلافة الامام أبي حاتم يوسف بن محمد
ـ رحمه الله ـ

(ممزوج) وما كاد يتم دفن الامام ـ رحمه الله ـ حتى سارعت العامة إلى المناداة باسم ابنه أبي حاتم يوسف اماما في الأزقة والأسواق، بدون اجتماع وتشاور مع رؤساء القبائل، وأسرعهم إلى ذلك رجلان أحدهما محمد بن رباح وثانيهما محمد بن حماد، ولعله أخا بكر بن حماد الشاعر المشهور، وفي الحال أرسلت اليه الرسل فوافته وهو مع القوافل وبلغته وفاة والده، وعقد الامامة له فكر راجعا معهم إلى المدينة .

(قـــال)

فنـادوا لا طاعة لأحد الا لأبي حاتم، على مسيرة يومين من المدينة أو أكثر، فلما وصل إلى باب المدينة ازدحم الناس من بين يديه ومن خلفه وعن يمينـه وعن يسـاره، فبـايعـوه فما وصل المسجد الجامع الا وقت الظهر، فأصعدوه المنبر وبايعوه، وكبروا حوله وحملوه على الأيدي والاعناق، حتى أوصلوه إلى داره، ثم أرسلوا إلى القبائل فبايعوه(١هـ)، فتمت له البيعة وخلصت له الامامة بدون انكار ولا معارضة من أحد، الا ما كان خفيا في نفوس بعض من أهل المدينة، ولم يبوحوا به، كعمه يعقوب بن أفلح، فانه منـذ عقدت له البيعة بارح المدينة ورحل إلى زواغة فسكنها، ولم يدخل للرستميين جمعا ولا أعان ابن أخيه بشيء من قول أو فعل، وان لم يصدر منه مع ذلك ما يكدر الراحة قط، فشمر أبو حاتم لمباشرة أموره عن ساق الحزم وسار بسيرة أسلافه الصالحين، واستقام له الامر وأجمع الناس على ولايتـه، وسلمت بواطن العـامـة من جهته مدة سنة على ما قاله المؤرخ المراكشي، وأقر من أقر من عمال والده على أعماله، وبدل من بدل، وممن أقرهم على عملهم أبو منصور النفوسي في الجبل، ثم تكلف بعض رجال دولتـه واخـوتـه وأعـمامـه أن يجعلوا له ما يقتضيه مقـام الملك من الأبهة والحجاب، وأبى الناس الا الدنو منه والدخول عليه في كل وقت مست الحاجة اليه مثل ما كان عليه قبل الامارة، فوقع بذلك في الخواطر شيء من التنافر .

سعي بعض المفسدين في المروق من طاعة الامام ونفيه اياه وما نشأ عنه

(ممزوج) وكان بالمدينة من مسموعي الكلمة من المشائخ، من غير الاباضية، أبو مسعود وأبو دنون الكوفيان المتفقهان على مذهب الكوفيين وعلوان بن رعلان وغيرهم ممن وقع عليهم من الامام بعض اعراض وغض نظر، لما تشبثوا به قبل ذلك من اتخاذ الوسائل لاثارة الفتنة، وتحريك الفساد وتناجيهم بالطعن والقدح في السيرة، فانضم اليهم محمد رباح ومحمد بن حماد، اذ لم يجدا مع الامام نفوذ اغراضهما وقضاء مقاصدهما، مع انهما أول من نادى بالبيعة له، فاتفقا على الغدر به، ووعدا المشائخ المذكورين بذلك، وهكذا كان وقع لجده الامام عبد الوهاب مع ابن فندين وشيعته الحكاية السابقة، فبلغ الخبر الامام أبا حاتم، فلم يشك في صحته لما انه في حياة والده خرج ذات مرة من عنده على غضب، فلاقاه رباح هذا وابن حماد، وقد علما بما وقع بينه وبين والده فقالا له : دع لنا هذه الخوخة (وهي باب صغير كان معدا له خاصة يدخل معه إلى والده) فنقتله وتتولى الامر وتستريح، فزجرهما وأضمر لهما في نفسه ما أضمر، اذا أمكنته الفرصة فيهما لما قصداه من الخيانة، وهاله أمرهما ولم يجد سبيلا لذلك إلى أن بلغه ما ذكر، فأمر بابعادهما ونفيهما.

قال : وكان لمحمد بن حماد على بعد أميال من المدينة منزل، يقال له الثلة، قد جمع الاشجار والانهار والمزارع والنخيل والقصور (١هـ).

فطلبا تعيينه لمكثهما مدة النفي، فأصدر الامام أمره بذلك، وتوجها اليه

(وليس ذلك من الامام بمناسب اذ النفي لمثل هذين انما يكون بالاخراج عن الحوزة رأسا، حتى لا يتمكن من مواصلة ذويه، ولا يتمكنون من امداده وحمايته، وبذلك تحصل التربية والتأديب، كما هو شأن سلطاننا المظفر عبد الحميد ابن عبد المجيد العثماني، من نفيه أبناء الترك وغيرهم ممن هم من ناحية القسطنطينية دار خلافته، إلى فزان وغدامس وغات وجبل نفوسة وطننا من ملحقات طرابلس الغرب بقطعة افريقيا ونفيه أولاد العرب منها ومن غيرها، إلى أرض الروملي والأناضول وغيرهما من بلاد أوروبا وآسيا، حتى ان المنفي غالبا لا يعلم بحالة مدة اقامته، إلى أن يرجع أو يموت)، والقائل ان يقول ان أمثال هذه الأمور تؤخذ بالتجربة والتكرار، فكلما حدث داء اخترع له دواء، فان أفاد فذاك والا اخترع له غيره، وعلى ذلك جاء قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أحدثوا أي الناس أمورا لم تكن من قبل فأحدثنا لهم) أي أتينا لهم بما يليق بذلك من التأديب الذي لم يكن قبل أيضا .

ولعل للامام في ذلك نظرا لم ندركه، أو لم يصب المرمى، اذ كانت العاقبة سيئة فبقيا هناك في أنعم عيش وأرغده، الا أن كلمة النفي حملتهما حملا ثقيلا لما هما عليه في نظر العموم من الوجاهة والقبول حسب زعمهما، وظلا يراسلان أصحابهما بالمدينة لاستعطاف الامام والعفو عنهما، ولما أعياهما الأمر ولم يتحصلا على نتيجة عادا إلى توجيه العتاب إلى أصحابهما، أولئك المشائخ، والى لومهم وتوبيخهم على السكوت عنهما، وصرف النظر عن الاعتناء بما يوجب ردهما إلى المدينة مع أنهما ممن يأبى العدل والانصاف ابعادهما، وحط منزلتهما بصفة النفي، وصارا يتابعان الرسائل، ويكرران

الطلب بعبارات التعجيز والتكدير لأصحابها، إلى أن استفزهم الكبر وغرهم اللعين فاجتمعوا وقالوا : ان كيف يسعنا السكوت عن مثل هذين الرجلين مع ما لحقها من الاهانة والذل على غير جناية ، وما هذا الا منكر يجب علينا انكاره وتغييره ، وقد علمتم انه لا سبب لنفيها الا توجيه التهمة اليهما بمجاملتنا وموافقتنا ، ثم عقدوا الرأي على ادخالهما رضي الامام أم سخط ، وأرسلوا اليهما من انتخبوه من رجالهم وتهيئوا لملاقاتهم .

(قـــال)

فلما شعر أبو حاتم الا والتكبير عليهما بالمدينة ففزع لذلك وارتاع ، وعلم انها ليست بدار قرار ، فاجتمع اليه قومه وأهل بيته فقالوا له : قد أعلمناك هذا أولا ، ولكن أقم بين ظهراني القوم ونحن نخرج إلى حصننا الذي به مواشينا وعبيدنا ، وهو حصن يعرف (بتاليت) في طرف من لواتة فاذا صرنا اليه واجتمعنا به ، ورأينا به لواتة وغيرها من القبائل ناصرنا أخرجناك الينا ففعلوا ذلك ، فلما رأت بقية العجم الساكنين بمدينة (تيهرت) ما فعلت الرستمية خرجت إلى حصنها وفعلت نفوسة مثل ذلك .

خـــروج الامـــام من المدينـــة

(قـــال)

قال : ثم أقام أبو حاتم بعد ذلك أياما ، ثم خرج وخرج معه من وجوه البلد السمحيين وغيرهم ، نحو مائتي رجل ، وكان الخارجون معه حماة البلد منهم رجل يعرف ببكر بن يبيب ، ومن السمحيين رجل يعرف ببكر بن عبد الواحد ، وكان هذان الرجلان فارسي المغرب ، وبقيت العامة ومشائخ البلد

في جمع عظيم، وعلموا ان الحرب قد دهمتهم، فشرعوا في بنيان حصنهم، ثم ان أبا حاتم لما خرج اجتمعت لواتة كلها اليه، فأعطى الأموال وحمل على الخيل واجتمعت أهل قبائل الصحراء إليه خلا الحصن المعروف (بتالغمت)، وأهله الصفرية فانهم مالوا إلى المدينة (١هـ).

وقد وقفت على موضع هذا الحصن اثناء رجوعي من بني ميزاب عام ألف وثلاثمائة وستة عشر ١٣١٦هـ، وهو في ربوة عالية يحيط بها كالهالة واد كثير الأشجار، ذو منظر لطيف، اذا امتلأ بماء الامطار وصار كالبحر كما رأيته وبقيت فيه تلك الاشجار مصطفة كالسفن السابحة في البحر، وقد بنى بأعلاها الفرنساويون الآن (فندقا)، على هيئة حصن متسع يوجد فيه كل ما يستحقه المسافرون، وفيه بيوت معدة للنوم بأسرة وفرش لا تتجاوز اجرتها في الليلة ثلاثة دراهم، وقد بني من انقاض الحصن القديم، على حسب التخمين، اذ لم يبقى منه الا آثار وأطلال قليلة، وهو الآن محط رجال القوافل والمسافرين والعربات (الكروصة)، لجهات متعددة من أعمال الجزائر، وقد جمعني القدر فيه بأفاضل من تجار بني ميزاب أتوا من بلاد ومدن متفرقة، وبتنا جميعا في ليلة أنس وسرور، ثم ذهب كل إلى حيث كانت وجهته، وبهذا الاسم يسمى الآن أيضا، وان سمي هذا باسم ذاك وهو في محل آخر فالله أعلم .

محاصرة الامام للمدينة

وبعد أن اجتمع للامام جموع ملأت السهل والجبال، عول على محاصرة المدينة، وقد ذكر ابن الصغير الحادثة مفصلة فخذها على القاعدة المتقدمة .

قـــــــال

قال : ثم جمع أبو حاتم جموعه، وزحف إلى المدينة من ثلاثة مواضع، من القبلة والمشرق والمغرب، فتولى بنفسه القبلة مع لواتة والرستمية ومن شائعها، وتـولى المشرق العجم، وصنهاجة ومن شائعها، وتولى المغرب طوائف من الناس مع نفوسة، وكان قتال شديد من الأوجه الثلاثة، وكانت الدائرات في الأوجه الثلاثة على أهل المدينة (١هـ).

(ممزوج) فقتل من المعروفين بالمدينة من ناحية المشرق رجل يعرف بابن مادة، قتلته العجم، ومن المعروفين من ناحية القبيلة رجل من أهل دمر، ولما رأى مادة ابنه مقتولا داخله الغضب، فحمل على رجل عجمي يسمى (برجا) فقتله ولما علم به الناس، بادروا إليه ليقتلوه، فلم يمكنهم، وكادت الفتنـة تعود فيما بينهم داخل المدينة، فاعترفوا لأنفسهم بالخطأ، في اثارة الفتنة، وأيقنوا بأن أمر الرعية لا يضبط بدون سلطان، وقالوا : قد كان في أول الأمر قيامنا لأجل نفي رجلين فقط حسبناه منكرا، وقصدنا تغييره ثم وقعنا فيما هو أعظم من سفك الدماء ظلما وعدوانا، فقوموا بنا إلى تسليم مقـاليد الأمـور لصـاحبها وادخاله المدينة، حتى ينتقم من هذا المتعدي وشيعته، ويحكم كيف شاء، وما لنا في الحرب والفساد من خير، ثم أرسلوا إلى الامـام بما قرروه، فأجـابهم بأنه لا يقبل منهم شيئا الا ان سلموا له الرؤساء والمشائخ، الذين كانوا سببا في الفتنة ليحكم فيهم بما يراه مما يوافق الشرع الشريف، فصعب عليهم ذلـك ونكصوا على أعقابهم وأبوا فعاد الامام إلى حربهم .

مبايعة أهل المدينة للعلامة يعقوب ابن أفلح عم الامام

(ممزوج) ولما ضاق بهم الحال من الحصار، أجمعوا على أن لا طاقة لهم بالاستقلال دون رأس من الرستميين، وقال قائلهم : قد علمتم ما كان ليعقوب بن أفلح من مصارمة ابن أخيه مندولي الأمر، وهو بزواغة غير بعيد فارسلوا اليه واعرضوا عليه البيعة، حتى نرى رأيه، فكتبوا كتابهم ووجهوه اليه مع أمناء منهم، فما توانى عن قبول طلبهم، واجابة دعوتهم، وقد كان لولا هذه الفعلة التي تاب منها وندم بعد ذلك، كما قال ابن الصغير في قوله : كان بعيد الهمة نزيه النفس، ما جس بيده دينارا ولا درهما، وكان اذا أتى وكيله بغلاته أمره ان يجعلها تحت بردعة له يجلس عليها، واذا أراد اخراج شيء منها دفعه بقضيب في يده، وكان اذا سافر ونزل بقوم لم يأكل لهم طعاما، وكانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه في اناء جديد، فاذا امتلأ شربه أجمع، ثم يقوم عليه ثلاثا لا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا، ولا يخرج لبراز، وكان وضوءه وضوء طاهر في الموضع الذي يكون فيه، شهد منه ذلك جماعة ممن صحبه، واستفاض ذلك عنه حتى صار كالعيان، وكانت له أخلاق في لباسه وركوبه تخرج عن طبع البشر، حجزه سراويله في جنبه، وركوبه فرسه من بين يديه، وكان له فرس أشقر لم يكن بالمغرب قبله ولا بعده، به يضرب المثل إلى اليوم (اهـ).

(ممزوج) ولما وصلهم ودخل المدينة عقدوا له الولاية، ورجعت اليه جماعة من لواته، وعاد أهل المدينة في نشاط إلى الحرب مؤملين الفوز (وما علموا ان بيعة أبي حاتم (الامام حقا) لم تبرح من رقابهم .

حــرب الامــام مع عــمه يعقــوب

(ممزوج) وعنـدئـذ تجددت الحرب بين الامام أبي حاتم، وبين عمه يعقـوب أياما، ثم ضعفت وسكنت بعض السكون إلى ان تحرك الامام زاحفا بمن معه إلى المدينة من جهة، والرجل الموسوم (بوانودي) ومن معه أيضا من جهة أخرى، فأمر يعقوب بأبواب المدينة فأغلقت، وترك واحدا وقف عليه بنفسه مع من كان معه، ودارت الحرب بين الفريقين إلى أن حضر وقت الظهر، ونودي في الصفوف بالآذان، ولعمري ان هذا من أهل المدينة لمن العبث فما يغنيهم عند الله شدة هذا الاحتياط، بمراقبة وقت الفـريضـة في لجة العصيان والنفـاق، ثم اشتغلوا بالصـلاة فتبدلت نية (بوانودي) ومن معه اذ رأوا ذلك، وندموا على قدومهم للحرب، وتنحوا إلى جهة، ولما قضيت الصلاة دار الامام أبو حاتم بفرقة ممن في عسكره من العجم إلى الجهة الشرقية، وترك العسكر بحاله راجيا أن يصيب غفلة من أحد الأبواب فيدخل المدينة، ولما قصد الباب وكان عامرا بالرجال فتحوه، وحملوا عليهم حملة رجل واحد، فتولى منهزما وانصرف (بوانودي) بمن معه تاركـا للقتـال، فضعفت الحـرب بعـد ذلـك، وطمع النـاس في العافية واشتاقت أرواحهم إلى الصلح وأذعنوا للراحة .

عقـد صـلح بيــن الامام وعــمه

(ممزوج) وبينما الناس في ذلك يترقبون من أهل الخير والاصلاح السعي في كف هذه الفتن، وايقاف سيرها، اذ قدم ذلك الرجل الشهير في قومه صاحب الرياسة والتقدم، والقدر الجليل أبو يعقوب المزاتي بجميع جموع

مزاتة، أولئك الاغنياء أولو الثروة الواسعة، والعدد الوافر، أهل الحرث في بطون الأودية والنسـل من حمر النعم والبقـر والغنم، في بسائط الارض وجبالها الذين امتلأ بأموالهم، واسع بيت مال المسلمين بما يؤدونه مما وجب عليهم من الحقوق الشرعية، حتى قال فيهم الامام عبد الوهاب ـ رضي الله عنه ـ ما قام هذا الدين الا بسيوف نفوسة، وأموال مزاتة، ونزل حول المدينة فتقدم اليه رؤساء القبائل، وأهل الفضل، ممن يسعى في اصلاح ذات البين، وشكوا له ما حل بالناس بسبب تلك الفتن، من قطع السبل وفراغ الأيدى، وهـلاك الحـرث والنسـل، واهـراق الـدمـاء وارتكـاب الفواحش، والمجاهرة بمعاصي الله وكلفوه بالدخول بين الفريقين، بجعل هدنة إلى مدة معلومة يتعامل فيها الناس، وتمتد الخطا مع العافية، والأمن وتتعارف الناس، وربما بذلك تلين القلوب وتنحسم العداوة، ويعقد صلح ينقـطع معـه الفساد، فأجاب وجد في السعي في ذلك، ورغب وصرف عنايته إلى أن رضي الطرفان، فطلب من كل أن يقدم اليه من يختاره ويأمنه لعقـد الهدنة، فقدم الامام أبو حاتم مكنودا وابن أبي عياض اللواتيين، وقدم يعقوب ذلك العلامة الجليل الشيخ عبد الله بن اللمطي المذكور آنفا وبرزوا للاجتماع، وسلموا الأمر لمتولي العقد، فاتفقوا على رفع يد الامام أبي حاتم ويد يعقـوب عن النظر في الأمور مدة أربعة أشهر، يسود فيها الأمن وتنطلق السبل، وتتخالط الناس إلى أن يأذن الله في ملكه بما يشاء، فقبـل الفريقان ذلك، وانقطعت الحركة، ووجد الناس حلاوة الطمأنينة ورجوا العافية، ولم يبرح الامام في اثناء ذلك عن استمالة وجوه المدينة وشبانها بجميع أنواع السياسة من حسن الملاطفة والاكرام، ومواصلة المنقطعين

بصلات البر سرا وعلانية، إلى أن أطبقوا على ولايته والرضاء به جميعا الا من نذر ممن استحب العمى على الهدى، ورغب في الفتنة لنهب أموال الناس بالباطل، وأبو يعقوب المزاتي في ذلك كله لم يلو العنان عن الجد في حصول الصلح، واتمام عقدة الاتحاد، وشد عرى الاجتماع، وكان في المدينة رجلان يسمى أحدهما بأحمد، والآخر بمحمد، ويعرفان بابني دبوس، لهما من عظيم الجاه ونفوذ القول والشهرة بالشجاعة، وشدة الأقدام، وكثرة الاتباع لدى الخاصة والعامة حظ وافر، لم يكن لغيرهما من الوجوه والأعيان، ولهما دار تعرف بالكنيسة .

اجماع أهل المدينة مع عموم المسلمين على خلافة الامام وهروب يعقوب إلى طرابلس

(ممزوج) وبينما الناس ذات يوم في عيد من أعيادهم، اذ ابتدأ الرجلان السير من طرف المدينة، وامامهما نفر يقولون من أراد العافية فليصعد إلى الكنيسة، فبادر الناس اليها، ولم يتخلف أحد غير يعقوب وشيعته، وبعض مشائخ منهم أبو مسعود شيخ المدينة (رئيس البلدية)، الا أنه لما رأى الناس كافة ذاهبين أفواجا أفواجا إلى مجتمعهم، صعد معهم ليعلم حقيقة أمرهم ومنتهى غرضهم، فوجدهم قد فوضوا الامر في المسألة لابني دبوس، فانحدر ممتلئا غيظا، لما فهمه من مآل الاجتماع، وانفض المجلس، ولما جن عليهم الليل ركب محمد وأحمد مع من له علم من أهل الرأي بلباب القضية، قاصدين الامام أبا حاتم، ولما بلغ الخبر إلى يعقوب وحزبه، تسارعوا إلى خيلهم، وخرجوا في ستر من الليل راجعين من حيث أتوا بعد

أن كدروا سماء الأمن وحيروا مركز الامامة نحو أربع سنين كاملة على ما ذكره المراكشي، وقصدوا زواغة ملجأ الفارين لقربها من البحر، وكونها في الحدود يسهل الوصول منها إلى حيث شاءوا، متى وقع عليهم الطلب والبحث، وان كانت قريبة من جبل نفوسة أهل الشدة والبأس، وحصن الخلافة وسيف الامامة .

دخـــول الامام أبي حـــاتم المدينـــة بالاجمـــاع من المســـلمين (ممـــزوج)

وبينما الامام في قصره بأبي مينة، اذ دخل عليه ابنا دوبس ومن معهما وقالو له : اركب معنا الساعة ولا تتأخر ولا تنتظر رفيقا، واخبروه بالقصة ولثقته بالرجلين لأمانتهما خرج معهم، ولم يصحب من عسكره ولا من رجاله أحد، ولم ينفلق الصبح الا وهم بباب المدينة، واذا بها خاوية من يعقوب وزمرته ومن كان على شاكلتهم، فهرع من بلغه الخبر من الناس إلى ملاقاته من الجهـات وتباشروا وعمهم الطرب جميعا، فدخل المدينة ولا نزاع ولا حرب، بعـد أن هجرها وحاصرها أربع سنين، فقصد دار الامارة وأتته الوفود، وتقدمت الخطباء والشعراء وأرباب الجرائم إلى بابه لطلب العفو والتهنئة، ومن بينهم أبو بكر بن حماد الشاعر المشهور المتقدم الذكر القائل لما مثل بين يديه :

ماذا يدبر ربنا في أمره سبحانه في أرضه وسمائه
رد الملوك إلي محل قرارهم مستبشرين بفضله وعطائه
فتبارك الله اللطيف بصنعه ما أغفل الثقلين عن نعمائه

رفع السماء بلا عماد بين والبحر أمسكه على ارجائه
لولاه فاض على العباد بموجه وعلى الجبال الراسيات بمائه
ان المتوج يوسف بن محمد تتزين الدنيا بطول بقائه
أخذ البلاد بسيفه فاستسلمت وبعدله وبفضله وسخائه

وهو القائل أيضا على ما ذكره العلامة البرادي ـ رحمه الله ـ في كتابه (الجواهر) :

ومونسة لي بالعراق تركتها وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها عزيز علينا ان نراك تسير
فقلت جفاني يوسف بن محمد فطال عليّ الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة ولكن أتت بعد الامور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم فداريتهم والدائرات تدور
وأكرم عفو يوثر الناس أمره اذا ما عفا الانسان وهو قدير

فصفح وسامح ووعد وأوعد، وأمر المنادي فنادى بالامان وأعرض عن طلب من كان مع عمه وعفا عن الكل، فصفا له الجو وخضعت الرقاب .

قال : ولما دخل أبو حاتم مدينة تاهرت، جمع مشائخ البلد أباضيتها وغير أباضيتها، فاستشارهم فيمن يوليه قضاء المسلمين، فقالوا له : ان أباك لما دخل كدخولك ولى محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ، وهو الذي قدمنا ذكره قبل هذا، ولمحمد ولد يسمى بعبد الله ماهو دون أبيه، وأنت عالم بورعه ودينه كما نحن عالمون به فقال : اشرتم وأحسنتم، وولاه القضاء، فقال : من ترون أن نولي بيت المال ؟ فقالوا عبد الرحمن بن صواب النفوسي فقال : أصبتم وأحسنتم، من ترون أن نولي الشرطة ؟ فقال قوم : زكار قد قتل ابنه بين يديك، وله نصيحة، وقال قوم :

ابراهيم بن مسكين، فان له صلابة في الحق، فولاهما جميعا، وكان البلد قد فسد أهله في تلك الحروب، واتخذوا المسكن أسواقا والغلمان اخدانا، فلما ولي هذان الرجلان الشرطة قطعا ذلك في أسرع من طرفة العين، وحملا الناس على ضرب السوط والسجن والقيد، وكسرت الخوابي بكل دار عظم قدرها أو صغر، وشردت الغلمان وأخدانهم في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وحملا الناس على الواضحة، وخاف المنافق وأمن البريء، وشرد السراق وقطاع الطرق، وأمنت السبل ومشى الناس بعضهم إلى بعض، ولم ينقموا على أبي حاتم شيئا(١هـ)، هذا كله بالنظر إلى تيهرت وما حولها من الولايات، واما جهة طرابلس وجبال نفوسة وما يليها، فانها لم تكتسب راحة منذولي هذا الامام، وكثرت فيها الفتن والحروب حتى انها لم تتمكن من اعانة الامام بشيء في حروبه هذه، وسنأتي ببيان ذلك ان شاء الله .

خبر أبي منصور ـ رحمه الله ـ مع الطيب بن خلف

تقدم ان الامام أبا حاتم ـ رضي الله عنه ـ جدد الولاية لأبي منصور الياس على جبل نفوسة لما آل اليه الأمر، وفي صدر مدة هذا الامام، على حسب التقريب، ان لم نقل في آخر أيام والده، تحرك ابن خلف الذي تقدم ذكره ساعيا في احياء سيرة أبيه، وتجديد الخلاف والخروج من الطاعة، فصدر أمر الامام إلى أبي منصور بالمبادرة اليه، والقبض عليه قبل استفحال أمره، وكان قد هرب إلى زواغة وهم في جموع كثيرة، وكلهم على رأي أبيه، فقصدهم أبو منصور بعساكره، ونزل قريبا منهم وكلمهم في شأنه، فتحزبوا

وأبوا أن يسلموه، واتفقوا على حمايته والمدافعة عنه، وكان في بني يهراسن شيخ كبير صاحب رأي وادراك، رأى انهم لا طاقة لهم على مناصبة أبي منصور الحرب، فجمع القوم وقال لهم يا معشر زواغة، اقترح عليكم ثلاثة أمور، ان اخترتم منها واحدا أصبتم، والا فمصيركم إلى الذل، اما ان تتركوا حوزة طرابلس، وتدخلوا إلى جزيرة جربة لتتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم، واما ان ترسلوا إلى تيهرت رسلا بكتاب من عندكم، تطلبون فيه من الامام، أن يخصصكم بعامل مستقل عن جبل نفوسة، حتى لا تدخلوا تحت أحكامهم وسيطرتهم، واما ان تسلموا إلى صاحبكم (ابن خلف) لأسلمه لنفوسة بالأمان، وأنا أضمن لكم سلامته، وأنهم لا يتجاوزون فيه الحق، فلم يعجبهم قوله، وأجابوه بكلام غليظ أغضبه، فقام وتركهم .

ولما وصلهم أبو منصور بجنوده دعاهم إلى الانقياد والطاعة، فأبوا فناجزهم الحرب وكان بين الفريقين قتال شديد، انهزمت على أثره زواغة، وكان القتال قريبا من أرض ذات غرس جديد، ومن عادتهم ان يحوطوا الغرس، أو الجنان بحائط أو حبال، توصل بين أعمدة مغروزة في الأرض، محافظة عليه من الوحوش والحيوانات، فصدت تلك الحبال زواغة عن الهروب، وحبستها حتى أخذ منها أبو منصور غرضه من القتل، ثم رجع عنهم فدخلوا إلى جزيرة جربة، تحصنوا فيها والتجأ ابن خلف إلى رجل من وجوه زواغة هناك، فأدخله في قصر من قصور الجزيرة، وظنوا انهم قد نجوا، ثم لما استراح أبو منصور مدة واكتشف حقيقة حالهم وخبرهم في الجزيرة، جدد النهوض اليهم فسار في عسكر جرار إلى أن قرب من

الجـزيرة، ثم فكر في الأمر فرأى أن الدرهم والدينار يفعلان مالا يفعله الرمح والسنان، ويمهدان من الطرق مالا تمهده الفرسان، ويذللان من الصعوبـات مالا تذلله السيوف عند الطعان، فأرسل مع رجل من بني يهراسن مائة دينار إلى الزواغي، الذي عنده ابن خلف، هدية، ولما وصله وسلمها له وهو في بني معقل من زناتة، صار يسأله عن أبي منصور وأحواله، ويقـول له لو أتيت الينا في أولادنا لدفعناهم لك، فعاد الرسول إلى أبي منصور وأخبره فطوى أبو منصور المراحل في أقرب وقت، وكان له طبل يأمر بضربه اذا حان وقت الصلاة، فيقف أول العسكر وآخره فيصلي بهم ركعتي السفر، ويأمر بضربه للرحيل، وجد السير حتى دخل جربة بلا حرب ولا قتال فتوجه الزواغي إلى ابن خلف، وهو في قصره وقال له انزل يا أيها الأمير فقد أرملت كثيرا من نساء زواغة .

قال أبو زكرياء : فقال له : ولد خلف ليتكم لم تسموني أميرا بامشئومات بالبربرية، فأنثهم لأنه رجل عربي لا يحسن البربرية(١هـ) فنزل ودفعوه إلى أبي منصور فقيده ومضى به إلى الجبل فحبسه، فكان في سجنه إلى أن وجب حد السرقـة على رجل أقيم عليه الحد قبل ذلك، فاختلفوا في محل قطع الرجل منه فوجهوا اليه السؤال فأجاب بأنها تقطع مما دون العقب، وقال : سجنوني وأتوا يتعلمون مني العلم، فأطلق أبو منصور سبيله بعد أن أظهر التوبة وتحسنت أحواله، بعد ذلك ورجع إلى الحق فيما قيل، وكانوا يلقبونه بالطيب بن الخبيث بن الطيب، والله أعلم .

وانما كان أبو منصور يضرب الطبل عند دخول وقت الصلاة، لأن النداء أو الأذان لا يكفي لايقـاف تلك الجيوش المنتشرة الكثيرة الممتـدة، مع

الـطريق، ولابد من أنهم يؤذنون قبل اقامة الصلاة، فالطبل علامة على الأمر بالوقوف لا على الصلاة، ولعل اختلافهم في مسألة قص الرجل كان لقصد امتحان الطيب، وجعله وسيلة إلى اظهاره من السجن، والا فكيف يختلفون في مثل هذه المسألة، وهم في عصر كان الجبل فيه مملوءا بفحول العلماء والله اعلم .

ولايـة العـلامة أفـلح بن العبـاس ـ رحمهما الله ـ عـلى جبل نفوسـة وواقعـة (مانـــو)

ولما توفي أبو منصور ـ رحمه الله ـ كتبت نفوسة إلى الامام بذلك، فولي عليهم العـلامة أفلح، وفي مدته كانت واقعة (مانو)، التي فل فيها حد سيوف نفـوسـة، وفنيت فيها أبطالهم، وأبقت فيهم ثلمة عظيمة، وهي المصيبة الكبرى التي تضعضع بها ركن الامامة بتيهرت، اذ كانوا حصنها المنيع وسيفهـا البتار ودرعها المتين، ولما ضعفوا أخذت في التقهقر بطمع الأعداء فيها، وتسلطهم عليها حتى اضمحل أمرها كما سيأتي بيانه .

وتفصيل هذه الحـادثـة الشنيعـة، هو كما ذكره المؤرخون كلهم منهم الشماخي ـ رحمه الله ـ حيث قال : وكان ابراهيم بن أحمد من بني الأغلب، والي بني العبـاس على أفريقية ظالما جائرا، فقدم طرابلس، ولعله أفسد فاجتمع رأي أكثر نفوسة على ملاقاته، فأبى لهم أميرهم أفلح بن العباس، وسعد بن أبي يونس عامل قنطرارة (تيجي)، ومعبد الجناوني، وعزم من رغب في الجهاد واظهار المعروف ودين الله، لتكون كلمة الله هي العليا قال ابن الرقيق : وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين تحرك ابراهيم بن أحمد، يريد محاربة ابن طيلون، وامر بالحشد، فلما اجتمع له ما يريد، خرج من تونس

لعشر خلون من المحرم، فأقام برقادة إلى سبع بقين من صفر، ثم خرج بجميع من معه فاعترضته أهل نفوسة في جمع عظيم، وذلك في النصف من ربيع الأول، فكان بينهم قتال عظيم، فقتل من جنده جماعة من الرؤساء وغيرهم، ثم انهزم أهل نفوسة، وكان في أيام المعتضد فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا، وتطارح منهم في البحر بشر كثير، وقتلهم فيه حتى غلبت حمرة الدم على الماء (١هـ) .

هذا ما ذكره صاحب السير ـ رحمه الله ـ نقلا عن ابن الرقيق، ولا سبب فيه ولا داعي إلى حمل نفوسة على المعارضة، والوقوع في هذه المصيبة، مع انهم أعانوا بني الاغلب قبل ذلك على ابن طولون كما تقدم، والذي أراه مناسبا، وان كان قابلا للنقض، هو ما قاله العلامة أبو زكرياء ـ رحمه الله ـ من أن الجند كان قادما من المشرق، وسببه هو أن أخبار نفوسة وقوتهم قد تواترت عند بني العباس ملوك الشرق، ولازالت الرسائل تتوجه اليهم من القيروان وطرابلس، تفيدهم بأن دولة بني رستم بتيهرت لم تقم الا بنفوسة .

وكان ذلك في عهد المتوكل ببغداد، فأنفذ إلى المغرب جيشا، وقدم عليه ابراهيم بن الاغلب، ولما وصل طرابلس اجمعت نفوسة على منعه من الجواز خوفا من أن يكون قاصدا تيهرت دار امامتهم، فأرسل اليهم يستأذنهم في الجواز، فأجابوه بالمنع، فطلب أن يتركوا له مقدار طول عمامة على ساحل البحر، ليمر فيه، فأبوا، فلما رأى عزمهم أمر عسكره بأخذ الحذر، وقال لهم اتخذوا طريقا على ساحل البحر، فان تركونا كان مراد وان تعرضوا لنا قاتلناهم ولما بلغ الخبر الى نفوسة قال بعضهم دعوا الرجل ولا تتعرضوا له،

وأبى بعضهم الا ملاقاته، وممن كره ذلك العلامة سعد ابن أبي يونس، فقال له بعضهم : عز عليك شداخ قنطرارة (صنف من ثمرها)، وكرهت الموت، ولذلك تعرضت، فقال : خفت أن تذبح البقرة فيتبعها العجل، يعني بالبقرة نفوسة وبالعجل قنطرارة، وممن وافقه على رأيه العلامة معبد الجناوني وأميرهم أفلح، ثم كانت الغلبة للرأي العام، فلاقوه بموضع يقال له (مانو)، وهو قصر قديم بين قابس وطرابلس، واقتتلوا قتالا لم يعهد مثله قبله فيما قيل، وكان فيهم رجل من شجعانهم ما برز له أحد الا قتله فخرج اليه أفلح بنفسه، وكان صاحب البند (أي العلم الكبير) العلامة شبيه الدجي فأمره أفلح بأن يثبته في الارض فأبى، فأمره ثانيا فأبى، ثم أمره ثالثا، وكأنه أضمر في نفسه للمشائخ الذين ألزموه بالحرب ما أضمر من الشر، فقال له : حملته مع ابيك وجدك ولم يأمراني بذلك، وسأحفر له حفر الله لك، ثم حفر له في الارض وركزه فانصرف أفلح، وحام العسكر حول البند لا يولون الأدبار والحرب قائمة .

ولما رأى بعض أهل البصائر ما حل بالعسكر من الفناء صرع البند فتفرقوا، وقد مات منهم اثنا عشر ألفا، أربعة آلاف منها من نفوسة والباقي من غيرها، وأربعمائة عالم، فيهم من المشاهير العظام والعلماء الكرام : أبو ميمون وعمروس وماطوس وشيبة وميال ومعبدو جنا التنزغتي، وقد كان شرع في بناء مسجد بتنزغت بلدته فجاءه الامر فتوجه قبل أن يتمه، وهو باق إلى الآن لا سقف له وسواريه من الحجر الصلد واقفة كما نصبت في ذلك الوقت، ثم زحف ابن الأغلب إلى قنطرارة (مدينة تيجي)، فنزل عليها بغتة بعد طلوع الفجر، وحاصرها حتى سلموا فقتل من قتل، وأخذ

منها ثمانين عالما، وارتحل إلى جهة نفزاوة، وكان بها من العلماء المشهورين العــلامة أبو بكر يوسف النفوسي، فوجه اليه رسله، ولما وافته سألهم أن يمهلوه حتى يصـلي ركعتين، فلما صلاهما أخذ في الدعاء سائلا ربه أن يصرفهم عنه، فبعث الله ريحا عاصفا شتتهم وحالت بينه وبينهم، وكان ضريرا فأخـذ ابنه يوسف بيده وذهب، فلم يدركوا له أثرا، فعطف ابن الأغلب بالأساري إلى القيروان، ومنهم العلامة ابن يتوب، وكان مقطوع العرقوب، ولما أرادوا وضع القيد فيه مد لهم الرجل المقطوعة، ثم استأذن أصحابه في الهروب فأذنوا له فهرب .

ولما بلغ ابن الأغلب خبره أمر بقتل الباقين فقتلوا عن آخرهم رحمهم الله، وممن أخذ أسيرا عمروس رحمه الله وكان على فرس سابق يذود عن العسكر ويحمي الأطراف، ولما أعياهم أمره نسجوا له شبكة من حبال في طريقة فعثر فيها جواده فأخذوه الى ابراهيم، فقال له : سلني العفو عنك لأترك سبيلك فقال له : ذلك بيد الله لا بيدك، وتلك كلمة لا أقولها أبدا، حتى ألحق بالله، وانما اسألك أن لا تكشف عورتي، فقرضوه بمقراض من حديد، ولما بلغوا المرفقين فاضت روحه رحمه الله تعالى، ولعن ابن الاغلب العنيد، ومن الأسارى أخت عمروس تلك العالمة الجليلة، وبعض نسوة كن خرجن مع العسكر في أول الأمر، ولما خافت أخت عمروس على نفسها وعـلى من معهـا الفساد من فساق بني الأغلب أمرتهن أن تستخلف كل واحدة منهن على نفسها من يزوجها ممن يريد بها سوءا، ثم ان نفوسة رجعوا إلى الجبل وتحصنوا فيه، واجتمع أهل الرأي منهم واتفقوا على عزل أفلح فعزلوه، وولوا ابن عم له، ولما بلغه الخبر غضب لذلك ونوى الشقاق والفتنة .

ولما سمع أبو معروف بذلك وهو ممن كره عزله خوفا من الاختلاف بادر اليه وحذره الشر، ونهاه عما كان يقصده، وأمره بالصبر والسكون فامتثل أمره، ثم ان ابن عمه لم يحسن القيام بأمور الناس فعزلوه بعد ثلاثة أشهر وولوا أفلح، وقد ذكر المراكشي الحكاية في تاريخه، وبين ان نفوسة كانوا في عشرين ألف مقاتل، ولا أظنهم الا أكثر من ذلك بأضعاف حسبما تقتضيه كثرتهم ومعارضتهم، ثم قال، ولما قتل أكثرهم تمادى إلى طرابلس، فقتل بها أبا العباس أحمد بن زيادة الله بن الأغلب، وكان أديبا ظريفا له تواليف، وسبب قتله ان المعتضد بالله العباسي كتب إلى ابراهيم بن أحمد يعنفه على سوء فعله بأهل تونس، ويقول له ان انتهيت عن أخلاقك هذه والا فسلم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله ثم نهض من طرابلس إلى تاورغا فقتل بها خمسة عشر رجلا، وأمر بطبخ رؤوسهم وأظهر انه يريد أكلها هو ومن معه من رجاله، فارتاع أهل العسكر منه، وقالوا قد خولط، فانفض الناس عنه، فلما رأى ذلك خشي أن يبقى وحده فرجع إلى تونس، فجعل عقوبة من انفض عنه غرم ثلاثين دينارا، فسمي غرم الهاربين(١هـ)، فليتأمل فانه مباين لما قلناه أولا، اعتمادا على كلام أبي زكرياء ـ رحمه الله ـ، والله أعلم بالحقيقة .

واقعة أخرى لابن الأغلب

مع نفوسة

وبعد مضي سنة على محاربة (مانو)، حدثته نفسه الخبيثة بالعود إلى نفوسة وتجديد الحرب معهم، مادام جرح الأولى جديدا، فأرسل ابنه أبا العباس بعسكر في رجب من سنة أربع وثمانين ومائتين إلى حيز نفوسة،

فقتـل من وجـده في الأطـراف واستباح النساء، وأتى إلى والده ابراهيم بجماعة منهم أسارى فأمر بقتلهم، ذكر الشماخي ـ رحمه الله ـ انه قدم اليه رجل منهم، وكان أحسنهم منظرا، فقال له : أظنك معلم القوم وامامهم فقال : لست كذلك قال : فما تقول في ؟ قال : ما أقول الا انك فاسق ظالم سفاك لدماء المسلمين أبعدك الله فغضب، وقال له : والله لأقتلنك قتلة لم أقتل بها أحدا من أصحابك، فقال له : ان كان الأمر بيدك ستفعل ما قلته، وان كان بيد الله فهو أقوى، فزاده غيظا وقال ومن ذا الذي يمنعك مني ؟ ثم سمع الآذان فقام ليصلي بأصحابه، فألقى الله في قلبه اللطف به فتركه، وتحقق أن الأمر بيد الله، واستأصل من قدر عليه من أهل قنطارة، فصح ما خاف منه العلامة سعد حتى، قال ما سبق ذكره، وقد ذكر هذه الـواقعـة المراكشي أيضا، ولما فيها من زيادة على ما ذكرناه نأتي بكلامه، قال : وفي سنة ٢٨٤ كانت وقعة نفوسة لأبي العباس ابن ابراهيم، فقتل منهم مقتلة عظيمـة، وأسر منهم نحو ثلاثمائة، فلما وصل بهم إلى والده ابراهيم بن أحمد دعا بهم، فقرب اليه شيخ منهم فقال له ابراهيم : أتعرف عليا ابن أبي طالب (يشير إلى مسألة الحكمين والنهروان) فقال له : لعنك الله يا ابراهيم على ظلمك وقتلك، فذبحه ابراهيم وشق عن قلبه وأخرجه بيده، وأمـر أن يفعـل ببقية الأسرى كذلـك، حتى أتى على آخـرهم، ونظمت قلوبهم في حبال ونصبت على باب تونس، فانظر أيها القاريء إلى هذا التمثيل الشنيع، والفعل الفظيع الذي لا يصدر من الوحوش الخسيسة فضلا عمن يدعي التوحيد، فقبح الله الاستبداد وأربابه، ولعن كل جبار عنيد .

وقد ابتلى الله ابن الاغلب بعد واقعة (مانو) بفساد العقل فارتكب افعالا لا تصدر من المجانين، اذ شرع في قتل رجاله وأولاده وبناته ونسائه وكتابه وحجابه، حتى أنه قتل ثلاثمائة خادم من خدامه، لأجل خادم واحد رفع منديلا سقط من احدى جواريه، وقتل ابنه المكنى بأبي الأغلب صبرا بين يديه وثمانية اخوة كانوا من رجاله، وست عشرة بنتا في يوم واحد، قال الشماخي رحمه الله : قال ابن الرقيق : وأتى بأمور لم يأت بها أحد قبله ولم يتقدمه إلى مثلها ملك، واتخذ الأحداث حتى جمع أربعا وستين حدثا، وجعل لكل واحد منهم فراشا، ومرقدا ولحافا وبلغه عن بعضهم أمر فقتلهم جميعا، منهم من ضرب بعمود حديد فطار دماغه، وكان يحرق منهم كل يوم خمسة أو ستة، حتى أتى على آخرهم، وادخل بعضهم الحمام فسد عليهم وماتوا من حينهم، وقتل ندماءه وطبيبه وقتل كتابه وحجابه، وسجن بعض كتابه واستعطفه على نفسه، ومن جملة كلامه ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا فأجابه، بأن الملوك اذا ما استرحموا قتلوا، فقتله، وأبحأه وابل المطر إلى مسجد قرية فسقط بعضه وخشى من سقوط الباقي عليه وعلى أصحابه فخرجوا، ووقفوا في المطر فأبصرهم فتى فأنزلهم وأحسن بها قدر وباتوا بأحسن مبيت، وكان زمان التين فأدخلهم بستانا له وأطعمهم ما أرادوا، فأمر به فضرب ضربا وجيعا، وكانت له عبيد صقالبة فرمى بعضهم من اعلى القصر وبعضهم أدخلهم بيتا، وبنى عليهم ليموتوا جوعا، فوجدوا في البيت سيفا فقتلهم واحد منهم ثم قتل نفسه، فحزن عليهم اذ لم يموتوا جوعا، وقتل صاحب الديوان وشريكه لا لأمر عظيم، بأن قطع يدي أحدهما ورجليه وحمل رأسه إلى صاحبه فقال له : ان لك خدمة وقديم

صحبة، ولأقتلنك قتلة مريحة فقال : ما خنت لك عهدا منذ توليت، فأمر بضرب عنقه وقتل ابنه أبا عقال اذ قال لأخيه ان أبي زال عقله، وقتل جواريه وبناته فمنهن من خنق ومنهن من بنى عليها حتى ماتت جوعا، وله أفعال غير هذه، واضطرب أمره ثم أظهر التوبة، وأراد الحج ثم رجع غازيا إلى صقلية فمات طريدا ملعونا، ولم تبق أيامهم بعد ذلك الا قليلا، حتى اباد الله ملكهم وأهلكهم، وأزال الأمر من ايديهم الخ (١هـ) والمراد منه، وهذه الاخبار مذكورة عنه في اكثر التواريخ، بل فيها اكثر من هذا والله أعلم، وقع هذا كله بجهات نفوسة، والامام بتيهرت لم يتوصل إلى اعانتهم لبعد المسافة، وخوف ايقاظ الفتنة بتلك الجهات أيضا، الا أن العدل عنده سائد والأمن عام في الرعية .

أحـــوال أربـــاب المذاهب بتيهرت وخطب الجمعة فـــي مـــدة هـــذا الامـــام

المشهور أن لهؤلاء الائمة كلهم دواوين خطب للجمع والأعياد، اذ كانوا يخطبون بأنفسهم، ولا يعيدون خطبة خطبوا بها قط، وكلما بحثنا لم نعثر على شيء منها، وقد تعرض ابن الصغير لشيء قليل من هذا الأمر حيث (قال) ولم ينقموا على أبي حاتم شيئا، ثم نقموا عليه بعد ذلك أشياء أخذه ناسا بالتهمة وضربه بالسوط على الظنة، الا ان البلد وقضاته وأصحاب بيت امواله واصحاب شرطته، ومن بالبلد من فقهاء الأباضية وغيرهم من الكوفيين والمدنيين لم يطالب بعضهم بعضا، ولا سعى بعضهم ببعض .

وكانت مساجدهم عامرة وجامعهم يجتمعون فيه، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا، الا أن الفقهاء تباحثت المسائل فيما بينها، وتناظرت واشتهت

كل فرقة ان تعلم ما خالفتها فيه صاحبتها، ومن أتى إلى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الاباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك، إلى أن قال وحضرت لخطبائهم خطبا كثيرة، أولهم ابن أبي ادريس، والثاني أحمد التيه، والثالث أبو العباس بن فتحون، والرابع عثمان بن الصفار، والخامس أحمد بن منصور، وكل من رأيت من خطبائهم على المنابر فليس يستعملون في خطبهم الا خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خلا خطبة التحكيم، فانهم كانوا اذا فرغوا من الخطبة الاولى قاموا إلى الخطبة الثانية، وحكموا، وسوف اذكر خطبة التحكيم فيما يلي هذا الكلام، فلم يزالوا كذلك إلى أن ولي الخطابة رجل منهم يقال له أحمد بن منصور، وسمعته يخطب هذه الخطبة، ثم يخطب بعدها بخطبة التحكيم فلقيته، وعاينته وقلت له أن خطبتك التي سمعت منك اليوم ليست من خطب اسلافك، فقال لي حملني عليها عثمان بن احمد بن بجباج، وكان مقدما عندهم ولا يكادون يخالفونه فيما استحسن لهم، فخطبت بها لأنه استحسنها لي .

والخطبة هي هذه

(الحمد الله) الذي ابتدأ الخلق بنعمائه، وتغمدهم جميعا بحسن بلائه فوفق كل امرىء منهم في صبائه، إلى ما يحتاج الله من غذائه، وسخر له من يكلؤه إلى وقت استغنائه، ثم احتج على من بلغ منهم بآلائه، وأنذرهم بأنبيائه، الذي لم يزل بصفاته واسمائه لا يشتمل عليه زمان، ولا يحيط به مكان خلق الأماكن والازمان (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها

ولـلارض ايتيا طوعـا أو كرها قالتا أتينا طائعين) فقدرها أحسن تقدير، واخترعها من غير نظير، لم يرفعها بعمد تدرك بالمعاينة، ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة، وزينها للناظرين، وجعل فيها رجوما للشياطـين، فتبـارك الله أحسن الخالقين، تعالى ان تطلق في وصفه آراء المتكلفـين، وأن تحكم في دينـه اهـواء المقلدين، بل جعـل القرآن اماما للمتقـين، وهدى للمؤمنين، وملجأ للمتنازعين، وحكما بين المتخالفين، ودعـا أولياءه المؤمنـين إلى اتبـاع تنـزيله، وأمرهم عند التنازع في تأويله بالرجوع إلى قول رسول صلى الله عليه وسلم : بذلك نطق محكم كتابه اذ يقول جل ثناؤه ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾ وتعبد نبيه صلى الله عليه وسلم عند رجوع الأمة في تأويل ما اشكل عليها اليه، بأن يبين لهم معنى ما انزل عليه فقال : ﴿**وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه**﴾ ولم يكلهم دائما إلى القول في دينه بآرائهم، ولا اذن لهم في مسامحة اهوائهم، فتكون الاحكام مبتدعه والآراء مخترعه، والحكام متبعه، بل أحصى كل شيء عددا ، وضرب لكل شيء أمدا ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة**﴾ .

أحمده حمدا يبلغ رضاءه ويحتسب آلاءه، واستعينه على ما استحفظنا من ودائعـه، وحفظ ما استـودعنـا من شرائعـه، ونؤمن به ايمان من أخلص عبادته، واستشعر طاعته ونتوكل عليه توكل من انقطع اليه ثقة به، ونرغب فيما لديه واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة معترف له

بالربوبية والتوحيد، مقر له بالعظمة والتمجيد، خائف من انجاز ما قدم له من الوعيد، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اصطفاه لنفسه وليا، وارتضاه لخلقه نبيا، فوجده على حفظ ما ضمنه قويا، وبأداء ما استودعه مليا، وبالدعاء إلى ربه حفيا، ومتوقفا عند ورود المشكلات، ومشمرا عند انجلاء الشبهات، لا يرعوي لمن عذله، ولا يلوي على من خذله، ولا يطيع غير من ارسله، يصدع بالامر ويطفيء نار الكفر، لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم ينحرف عنه لزعم زاعم، ارسله على حين فترة من الرسل، ودروس من السبل، وتضامن من أهل الملل، والناس فريقان عالم مستكبر، وجاهل مستظهر، فالعالم الذي قد سبق له الخذلان ينزغه الشيطان، ويجمح به الطغيان، فيستنكف عن الدخول في الايمان، والجاهل متسكع في غيه متحير في أمره منتظر ما يكون من غيره، فلم يزالا يعكفان على الأزلام، ويعتصمان بالأصنام، والرسول عليه السلام يرعاهم رعي السوام، ويدعوهم إلى دار السلام، فلم يزل عليه الصلاة والسلام يعظهم بالآيات، ويقرعهم بالمعجزات حتى استقام من احب الله توفيقه من سائر أهل الديانات، فبلغ المحكمات، وأوضح المشكلات وزجر عن القول في الدين بالشهوات، فختم الله به النبيين، وأكمل به الدين، وأوجب به الحجة على العالمين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين واخوانه المرسلين وأوليائه من المؤمنين، ثم جلس ثم قام فقال .

خطبة التحكيم

(الحمد لله) الذي نستعينه ونستغفره، ونؤمن به ونستهديه ونستنصره، ونبرأ من الحول والقوة اليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات

أعمالنا من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، الله ربنا ومحمد نبينا والاسلام ديننا، والكعبة قبلتنا، والقرآن امامنا، ورضينا بحلاله حلالا، وبحرامه حراما، لا نبتغي به بدلا ولا عنه حولا، ولا نشتري به ثمنا، لا حكم الا لله اتباعا لكلام الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، وخلافا لأهل البدع، لا حكم الا لله خلعا ونبذا وفراقا لجميع أعداء الله، لا حكم الا لله ولو كره الجبارون الحاكمون بغير ما أنزل الله، وأشهد أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون، اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد، وبارك على محمد وآل محمد كما صليت ورحمت وباركت على ابراهيم، وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد، اللهم صل على العصبتين المباركتين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان، اللهم وارحم الشراة في سبيلك أهل الفضل في الاسلام، اللهم أرض وصل على الخليفتين المباركتين بعد نبيك، أبي بكر وعمر، امامي الهدى بما عملا به من كتابك، وما أثراه من نبيك، اللهم وأصلح الأمير يوسف بن محمد أصلحه وأصلح على يديه، ووفقه للخير وأعنه عليه، وافتح له من عندك أعوانا وأنصارا على طاعتك، اللهم اعزز به الاسلام وأهله، واذلل به الكفر وأهله، وانصره نصرا عزيزا، وافتح له فتحا يسيرا، وهب له من لدنك سلطانا نصيرا، كفى بك وليا وكفى بك نصيرا، اللهم اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ربنا ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم، ثم قرأ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ثم نزل (١هـ).

الى هنـا انتهى ما وقفنـا عليه من كلام العلامة ابن الصغير، المؤرخ المالكي في أئمة بني رستم ومدينة (تيهرت)، دارا امامتهم، وهو كلام لم يجد به أحد من المؤرخين منا ومن غيرنا لا قبله ولا بعده والله أعلم .

وفـــاة هـــذا الامـــام

وعـــدد مدتـــه

ثم ان الله سبحانه وتعالى، قضى على هذه الدولة بالانتهاء، وحكم بخراب ملك هذه العائلة، كما قضى على من قبلها ومن بعدها من الملوك والسلاطين والخلفاء، تصديقا لقوله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون﴾ وقوله ﴿يعز من يشاء ويذل من يشاء﴾ فتغلب الشيطان على عقول أبناء أبي اليقظان أخي الامام، وصور لهم انهم أحق بالامـامة من عمهم، ولعلمهم بأن الرعية كلها راضية به وبأحكامه، وأنهم لا يمكنهم الوصول إلى عزله وخلعه، ولا إلى اثارة فتنة يكتسبون بها استقلالا، ولو ببعض الجهات، أجمعوا على الغدر به ظنا منهم انهم لا ينـازعـون بعده في شيء، فهجموا عليه وقتلوه على حين غفلة، ونصبوا مكانه باتفاق مع من شايعهم واحدا منهم، وهو اليقظان، وذلك سنة أربع وتسعين ومائتين ٢٩٤ بعد أربعة عشر عاما من يوم ولايته ذاق فيها الحلو والمر، ثم ختم له بالشهادة فرحمه الله ورضي عنه، فأقام اليقظان في الامارة سنتين مهدد الجوانب مضطرب الأحوال، لما كان في ذلك العهد من استفحال أمر عبيد الله الشيعي، وظهور دعوته في المغرب وملكه الذي به انقـرض ما كان بالمغرب ومصر من الممالك والامارات، وممن سعى في

تقديم اليقظان وتسليم أمر الامامة له العلامة أبو الخطاب وسيل بن سنتين الزواغي ، الذي أثنى عليه صاحب الطبقات وقال : مذكور فيمن أفنى بدنـه في العبادة وماله في الصدقة موسوم بسمة الصلاح معدود في ديوان علماء وقته الخ .

وعلى هذا فاليقظان في رضائه ، ولعله غير داخل مع اخوته في مسألة قتل الامام أو لم يصح عنده اتفاقه معهم ، ولذلك لما عاتبته نفوسة الجبل على بعض أمـور منهـا التزامه الامر لليقظان قال : الحمد لله الذي جعل لي اخوانا يعاتبونني على ما بلغهم مني من التقصير قبل يوم القيامة ، ثم قال انما التزمت الامر لليقظان احتسابا لله لا لليقظان .



الباب العاشر

انقراض ملك بني رستم من تيهرت
واستيلاء الشيعة عليها

(لا ملك الا ملك الله ولا حول ولا قوة الا بالله) كان عبيد الله الشيعي رجلا من المشرق على مذهب الشيعة، ينتسب إلى فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ قدم إلى المغرب يطلب الملك فيه لرؤيا رأها في نومه، وقد صدقت الرؤيا ونال الملك، وقهر الملوك وطغى وتجبر، وآل ملكه بعد الى الاضمحلال كغيره، والله أعلم .

ذكر كل المؤرخين ان زوال ملك بني رستم، كان على يد الشيعي، الا أنهم لم يذكروا خبره بالتفصيل، وغاية ما قالوه ان للشيعي مع بني رستم في تيهرت خبرا طويلا، والذي ذكره أبو زكرياء رحمه الله ان للامام أبي حاتم

بنتـا اسمها (دوسرا)، ولعبيد الله الشيعي مولى اسمه الحجاني (أبو عبد الله)، أرسله إلى قبيلة كتـامـة فأقـام فيهـا، إلى أن ظهـر أمـره، وملك سجلماسة، فأرسل اليه بالقدوم، وكانت (دوسرا) توجهت اليه مع أخ لها لما قتل والدها الامام، وأخبرته بما وقع، ووعدته بالتزوج به ان أخذ لها ثار أبيهـا، فلم يجبها بشيء ولما دعاه عبيد الله إلى سجلماسة مر بالقرب من تيهرت، فخرج اليه من فيها من وجوه فرق الشيعة والواصلية والصفرية والمالكية، وقدموا له الشكاية في اليقظان، ووعدوه بالاعانة بالمال والرجال، ورغبوه في استيصال هذه العائلة كلها، وانتزاع الأمر من أيديهم، ولا رجال ولا عسكر لليقظان، ولا قوة له لادبار الناس عنه بما وقع من قتل الامام، فأرسل اليه الحجاني رسلا يطلب منه الاجتماع به، فخرج اليه ومعه بنوه واخـوتـه وأتبـاعـه، ولاقاه على أميال من تيهرت، ولما اجتمع به قال له (متجاهلا) : ما اسمك ؟ فقال له : اسمي اليقظان، فقال الحجاني : بل أنت الحـيران ما بالكم قتلتم أمـيركم، وسلبتم من أنفسكم ملككم، وأطفئتم نور الاسلام، وألقيتم الينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار، ثم أمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم، وذلك في شوال سنة ٢٩٦، ولما سمعت دوسرا بنت الامـام بذلـك هربت خوفـا من ان يطلبها الحجاني للتزوج بها كما وعـدتـه، ثم ان الحجاني دخل تيهرت ونهبها واستباحها، وقصد المكتبة المعروفة بالمعصومة وأخذ مافيها من الكتب الرياضية والصنائع وغيرها من الفنون الدنيوية، وأحرق الباقي كله، ومن هناك فقدت أغلب مؤلفات المذهب اذ كانت المكتبة عظيمة جامعة، وطلب (دوسرا) بكل جهد فلم يقف لها على أثر .

خبر العلامة يعقوب بن أفلح
ـ رحمه الله ـ

ذكر أبو زكرياء ـ رحمه الله ـ ان يعقوب ـ رحمه الله ـ لما بلغه مجيء الحجاني إلى (تيهرت)، خرج منها في خيل من أصحابه وأقاربه وأهله، قاصدا مدينة (وارجلان)، ولما سمع به الحجاني أرسل في أثره عسكرا، وكان يعقوب على جواد عظيم الشأن، يضرب به المثل في المغرب كله، ولما لحقه العسكر اعترضهم في الطريق، وصدهم عن الاتصال به، وبمن معه، وكلما رآهم سائرين نحوه أمر من معه بالمسير، ووقف هو في الطريق، فاذا رآه العسكر واقفا ينتظرهم وقفوا في مكانهم رعبا منه لما كان له من الهيبة والشدة، ولما أعياهم أمره ولم يقدروا له على شيء رجعوا وتركوه لحاله، فنظر إلى الطالع في السماء، ثم قال لأصحابه افترقوا فقد انقضت أيامكم وزال ملككم، فلا يعود اليكم إلى يوم القيامة، وما اجتمع منكم ثلاثة الا وقع عليهم الطلب، فتفرقوا، وأقبل هو بمن معه على وارجلان، وذلك على عهد العلامة أبي صالح جنون بن يمريان ـ رحمه الله ـ فتلقاه أبو صالح في جموع وارجلان، لما بلغه وصوله، وأدخلوه وأكرموه وأحسنوا القيام به، ثم طلبوه ان يولوه الامامة هناك، فامتنع وقال : لا يستتر الجمل بالغنم، فأرسلها مثلا ومكث فيهم زمنا طويلا، ثم توفي ودفن في مقبرة أبي صالح قال أبو زكرياء وقبره في عصرنا هذا لم يندرس كأنه ربوة (١هـ) .

وذكر ان بعض أهل وارجلان قال له : أتحفظ القرآن كله ؟ فقال له : معاذ الله أن ينزل على موسى وعيسى مالم أحفظه، وأعرف معناه، فكيف بكتاب الله الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومما يحكى عن

خشوعه انه كان في بعض الليالي قائما يصلي، فوقع سقف البيت ولم يبق منه الا ما كان فوقه، ولما جاء الناس للبحث عنه وجدوه واقفا على ما هو عليه، ولما سألوه قال لهم : ظننت ان القيامة قد قامت، أي لما وقع من الزلزلة، ولم يعلم بأن ذلك من السقف لاشتغاله، وله أخبار غير هذه مذكورة، والله أعلم .

الباب الحادي عشر

بيـــان بعـــض مـــن ولي تيهـــرت
بعـــد بنـــي رســـتم

ذكـر المراكشي طرفا من أخبار تيهرت، بعد بني رستم، وهو أحسن ما وقفت عليه من كلام المؤرخين في هذا المقام، وان كان مفرقا مشتتا في تاريخه، فخذه مجموعا موصولا من لفظه، قال : فسار أبو عبد الله (الشيعي سنة ٢٩٦هـ) حتى حل بمدينة (تيهرت)، فدخلها بالأمان وقتل من بها من الرستمية، يقظان بن أبي اليقظان، وجماعة من أهل بيته، وبعث برؤسهم إلى أخيه أبي العباس وأبي زاكي خليفته برقادة، وطوفت بالقيروان ونصبت على باب مدينة رقادة، وانقضت دولة بني رستم بتيهرت (١هـ).

فتوالت عليها بعدهم المصائب، وتتابعت عليها النوائب، وتراكم على أهلها البلاء، وفشا فيهم الثقل والجلا، وامتحنوا بالزلازل والقتال، وتجرعوا كؤوس الـذل والـوبـال، وما ينزل بهم عامل الا وتحضر عمال، وما يطرأ عليهم حال الا وتظهر أحوال .

وقد وضح المؤرخ المراكشي بعضا من ذلك حيث قال : ثم ولي أبو عبد الله على (تيهرت) أبا حميد دواس بن صولات اللهيصي، وكان يلقب بالسيد

الصغير، ثم نهض حتى احتل مدينة سجلماسة وحاربها يوم الاحد لسبع خلون منه ففتحها في هذا اليوم، وأخرج منها عبيد الله الشيعي وابنه أبا القاسم، وكانا محبوسين في غرفة عند مريم بنت مدرار، وفي سنة **٢٩٧** خالف على أبي عبد الله الشيعي محمد بن خزر بن صولات الزناتي ، وأقبل إلى مدينة (تاهرت) وطمع بأخذها واخراج دواس بن صولات منها، وان يقطع بأبي عبد الله وبمن معه في انصرافهم من سجلماسة، وباطنه على ذلك قوم من أهل (تاهرت)، يعرفون ببني دبوس، فاستدعوه فوشى بهم إلى دواس عامل الموضع فحبسهم في حصن ابن بخاته المعروف (بتاهرت) القديمة .

حارب محمد بن خزر (تاهرت) وتغلب على بعض أرباضها، فلما رأى ذلك دواس هرب إلى ابن حمة صاحب القلعة، ووثب أهل حصن ابن بخاتة على بني دبوس عندهم فقتلوهم، ودفع أهل (تاهرت) محمد بن خزر وحاربوه، ثم كاتبوا دواسا فانصرف اليهم، ورجعت قبيلة زناتة إلى (تيهرت)، وحاصروا دواس بن صولات فيها، فأخرج اليهم عبد الله قائدا يعرف بشيخ المشائخ، فهزم زناتة وقتل كثيرا منها، وفي سنة **٢٩٩** فتحت (تيهرت)، وكان أهلها قد ثاروا على دواس عاملها، وأرادوا قتله فهرب منها إلى (تيهرت) القديمة، وتحصن بها وقتل فيها أكثر أصحابه، وكانوا في نحو ألف فارس، واستدعوا محمد بن خزر، فقدم عليهم وأدخلوه البلد وولوه وبرزوا اليه بأم دواس وعياله، وأكثر سلاحه، ثم خذلوه وخذلهم، فزال عنهم وانصرف إلى موضعه، ثم أخرج عبيد الله العساكر إلى (تيهرت) في أعداد عظيمة، وخلق لا يحصى كثرة، فنزلت عليها يوم الجمعة لانسلاخ

المحرم، وحورب أهلها ثلاثة أيام، ثم اخذوا بالكيد ودخلت العساكر (تيهرت) يوم الثلاثاء لأربع خلون من صفر، فقتلوا وسبوا النساء والذرية وانتهبوا الأموال وحرقوها بالنار، وبلغ عدد القتلى بها ثمانية آلاف رجل، ثم ولي عبيد الله (تيهرت) مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي، وانصرف دواس بن صولات إلى مدينة رقادة، وقتله عبيد الله بعد ذلك، وفي سنة ٣٠٤ خرج مصالة بن حبوس من (تيهرت) لمحاربة سعيد بن صالح بن ادريس صاحب (ناكور) فدارت بينهم حروب كثيرة .

أقول : قال صاحب الاستقصاء وفي سنة ٣٠٥ أحرقت النار أسواق مدينة فاس، وأسواق (تيهرت) قاعدة زناتة، واحرقت اسواق قرطبة وارباض مكناسة من بلاد جوف الأندلس، وكان ذلك كله في شوال من السنة المذكورة فسميت سنة النار (١هـ) .

وفي سنة ٣١٠ قدم مصالة إلى المهدية على عبيد الله، فأقام بها أياما ثم صرفه إلى (تيهرت)، فخرج اليها في شعبان، وفي هذه السنة خالفت نفوسة على عبيد الله، وقدموا على انفسهم أبابطة فاجتمع اليه عدد كثير، واشتدت شوكته، فأخرج اليهم عبيد الله علي بن سليمان الداعي في جمع كثير، فلما قرب منهم ثبتوا فقتلوا كثيرا من أصحابه، وانهزم الباقون وتفرقوا عن علي ابن سليمان، فسار علي إلى طرابلس، وكتب إلى عبيد الله بذلك، فكتب عبيد الله إلى علي بن لقمن عامله على قابس، بأن يقتل كل من مر به من المنهزمين، فقتل منهم جماعة، وأمد عبيد الله علي بن سليمان بالجيوش، وأخذ في حصار نفوسة بعزم، وفي سنة ٣١١هـ أوقع علي بن سليمان بأهل نفوسة، ودخل حصنهم وهدمه، وقتل الرجال وسبى الذرية، وذلك يوم

الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان .

وفي سنة ٣١٢هـ خرج مصالة بن حبوس من (تيهرت) إلى زناتة فأداخ بلدهم، وقتل وسبى وأخرج خيلا إلى بعض نواحي ابن خزر، وكان فيها اكثر حماته ووجوه رجاله، وبقي مصالة في نفر من اصحابه، فبلغ ذلك ابن خزر، فقصد نحو مصالة، ودارت بين الفريقين حرب عظيمة، قتل فيها مصالة وانهزم اصحابه، وذلك يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان، وفي سنة ٣١٤هـ زحف ابن خزر إلى (تيهرت)، وحاربها فانهزم عنها، وأخرج عبيد الله في اثره موسى بن محمد الكتامي في جماعة من القواد، فلما صار بطبنة دخل محمد بن خزر الصحراء، وأبقى اخاه عبد الله مع وجوه رجاله بوادي مطماطة، فدارت بينه وبين جند الشيعي حرب عظيمة، كان الظفر فيها والغلبة لابن خزر .

ثم أخرج عبيد الله اليه أسحق بن خليفة واصحابه، وخالفت على الشيعي لماية، وما جاورها من القبائل، واستمدوا بابن خزر، فكتبوا إلى عبيد الله مستمدين، فأمدهم بجيش كثير فهزموه، وراسلت هذه القبائل محمد بن خزر، فولي عليهم أخاه عبد الله، ودارت بينه وبين جيوش الشيعي وقائع كثيرة، وبعد وفاة مصالة تولي (تيهرت) أخوه يصل بن حبوس، إلى أن توفي سنة ٣١٩، ثم وليها أبو مالك بن يغمراسن بن أبي شحمة اللهيصي، فقام عليه أهل البلد وأخرجوه سنة ٣٢٣هـ، ووليها أبو القاسم الأحدب بن مصالة بن حبوس، فقدموه على انفسهم، فأقام عليهم سنة واحدة، فلما انصرف ميسور من ارض المغرب إلى افريقية، حاربهم حتى ظفر بالبلد، فقتل ابا القاسم بن مصالة المذكور وولى على

(تيهرت) داود بن ابراهيم العجيسي، فأقام واليا عليها إلى ان اخرجه حميد بن يصل في جمادي الآخرة من سنة ٣٣٣ في ايام ابي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني، وخرج حميد بن يصل من (تيهرت) في سنة ٣٣٣هـ في خبر طويل ذكره، وجاز إلى الاندلس واحتل اسماعيل الشعيي مدينة (تيهرت)، وولي عليها ميسورا الفتى، فاضطرب عليه اهل البلد، لأنه سار فيهم بسيرة غير مرضية، فاستدعوا محمد بن خزر الزناتي وابنه الخير، ومن معهما من زناتة فقدموا إلى (تيهرت) في جمع عظيم، وأظهروا أنهم ناصرون لميسور، فخرج اليهم فغدروه وأسروه ودخل بنو خزر وزناتة مدينة (تيهرت)، ونزلوا دار الأمارة ثم اضطرب أمر أهل (تيهرت)، وتغلب عليها يعلي بن محمد اليفرني الزناتي إلى ان قدم جوهر قائد الشيعة سنة ٣٤٩ (١هـ) بدون زيادة ولا نقصان، الا ما كان من بعض كلمات يقع بها ربط كلامه المتفرق، لا يترتب عليها شيء من جهة المعنى الأصلي، ولم نقف على من وليها بعد هذا التاريخ، ولم نعلم نهاية عمرانها متى كانت، الا ما يؤخذ من كلام ابن خلدون، فانه بعد أن تكلم على أحوال بني رستم فيها باختصار، وتكلم على بعض من وليها بعدهم ممن ذكرناهم هاهنا قال : ولم تزل (تاهرت) هذه بعد لأعمال الشيعة وصنهاجة سائر أيامهم، وتغلب عليها زناتة مرارا، ونازلها عسكر بني أمية راجعة في أثر زيري بن عطية أمير المغرب من مغراوة أيام أجاز المظفر بن أبي عامر من العدوة إلى حربه، ولم يزل الشأن هذا إلى أن انقرض أمر تلك الدول، وصار أمر المغرب إلى دولة الموحدين من بعدهم، وملكوا الفرس وخرج عليهم بنو غانية بناحية قابس، ولم يزل يجيء منهم جلب على ثغور الموحدين، وشن الغارات على

بسائط أفريقية والمغرب الأوسط، وتكرر دخوله اليها عنوة مرة بعد أخرى، إلى أن احتمل سكانها وخلاجوها وعفى رسمها، لما تناهى عشرون من المائة السابعة والأرض لله(١هـ)، والذي يؤخذ من التاريخ انها خربت مرارا، وعمرت ولعل ما ذكره ابن خلدون هو خرابها الأخير الذي لم تعمر بعده.

هذا وبعد أن تبادلتها أيدي الشيعة وغيرهم ممن سعى في الأرض فسادا، أضمحلت اثار العدل منها تغيرت معالمها، وساد فيها الجهل. وسارت في التقهقر والادبار، على نسق ما كانت عليه أيام بني رستم من التقدم في العلوم والعمران، وقد بلغ الجهل بأهلها في آخر امرها مبلغا يكاد يكذب به سامعه، ومن ذلك ما ذكره المؤرخ القزويني حيث قال: ويحكى أنه رفعت إلى قاضيهم (يعني أصحاب تيهرت) جناية، فما وجدها في كتاب الله، فجمع الفقهاء والمشائخ (صورة) فقالوا بأجمعهم: الرأي للقاضي، فقال القاضي: اني أرى أن أضرب المصحف بعضه ببعض، ثم افتحه فما خرج عملنا به، فقالوا وفقت (الى الصواب) أفعل، ففعل فخرج قوله تعالى: ﴿**سنسمه على الخرطوم**﴾ فجدع (قطع) أنفه (١هـ).

وقد تضاربت أقوال المؤرخين، وتباينت في تقدير مدة عمرانها بامامة بني رستم، كما اختلفوا في مدة كل امام منهم، وقد قدمنا الراجح من ذلك.

فقال بعضهم: ١٣٠ وبعضهم ١٥٠ سنة، وعلى هذا القول جرى والدي ـ حفظه الله ـ في قصيدته التي رثى بها استاذه عمه الشيخ سعيدا الباروني نزيل جزيرة جربة وعالمها الوحيد في عصره ـ رحمه الله ـ حيث قال:

وأين الأئمة الكرام جميعهم بنو رستم كأس المنايا تجرعوا
لقد أسسوا (تيهرت) بالغرب وارتقوا مدارج عز الملك فيها وأبدعوا
وداموا بها خمسين عاما ومائة يحفهم من كان بالعضب يقطع
فبددهم ريب المنون وأصبحت منازلهم قفرا بها الريح زعزع

وأنهاها بعضهم إلى ١٦٠ سنة، وهو صاحب المكتبة الصقلية المطبوعة بمطبعة ليبسيك الأفرنجية (قال) : وزال ملك بني الأغلب وبني مدرار، الذين منهم اليسع، وكان لهم ثلاثون ومائة سنة متفردين بسجلماسة، وزال ملك بني رستم من (تاهرت)، ولهم ستون ومائة سنة، وملك المهدي (الشيعي) جميع ذلك (اهـ).

والذي يؤخذ مما رجحناه فيما سبق من مدة كل امام، انها لم تتجاوز ١٤٠ سنة، ولعل من قال بأكثر من هذا يرى ان امامة عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ مؤسس (تيهرت) كانت قبل ١٦٠ من الهجرة، وهو غير بعيد ان اعتبرناها من يوم وفاة أبي الخطاب، وخروجه هو من القيروان كما قدم، والله أعلم بالحقيقة .



الباب الثاني عشر

رثـــاء (مدينـــة تيهـــرت) لـمـــا خـــربت

تقـدم ماهـو كاف، في بيان بعض ما كان فيهـا من العلماء والأدبـاء والشعراء، ولا نشك في انهم رثوها بقصائد كثيرة، وبكل أسف لم نعثر على شيء منها، كلما بحثنا الا بعض أبيات ذكرها العلامة المراكشي، وهي تسيل الدمع وتكلم الروح، وتحرك الأحزان، وتدل على ما كان لقائلها من القدرة على اختيار العبـارات المؤثرة، بمعانيها المهيجة المثيرة للحنين إلى معاهد الأولين، وآثار المتقدمين، قال : ومما قيل حين قضى الله بخرابها، وانتقل أهلها وأربابها عنها .

خليلي عوجا بالرسوم وسلما — على طلل أقوى وأصبح أغبرا
ألما على رسم (بتيهرت) داثر — عفته الغوادي الرائحات فأقفرا
كأن لم تكن (تيهرت) دارا لمعشر — فدمرها المقدور فيمن تدمرا

قال : وقال بعض شعراء (تيهرت) من قصيدة أولها :

فراغ الهـوى شغـل ومحيـا الهـوى قتـل
ويـوم الهـوى حول وبعض الهـوى كل
وجـود الهـوى بخـل ورسـل الهوى عدا
وقـرب الهـوى بعـد وسبق الهـوى مطل

سقى الله (تيهرت) المنا و(سويقة)
بساكنها غيثا يطيب به المحل
كأن لم يكن والدار جامعة لنا
ولم يجتمع وصل لنا لا ولا أهل
فلما تمادى العيش وانشقت العصا
تداعت أهاضيب النوى وهي تنهل
سلام على من لم تطق يوم بيننا
سلاما ولكن فارقت وبها ثكل
وماهي آماق تفيض دموعها
ولكنها الارواح تجري وتنسل

قال: وتيهرت القديمة هذه، هى التى خربها الخير بن محمد بن خزر الزناتي.

الباب الثالث عشر

سياحة المؤلف في المغرب وزيارته تيهرت

كنت ارتحلت من مصر، بعد أن جاورت في الأزهر العامر نحو ثلاث سنين إلى المغرب الاوسط سنة ١٣١٣هـ، فقصدت جبال بني مصعب من أعمال الجزائر لطلب العلم، من عالم الاسلام امام الأئمة الاعلام أستاذي الشيخ محمد بن يوسف الميزابي، صاحب الصيت البعيد والذكر الحميد، الذي عرفت الدول حق قدره، فرصعت صدره بالنياشين المعتبرة بدون ان يسألها، أو يتصدى لها، وناهيك من رجل حاز ذلك على بعد مكانه، وقلة الوسيلة من أمير المؤمنين، وسلطان المسلمين المعظم عبد الحميد بن عبد المجيد خان العثماني، صاحب مملكة القسطنطينية العظمى، ومن السلطان المعظم ملك دولة الزنجبار، ومن الدولة الفرنساوية الكبرى، فأقمت عنده ملازما مجلسه الفاخر، نحو ثلاث سنين أيضا أظهر - رضي الله عنه - في أثنائها من الاعتناء بشأني والاجتهاد في ارشادي، مالا أقدر قيمته ببيان، فجازاه الله عني بما هو أهله، وأسكنه بعد عمر طويل غرف الجنان، كما لاقيت من الاخوان الكمل، والأصدقاء الافاضل، أهل المروءة والأدب الكامل، ممن عرفتهم وعرفوني هنالك، كل حفاوة واكرام، وتبجيل واحترام، حتى كدت أهجر بلادي واتخذ بلادهم وطنا لي، ولا عيب فيهم غير أن ضيوفهم، تعاب بنسيان الأحبة والأهل .

ولما كنت أسمعه كثيرا من أستاذي هذا على تيهرت وعمرانها، وبني

رستم وعدلهم فيها، اشتاقت نفسي إلى زيارة اطلالها والوقوف على ما بقي من آثارها، اعتبارا بمن مضى، وتزودا من بركات من وطئوا ثراها، وعمروا بذكر الله سهلها ورباها، فاستاذنت الامام في السفر وبعد مماطلة وتسويف طويل، أنعم بالاذن وشيعني مسافة أخجل من بيانها لعلو مقامه وصغر مقامي، وان علم بها الخاص والعام، ولقبني بها لا أتحمل حمله، مما لم يجد به لغيري، وزودني من دعائه الصالح، وتوجهاته القلبية، مالم ازل استمد منه الرشد والتوفيق، ولا أضام معه بأذن الله مادمت حيا، فقصدت الجزائر، ومنها عطفت إلى (تيارت)، وهي (تيهرت) القديمة، يصحبني من الأصدقاء عدد لا أنسى ذكرهم، ولا أقدر فضلهم، على متن وابور السكة الحديدية، فاخترق بنا جبالا وقطع أودية، وهو يزأر كالأسد كلما دخل غارا، أو تجاوز قنطرة، وكأنه يدرك ببصيرة نقاده، ويبصر بأبصار قادة، أو يهتدي بالدليل، فيقتحم المفاوز بالليل، إلى ان وصلنا (تيارت)، ونزلنا عند صديق لنا من افاضل تجار بني ميزاب فأكرم نزلنا، ثم سار معنا على ظهر البابور إلى (تيهرت) .

فنزلناها، واذا هي لم يبق منها الا آثار ورسوم وأنقاض متراكمة، يجمعها الفلاحون ليحرثوا أماكنها، وبقي من سورها شيء قليل في ناحية يدل على منعته وقوته، وزرنا الغار الموجود فيها بالقرب من الشجرتين اللتين يقال انهما من وقت عمرانها، والمشهور عن الغار أنه معبد لبعض زهاد ذلك الوقت، ويعترف له الاعراب المجاورون لها ببعض كرامات منها : ما أخبرني به بعضهم من أن نصرانيا كان في السنين القريبة يرعى خنزيرا له، ويأوى اليه في بعض الاوقات للمبيت أو المقيل فيه، ولما سمع بنو ميزاب التجار

(بتيارت)، أو غيرها نهوه عن ذلك مرارا، وحذروه فلم ينته، ثم أصبح في بعض الايام وهو فيه أعمى، وخنزيره هباء بجنبه، فاعتبر وندم حيث لا ينفعه الندم، ومن عادة بني ميزاب زيارتها في كل سنة مرارا، والتصدق فيها وقراءة القرآن، فكان يبعث اليه يسألهم أن يقبلوا منه صدقته مع صدقاتهم، رجـاء أن يرد الله عليه بصره فلا يقبلون منـه، فأتى مرة بنفسـه وذبـح وتصدق، وذهب وقد سألت عنه لما سمعت الحكاية لأجتمع به وآخذ منه حقيقتها مشافهة، فلم يتيسر ذلك لموانع، أهمها استعجالي ولعلماء الأفرنج من الفرنساوين وغيرهم حقيقة علم، بأحوال هذه المدينة وأخبارها، وما كانت عليه من العمران، فهم يقصدونها في سياحتهم، وقد وجدنا هناك فرنساويا فلاحا لا يعرف من العربية إلا يسيرا ولما رآنا بفم الغار جاءنا فقال بكلام لا يفهم الا بالقوة، ان لبني ميزاب هاهنا في الزمن الأول خمسة ملوك أقوياء، وأشار بأصابع يده، ومن وسطها الآن تمر السكة الحديدية، وطريق الكروسة إلى (تيارت) وغيرها، وبالقرب من العين المسماة إلى الآن بعين السلطان بنيت المحـطة، وعلى العين شرع الفرنساويون في العمارة، ولا يمضي زمن حتى يقـال : عاد إلى (تيهـرت) شبـابها القديم، نزلها تجار الاباضية أربـابهـا القدماء وغيرهم، من بني ميزاب، وما ذلك على الله بعزيز، وفي جانب منها هنشير عظيم، ذو أنقاض كثيرة، يعرف الآن بدار السلطان، ولعله بقية من دار الامارة الاولى، والله أعلم .

وبعد أن قرأنا ما تيسر من كلام الله العظيم، وتصدقنا على الحاضرين بما استصحبناه معنا لأجل ذلك من (تيارت)، انفردت إلى أعلى جهة منها، أكيف هيئاتها، وأرمي بنظري إلى أرجائها، وأنا أردد قول الشاعر القائل :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا　　أنيس ولم يسمر بمكة سامر

إلى أن لاحت لي قطعة السور الباقية منه، فانتقلت إليها، فاذا بها زاوية من زواياه محكمة البناء، متينة الأساس، كأنها بقية برج، فاسترحت في ظلها بجنب عود من تين، أو خروع عتيق، فيما أظن برهة من الزمن أجول بفكري في أخبارها وتاريخها، وببصري في آثارها، حتى أدركتني رقة لانت لها الطبيعة الجامدة، والقريحة الكاسدة، فجادت بمالم يكن من عادتها قبل ذلك أن تجود به، واستحضرت مالم أكن أظنها تسبح فيه، فقلت والقلب في حسرة وانكسار، والدمع ينحدر من عين مدرار، وان لم أكن ممن ينظم من الشعر عقوده ويدرك منه سننه وفروضه، هذه القصيدة التي لم أغير منها مما قلته اذ ذاك شيئا سيرا في منهج الصدق، الا ما كان من قولي : (واستعبدوا البر والبحرا) فانه قد أبدلته الآن بقولي، (واستسهلوا الخ) كما ستراه لما في لفظ استعبدوا من مجاوزة حد المبالغة المنهي عنها، فخذها أيها القاريء على مافيها، وان بالبدر كلفا .

قفا نبك أطلالا تقلص ظلها　　ونندب آثار الذين بقوا ذكرا

بني رستم من قام بالعدل ملكهم　　فأمست بهم تيهرت كالروضة الزهرا

تحف بها الانهار والزهر باسم　　بروض بساتين هي الجنة الخضرا

أقاموا منار الدين دهرا وشيدوا　　معالمه واستسهلوا البر والبحرا

فكم نظموا جيشا وكم نشروا عدلا　　وكم هندوا سيفا وكم ضربوا تبرا

وكم من حصون أحكموا ومعاقل　　وكم مسجد أحيوا وكم عمروا قطرا

وظل لواء النصر يخفق فوقهم　　وتيهرت دار العلم والدولة الكبرى

فكم من أمير تحت ظل ابن رستم　　تقلد فيها السيف واكتسب الشكرا

وكم من امام كان في الدين حجة وكم في سياسات الملوك ترى بدرا
فأمست خلاء تذرف الدمع حولها عيون بها قرت وسادت بها دهرا
كذا الدهر خوان فيضحك تارة ويبكي مرارا صاغ من حلوه المرا
أيا دار كم عمرت والسعد مقبل عليك وكم بالعلم سادت بك الغبرا
عمرت. وعمرت البلاد سويعة من الدهر كانت من نوادره الغرا
يشد اليك الرحل من كل وجهة بك العيش رغد طيب وبك الاخرى
فهل فيك من يدري وقوف متيم يكفكف دمعا نادبا مربع الذكرا
يئن أنينا يجرح القلب والكلى يفتت أكبادا ولما يطق صبرا
سلام سلام من قلوب كئيبة تسائل اطلالا ولم تكتسب خبرا
على معهد الاسلام والدين والهدى وربع ملوك كان ملكهم صدرا
ألا أيها الخل المرافق قف وقل حيال ديار طالما جبرت كسرا
سقى الله (تيهرت) بوابل رحمة يجدد ذكراها ويحيي لها فخرا
وآه وهل يحيي التأوه ميتا ومن ذا يرى عمرانها مرة أخرى
بعيد بعيد لكن الله ربنا قدير على أن المغيب لا يدرى

ثم تحولت إلى أصحابي، وعدنا إلى الجزائر، ومنها وليت وجهي نحو وطني العزيز، جبل نفوسة الشامخ العامر، فكانت لهذه الزيارة بعد ذلك رنة أطبقت آفاق تلك الجهات، وبني عليها وعلى ما عطف عليها من الوسائل حدث أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأهان وأكرم، وأذل وأعز، وأبعد وقرب، وأسخط وأرضى، وكان وكان وكان، مما لو سطر لملأ بطون الدفاتر وضاقت دونه صفحات الطروس، وماهو وأيم الله الا أوهام في أوهام، وأفكار كأضغاث أحلام، وحيل ومراصد، يتوصل بها إلى خبيث

﴿تنبيــــه﴾

حيث ان أغلب تحرير هذا الكتـاب كان مجاريا لطبعـه بمعنى ان ما أحـرره اليوم يطبع غدا مثلا، حصل فيه بعض تساهل من حيث اللغة والاعـراب والـرسم، وربـما أطلع على شيء من ذلـك بعد فوات طبعه فأتأسف اذ لا يمكنني تصليحه، ومن نظر إلى قولي في صحيفة ١٢ عن تيهرت (بعد أن مضى عليها مالا يبعد عن ألف سنة وهي خراب) والى ما ذكرته أخيرا ممن وليها بعد بني رستم، يصدق ماقلته، فاني كنت عند تحرير الاول اعتقد انها لم تعمر بعد بني رستم قط، ثم اطلعت على الأخير بعد ذلك، ولم أغير مما نقلته من كلام المؤرخين شيئا غير لفظ الخوارج، الذي يقرنونه أحيانا بلفظ الاباضية أو يعبرون به عنهم، طعنا فيهم فاني أسقطته، وأرجو من أرباب الاطلاع أن يصلحوا الفساد، ما أمكن بدون اعتراض، فاني مقر بالعجز والتقصير، والكمال لله وحده الذي خلق النقص والكمال .

وأصلــح الفســـاد بالتأمـــل وان بديهـــة فلا تبـــدل
اذ قيــل كم مزيــف صــحيحا لأجــل كــون فهمــه قبيحـــا

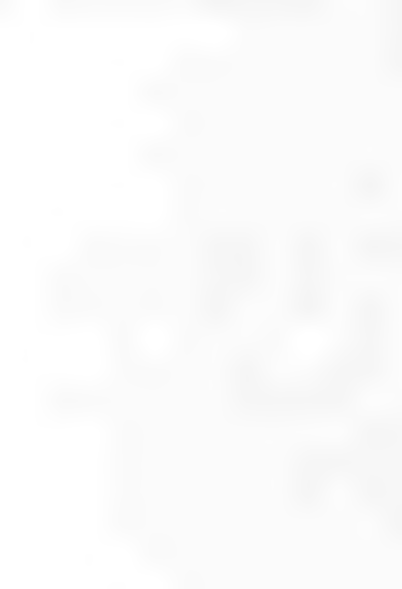
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

خاتمـــــة

تم بحمد الله وتوفيقه الفراغ من تحقيق هذا الكتاب لمؤلفه العلامة الشيخ سليمان باشا الباروني ابن العلامة الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني والمولود في مدينة جادو حاضرة متصرفية (فساطو) عام ١٨٧٠م. وكان الفراغ من تحقيقه في الثالث من ربيع الثاني ١٤٠٧ هـ ، الموافق الخامس من ديسمبر ١٩٨٦ م .

واننا اذ نتقدم بهذا العمل فاننا نرجو الله جلت قدرته ان ينفع به البلاد والعباد والله من وراء القصد . . نعم المولى ونعم النصير . .

المحــقق



المحتويــــــات

الصفحة

القسـم الاول

القسـم الثـاني

الباب الاول :

الصفحة

الباب الثاني :

الباب الثالث :

الصفحة

الباب الرابع :

الباب الخامس :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصل السابع :

الصفحة

الفصل الثامن :

الصفحة

رقم الايـــداع ١٦٨/ ٨٦

طبع بالمطابع العالمية - روي - سلطنة عُمان